دمیتری میدفیدیف

کان هذا فی ضواحی روفنو

9.5.2017

@ketab_n
Follow Me

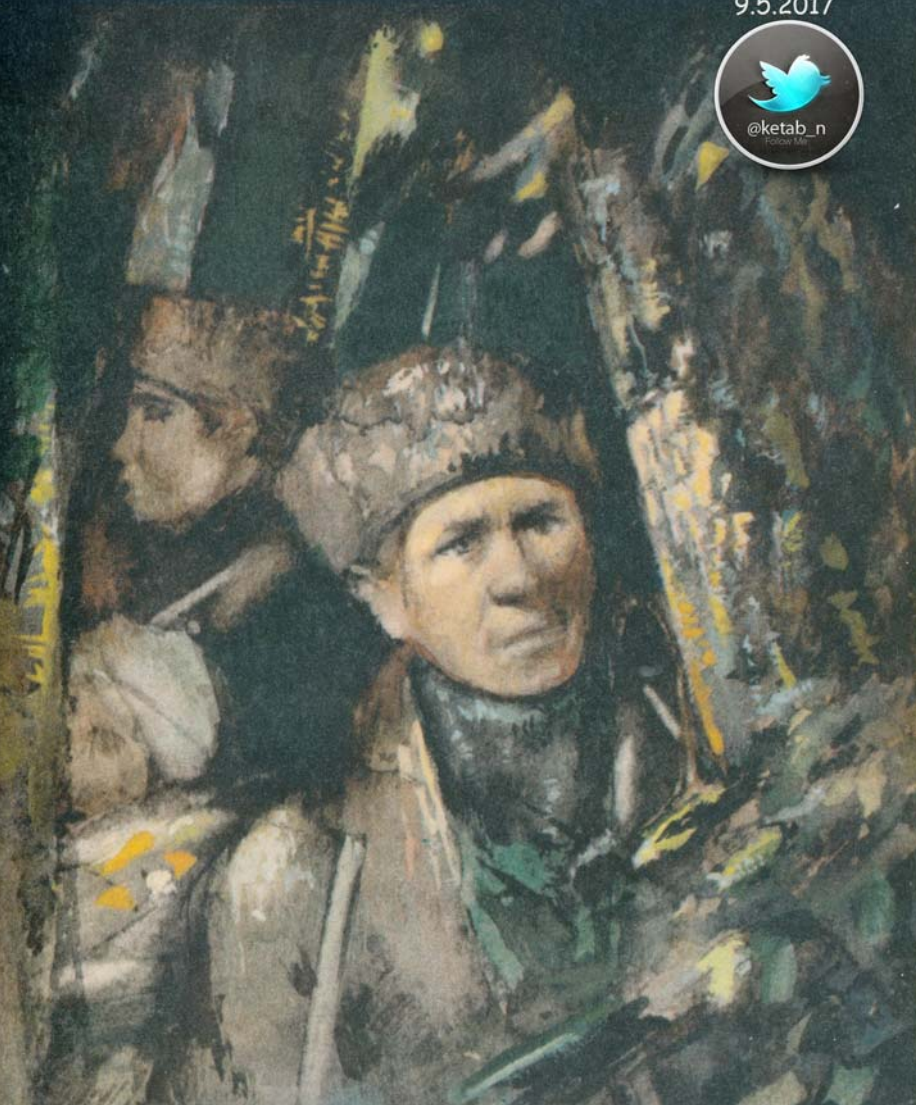

دميترى ميدفيديف

كان هذا فى ضواحى روفنو

رواية

الطبعة الثانية

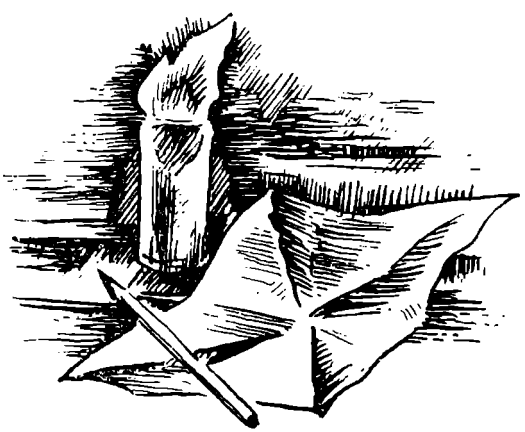

دار «رادوغا»
فرع طشقند، ١٩٨٨

Twitter: @ketab_n

مراجعة مالك حسن

ДМИТРИЙ МЕДВЕДЕВ

ЭТО БЫЛО ПОД РОВНО

Повесть

На арабском языке

М $\frac{4702010200-109}{031\ (01)-88}$ 074—88

© طبع في الاتحاد السوفيتي
الترجمة الى اللغة العربية — دار «رادوغا»
فرع طشقند، ١٩٨٨

ISBN 5-05-001738-6

Twitter: @ketab_n

التدريب

في صباح مبكر من نيسان (ابريل) عام ١٩٤٢ اجتمعت في مطار توشينو مجموعة من أولئك الذين سيصبحون في عداد المحاربين الأنصار. كان ينبغي علينا جميعا هذا اليوم أن نحمل على متن طائرة ونقوم بأول محاولة قفز بالمظلة. لم يكن قد سبق لأحد منا أن قفز بالمظلة قبل الآن، الا أنا . لقد لاحظت كيف أن كثيرين اضطربوا وآخرين أخذوا يتفكهون بأحاديث مرحة، لكن النظرات القلقة المنصبة على حقل المطار كانت تتحدث بفصاحة عن الحالة النفسية لهؤلاء «المتفكهين».

كنت أعلم هذا ليس من الجبن في شيء. فقد تطوع هؤلاء جميعا بملء ارادتهم، وإلتحقوا بصفوف الانصار وهم يعرفون حق المعرفة أية أخطار سوف تحدق بهم هناك، في مؤخرة العدو. لقد وقع الاختيار على خمسين شخصا فقط من مجموع الراغبين الكثيرين ليكونوا في عداد هذه الكتيبة ممن لا يمكن اطلاقا أن يخيبوا املنا أو يجبنوا. لقد بدأوا الآن جميعا يضطربون. و من سبق له أن جرب القفز بالمظلة يعلم تماما أن الاضطراب لابد منه، بل هو فرض مشروع.

نظرت الى ساعتي، كان علينا أن ننتظر ثلاثين دقيقة كاملة بعد. كان يجلس على مقربة مني ألكسندر ألكسندروفيتش لوكين، لقد عين في كتيبتنا رئيسا للاستطلاع. كان لوكين يبدو غير طبيعي أيضا: كان يدخن السيجارة تلو الأخرى. التفت اليه وصحت عامدا ليسمعني الجميع:

— الكسندر الكسندروفيتش! أراك تفرط في التدخين؟ ليس القفز من ارتفاع شاهق مريحا على أية حال، شيء رهيب؟

Twitter: @ketab_n

وفهم لوكين حالا أن كلامي الذي كان موجها للجميع مقصود لأمر ما في نفسي، فأجاب:

– وماذا يا دميتري نيقولايفيتش، رهيبا كان أم غير رهيب لابد من القفز!

واخلد الجميع الى السكينة مصغين الى كلماتنا.

كان هذا باعثا على الدهشة: كيف أن هذا القائد يقول بصراحة انه يخشى القفز! اغتنمت فرصة ذلك الصمت وبدأت حديثي آخذا بعين الاعتبار نصف الساعة الباقي من الانتظار المضني:

– ان الأمر لجديد عليكم جميعا. أما أنا فمظلي قديم. ستكون القفزة الثالثة بالنسبة الي هذا اليوم. لقد قفزت للمرة الأولى منذ زمان بعيد جدا، في عام ١٩٠٧، عندما لم يكن قد سمع بعد بالقفز المظلي. كنت أعيش آنذاك في بيلوروسيا، في بلدة عمالية كبيرة تدعى بيجيتسا. وفي يوم القديس نيقولا كان يوم ميلاد أبي الذي سمي باسمه، فدعا اليه أصحابه وذويه. كان الضيوف كلهم في سنه، وبالطبع، كان هذا مملا بالنسبة لي وقد كنت لا أزال في الثامنة من عمري بعد. اغتنمت فرصة الصخب في البيت، فاختلست قليلا من التبغ من أبي، وتناولت بعض الرنجة المملحة، ثم اقتطعت قطعة من فطيرة العيد وانطلقت بها جميعا الى ضيافة حارس برج الاطفائية الذي كان يقوم الى جانب بيتنا.

كان الحارس غافريليتش العجوز صديقي القديم. كنت شد ما أحب أن أسمع الى حكاياته المتنوعة عن كل ما هب ودب، وغالبا ما كنت أقضي معه الوقت فوق برج الاطفائية من حيث تبدو البلدة جميعها وكأنما على راحة اليد.

جرب غافريليتش الفطيرة بالسمك، أثنى عليها، وتناول قطعة من سمك الرنجة، ثم شرع يلف لفافة «كراع عنزة»، وبدأ حكاية طويلة عن بساط الريح. وهكذا بقينا جالسين معا على البرج ساعة أو ساعتين. تعب غافريليتش من الكلام وأسلم أجفانه للنوم. لم يبق لدي شيء ما أعمله، فقررت أن أدخن أنا كذلك. صنعت لفافة وأخذت أسحب الأنفاس وأنفث في شيء من الأهمية واغص بالدخان لأنني لم أكن قد اعتدت

Twitter: @ketab_n

على هذا بعد. وأخذت اذرع سطح البرج جيئة وذهابا. نظرت الى أسفل، فاذا أبي هناك! هددني بالعصا متوجها الى البرج. لقد أدركت أنه ليس ثمة مهرب من الجلد. كان، أولا، قد حظر علي الصعود الى البرج، وثانيا فقد رآني أدخن.

وما العمل؟ وأنى لي تجنب هذا التنكيل؟ ووقع نظري على مظلة كبيرة من الخيش المشمع. لقد كانت زوجة غافريليتش تستظل بها عادة عندما كانت تجلس في السوق في أيام الحر أو المطر: كانت تبيع البذور. وكنت قد سألت غافريليتش يوما ما عن حاجته الى تلك المظلة فوق البرج، فأجابني وهو يغمز باحدى عينيه بخبث: «ان هذه لشيء قيم أيها الأخ. ربما يشب حريق في البرج نفسه، لو أنه يحترق لنفرض من الأسفل، فكيف لي هبوط السلالم آنذاك؟ أمسك بهذه المظلة وأقفز بها».

كان غافريليتش يقول هذا مازحا، أما أنا، فما أن لمحت أبي حتى فرقت، ولم يطل بي التفكير حتى أمسكت بتلك المظلة، فتحتها و... قفزت من أعلى البرج. آه، وياللهول!

صحيح أنني لم أتخل عن المظلة، وسقطت واياها على سطح البيت المجاور، وكانت الصدمة عنيفة، لكنه ما كان لي حينئذ أن أفكر بها. دلكت ركبتي المخموشتين المرضوضتين، وهرعت من السطح الى وراء الركن، وصرت أرقب من هناك.

كان أبي قد أصبح في أعلى البرج، تطلعت فاذا غافريليتش يتقدم اليه مشيرا الى المظلة التي تركتها على السطح، ويوضح له شيئا ما.

ثم اختفى أبي من هناك: وكأنما قرر أن يجدني. أطلقت لساقي العنان، وعبرت ثلاثة شوارع بعيدا عن البيت، لكنني عدت في المساء، وتلقيت العقاب الشديد.

هكذا قفزت بالمظلة لأول مرة في حياتي، أترون، اذن فأنا أول رائد للقفز المظلي.

وبينما كنت أتحدث الى مستمعي لاحظت كيف أن سيماء البشر بدأت تعلو وجوههم. نظرت الى ساعتي وكان قد بقي عشر دقائق بعد، فيمكنني أن أتابع الحديث:

— وفي المرة الثانية قفزت بمظلة حقيقية ومن طائرة

Twitter: @ketab_n

حقيقية كذلك. كان هذا في زمن غير بعيد، في آب (اغسطس) عام ١٩٤١ عند أول بداية الحرب. كان يجب علي أن أعبر مع كتيبة الى مؤخرة العدو. وسألوني ان كنت أقدر على القفز بواسطة المظلة. فأجبت قبل أن يرف لي جفن ان هذه ليست المرة الأولى في حياتي، وانطلقنا حالا الى المطار. لقد أوضحوا لي في مدى خمس دقائق كيف تفتح المظلة، ثم رفعوني الى الجو على متن طائرة «او – ٢» وقفزت. أعترف لكم لقد كان الأمر مريعا حقا. ثم تبين لنا أن ذلك الاستعداد كان دون جدوى: لقد تسللنا على اقدامنا الى مؤخرة العدو. وها اني الآن سوف أجرب القفز للمرة الثالثة. وأقول لكم كلمة شرف: انني أضطرب من جديد، لكنه: قفزتان – ونكون في مؤخرة الألمان! اليوم قفزة، وبعد أيام قفزة أخرى، ثم الى العمل. ايه، والآن هيا بنا، ها هم أقبلوا في طلبنا.

لقد سليت بذكرياتي الرفاق، كما يبدو، وخفت وطأة الأمر بالنسبة لهم: ان كان القائد نفسه يضطرب، فهذا يعني أنه ليس في الأمر ثمة عار.

توجهنا جميعا الى الطائرات.

وتمت عمليات القفز بنجاح. لكنها لم تخل من المغامرات. لقد «تشجرت» – وقعت على شجرة بتولا هائلة، وعلقت المظلة بفروعها، فكان لا بد من فكها ثم تدليت على جذع الشجرة هابطا الى الارض.

وعلق أحد الرفاق بين شجرتين في مكان غير بعيد عن المطار. هرعوا اليه وهم يصرخون:

– تأرجح، أمسك بالشجرة ثم انزل!

فيحاول أن يتأرجح لكن عبثا. عندئذ تناول المتجمهرون من تحته مظلة حرة، فتحوها بأيديهم على مرأى منه وأخذوا يوضحون له:

– فك المظلة واقفز!

وقفز المظلي الغر قفزة لاعب السيرك في شبكة.

ثم أقلتنا سيارة شحن من المطار الى موسكو. كان الوقت ظهرا، ولكن شوارع العاصمة كانت تبدو خالية. فشارع تفيرسكوي بولفار والساحة السوفيتية اللذان كانا أيام

Twitter: @ketab_n

السلم حافلين بالاطفال مع الكرات وحبال القفز وبالدراجات من ذوات العجلات الثلاث، أصبحا الآن خاليين من كل شيء. لقد أجلي الاطفال مع أمهاتهم وجداتهم الى الشرق، الى الاقاليم الآمنة. وتم اجلاء الكثير من المصانع والمؤسسات كذلك. وخلت العاصمة من نصفها تماما. لقد كان الهتلريون في ذلك الوقت قد طردوا الى مسافة مائتي – ثلاثمائة كيلومتر من موسكو. لكن الطيران الالماني كان لايزال يتابع غاراته الجوية على العاصمة.

كان الاستعداد للطيران الى مؤخرة العدو قد أشرف على نهايته. والحق أقول لم نتدرب طويلا، قرابة شهر وحسب. وفي غابة لا تبعد كثيرا عن المدينة ضربنا معسكرا، وقمنا بدراسة الطوبوغرافيا وبالتدريب على الرمي. حتى اننا تعلمنا كذلك اعمالا هندسية: لقد بنينا اطوافا وعبرنا عليها البحيرة المجاورة لمعسكرنا.

وباعتباري قائدا للكتيبة فقد كنت أغتنم كل فرصة لأتحدث مع الناس عن مستقبل حياة الانصار. لقد كنت أكثر خبرة وتجربة من غيري. فمنذ شهر آب (اغسطس) عام ١٩٤١ حتى شباط (فبراير) من عام ١٩٤٢ كنت أقود كتيبة للأنصار في غابات بريانسك في بيلوروسيا. لقد تحدثت الى الرفاق عن المصاعب التي تنتظرنا. تحدثت عما يحدق بالحياة من أهوال لكن بصورة لا تخيفهم:

– انني أعلم بتجربتي الخاصة أن الانصار هم سادة في مؤخرة الألمان. والشعب ينظر اليهم كممثلين للجيش الأحمر، كممثلين للسلطة السوفيتية. ولهذا ينبغي على كل نصير في كل شيء وفي كل مكان أن يكون جديرا بوطننا الاشتراكي العظيم!

كان معنا في الكتيبة كثير من المحاربين الاوكرانيين. وليس هذا من قبيل الصدفة. لقد كان مكان عملنا محددا في مقاطعة روفنو من اوكرانيا. هناك، ما بين مدن سارني، راكيتنويه وبيريزنو تمتد الغابات الهائلة. وكان ينبغي أن يكون مقر كتيبتنا في غابات سارني.

لكن طيراننا فورا الى غابات سارني كان عملية شاقة.

Twitter: @ketab_n

لقد كانت واقعة على بعد بعيد خلف خط الجبهة. وفوق الاراضي التي يحتلها الألمان كان يمكن لطائرتنا أن تطير في الليل فقط والا فسوف يسقطونها. وليالي الربيع قصيرة مما لا يسمح لطائرتنا أن تقطع المسافة من موسكو الى غابات سارني وتعود في ليلة واحدة. وان مجرد ظهور الطائرات السوفيتية فوق غابات سارني سيلفت أنظار الألمان وستكون كتيبتنا في خطر كبير. ولهذا فقد تقرر أولا ارسال الكتيبة الى غابات موزير القريبة من قرية موخوييدي الواقعة على تخوم مقاطعة روفنو. ومن هناك تتابع الكتيبة سيرها على الاقدام الى غابات سارني.

قفزة القتال

كانت الكتيبة قد قسمت الى عدة مجموعات قبل عملية الانزال في مؤخرة العدو. أرسلنا أول مجموعة مؤلفة من أربعة عشر شخصا في نهاية شهر أيار بقيادة ساشا تفوروغوف، وهو نصير باسل لا يزال فتيا لكنه ذو حنكة في القتال.

في بداية الحرب وقعت الوحدة العسكرية التي كان يقاتل فيها تفوروغوف في الحصار. فاختفى مع رفاقه في غابات بيلوروسيا وبدأ المقاومة. وفي تشرين الأول من العام الواحد والأربعين انضمت مجموعة تفوروغوف الى كتيبتي التي كنت أقودها آنذاك في بيلوروسيا.

لقد استطاع ساشا في فترة جد وجيزة أن يعرف بنفسه، فعين رئيسا للاستطلاع في الكتيبة كلها. وقام بعمليات القتال بنجاح تام. وبعد ذلك، في بداية العام الثاني والأربعين عاد مع كتيبتي الى موسكو.

كان اسم ساشا تفوروغوف يتقدم أسماء المحاربين في كتيبتنا الجديدة. وهو أول من طار الى مؤخرة العدو. كان من المفروض عليه أن يهبط في غابات موزير عند قرية موخوييدي، وأن يجد مكانا ملائما لاستقبال بقية المجموعات.

لقد أنذرناه قبل أن يطير بأن اللقاء مع الكتيبة يجب

Twitter: @ketab_n

أن يتم في النقطة المحددة عند قرية موخوييدي مهما كان من أمره هناك.

وبعد يومين من طيرانه أفادنا تفوروغوف بواسطة اللاسلكي عن حدوث خطأ في عملية الانزال: فبدلا من ان تتم في غابات موزير أنزل الطيارون مجموعته كاملة الى جنوب مدينة جيتومير الواقعة على بعد ثلاثمائة كيلومتر من غابات موزير! لم تكن هنالك ثمة غابات، وبالتالي فقد كان من الصعب الاختباء. وبعد يوم واحد من ذلك أخبرنا ساشا من جديد أنهم في طريقهم الى قرية موخوييدي.

وبينما كنا نتلقى هذه الافادة انقطع الاتصال فجأة، وانتظرنا يوما واثنين وثلاثة وما من جديد.

وماذا دهى أولئك؟

قررنا ارسال مجموعة ثانية بقيادة كوتشيتكوف. وتم انزالها بالمظلات في أحد المستنقعات. ابتلوا جميعا ومعداتهم حتى آخر خيط، واستطاعوا بشق النفس أن ينتزعوا أنفسهم من ذلك المستنقع.

وبعد فترة من الوقت أبلغنا كوتشيتكوف لاسلكيا أنهم خرجوا الى محطة تولستي ليس الواقعة على الخط الحديدي ما بين تشيرنيغوف وأوفروتش، والتي تبعد ثلاثين كيلومترا عن قرية موخوييدي.

وهنالك تمركز كوتشيتكوف، وأخبرنا بأنه سينظم الاشارات لاستقبال باقي مظليينا.

وعاد الينا شعورنا بالطمأنينة. وأرسلنا المجموعة الثالثة الى محطة تولستي ليس كما لو كنا نرسلها الى مكان أمين. وطار باشون الذي كان قد عين رئيسا لاركان كتيبتنا على رأس تلك المجموعة، ولم يصطحب معه عاملا لاسلكيا لأنه لم يكن ثمة لدينا عدد كاف من اللاسلكيين، لكنه لقاء هذا فقد كان في عداد تلك المجموعة اثنان من الانصار يعرفان غابات موزير جيدا، حتى ومحطة تولستي ليس نفسها.

لقد ابلغنا كوتشيتكوف عن طيران مجموعة أخرى، وطلبنا اليه أن يشعل النيران في الليل لتهتدي الطائرة الى المكان.

Twitter: @ketab_n

وعادت الطائرة التي حملت تلك المجموعة بسلام الى موسكو. وأبلغنا الطيار أن المظليين أنزلوا على الاشارة عند محطة تولستي ليس.

وفي اليوم التالي أبلغنا كوتشيتكوف عن عدم قدوم أية طائرة بالرغم من أن النيران ظلت تشتعل طيلة الليل. يالها من وسوسة! ربما يكون الانزال قد تم في مكان آخر! ليس لدى باشون لاسلكي، وهذا يعني أننا عبثا سوف ننتظر خبرا منه.

ضاع تفوروغوف، ولا أحد يدري أين باشون... صرت ألح على ارسالي باقصى سرعة ممكنة الى هناك. كان يجب علينا أن نجد أخيرا الرفاق المفقودين، ونهيىء الظروف لاستقبال الباقين.

لكنه تقرر بقائي في موسكو بعض الوقت بعد. وأرسل على رأس مجموعة أخرى سيرجي تروفيموفيتش ستيخوف، معاوني في القسم السياسي، والذي شكلت واياه تلك الكتيبة. وعاد الأسى من جديد، فلم يتم انزال مجموعته على اشارات كوتشيتكوف. لقد أبلغنا سيرجي تروفيموفيتش لاسلكيا أنه لم يقدر على تحديد مكان وجوده خلال ثلاثة أيام، وأنه كلما بعث مقاتلا للاستطلاع لا يعود ثانية.

بلغ القلق بي مبلغه، وأخيرا أذن لي بالطيران الى هناك. وتقرر أن يطير معي كل من رئيس الاستطلاع الكسندر الكسندروفيتش لوكين واللاسلكية ليدا شيرستنيفا وبعض المحاربين الأسبان.

لقد كان في موسكو آنذاك الكثير من الأسبانيين الذين كافحوا من أجل أسبانيا الحرة، ثم اضطروا الى الهجرة. ولما بدأت الحرب مع الهتلريين أخذ هؤلاء الأسبان يطالبون الحكومة السوفيتية بارسالهم الى الجبهة. وكثير منهم علموا بتشكيل فصائل المحاربين الأنصار فأخذوا يلحون على ادخالهم في عداد هذه الفصائل. لقد تطوع ثمانية عشر أسبانيا في كتيبتي. ومنذ أول لقاء معهم أعلنوا أنهم عندما يسهمون في حرب الاتحاد السوفيتي ضد ألمانيا الفاشية انما يسهمون في تحرير كل البلدان المحتلة من قبل الهتلريين.

Twitter: @ketab_n

وفي مساء العشرين من حزيران (يونيو) كنت مع مجموعتي في المطار.

لم ترافقني زوجتي الى المطار ولا أحد من أقاربي. لقد ودعتهم في البيت: «ففي المرافقة البعيدة دموع نافلة».

لم يرافقني الى المطار الا رفاقي في الكتيبة الأولى.

كان الوداع قصيرا. وكانت طائرتنا جاهزة تنتظر في الوقت المحدد لاقلاعها بالضبط. اتخذ كل منا مقعده، وارعدت المحركات – و... الى اللقاء، يا موسكو!

كان المزاج حسنا لدى الجميع. وكما لو كنا نقوم بنزهة، بدأ الرفاق منذ اللحظة الأولى يغنون أغانيهم الروسية ثم الاسبانية.

واقتربنا من خط الجبهة الذي لم يكن آنذاك بعيدا، لقد كان الى الغرب قليلا من مدينة تولا. وهناك دخلت طائرتنا رأسا منطقة من الأنوار الكاشفة الباهرة. فتح الألمان النار، لكننا ولحسن الحظ، تمكنا من المرور بمنطقة الخطر. ومرت ساعة شديدة الوطأة، ثم ساعتان، وصدرت الينا الأوامر بالتهيؤ للقفز.

تطلعت من نافذة الطائرة الى الأرض، فرأيت اشارات النيران الشرطية بوضوح تام. بدأت الطائرة تنخفض شيئا فشيئا وهي تحوم وتدور. انتظمنا فى صف، كل خلف صاحبه، عند باب الطائرة. ثبت الرائد، الذي رافقنا، خطاطيف مظلاتنا بصفيحة كيما تنفتح المظلات من تلقاء نفسها في الهواء.

صرنا جميعا على أتم استعداد. وفجأة قالت ليدا شيرستنيفا التي كانت تقف ورائي بصوت مضطرب:

– أيها الرفيق قائد الكتيبة، أين حبلك؟

التفت الى الوراء، وكان خطاف مظلتي غير ثابت. لكنني وعلى أية حال ما كنت سوف اتحير في الهواء، وانما أفتح المظلة بنفسي في الوقت المناسب: فلهذا يكفي أن أشد الحلقة قليلا الى أسفل. وقد أحسنت ليدا على أية حال فى تنبيهها لي.

نقز قلبي عندما دوى الأمر:

– اقفز!

Twitter: @ketab_n

وقفزت قبل الجميع. ثوان معدودات – وانفتحت المظلة.

تطلعت من حولي، لقد أنزلونا من ارتفاع شاهق – ما يقارب التسعمائة متر عن الأرض. القمر فوق رأسي، والنيران من تحت، لكنها أخذت تبتعد عني: بدأت الريح تحملني جانبا. وتناثرت المظلات في الهواء فوقي وعن يميني وعن شمالي. لقد هوت احداها بجانبي سريعا سريعا. واستطعت أن أخمن: لم تنفتح المظلة الى النهاية – قد يتحطم ذلك الانسان».

تميزت غابة تحتي. تهيأت حسب قواعد النزول: تشبثت بسيور المظلة المتصالبة على صدري، وفي تلك اللحظة هبت زوبعة هواء قذفتني جانبا وهويت على الأرض.

لقد حملت أربعين مترا بعيدا عن حافة تلك الغابة.

وكنا قد اتفقنا سلفا على أن أشعل النار ليهتدي اليها المظليون ويجتمعوا عندها. لكن اصطدامي بالأرض جعلني لاأستطيع النهوض على ساقي لأجمع العيدان ولأشعل النار. فسحبت الي المظلة وأشعلتها. ثم زحفت بعيدا عن النار خمسة عشر مترا، انبطحت خلف الشجيرات ويدي على زناد الرشيش المهيأ وانتظرت. وكيف لي معرفة أولئك الذين سيقدمون الى هذه النار أمن الرفاق هم أم من الأعداء؟..

نظرت، فاذا أحدهم يدنو محاذرا، فسألت:

– كلمة السر؟

– موسكو!

– الدب! – قلت كلمة الجواب على كلمة السر واستطردت:

– اقذف بمظلتك في النار، وهيا الي.

– حاضر!

اقترب لوكين، ومن ورائه ليدا شيرستنيفا ثم الباقون. وتعالى نباح الكلاب المتواصل على بعد ثلاثة – أربعة كيلومترات منا، وكأن أحدا ما أثارها، اذن فهناك ثمة قرية قريبة منا.

وصل الجميع. نهضت مستقيما بلأي، استهنت بالألم، وقلت بما وسعني من نشاط ومرح:

Twitter: @ketab_n

– وقفزة أخرى بعد، وسنكون هناك!

أخرجت البوصلة وبدأت أحدد الجهات. البوصلة، والنجوم وسكة الحديد تكفينا لنعرف الى أين نسير. ينبغي أن تكون محطة تولستي ليس غير بعيدة عنا أبدا.

وهكذا، نحن الآن في مؤخرة العدو. يفصلنا عن موسكو ما يقرب ألف كيلومتر، ويفصلنا عن خط الجبهة الأمامي ما يقرب من ستمائة كيلومتر.

اللقاء

حدونا تخوم الغابة في سيرنا الى محطة تولستي ليس. بزغت أولى خيوط الفجر، وكانت كل خطوة نخطوها تنطبع واضحة على الاعشاب المكسوة بالندى. لهذا فقد أمرت بالسير رتلا «هكذا يسير الانصار» يفصل احدنا عن الآخر متران أو ثلاثة أمتار، كيما تقع خطى كل منا على آثار خطى قبله.

اما اذا حدث واقتفوا آثارنا فيما بعد صعب عليهم تخمين عددنا أعشرة نحن أم مائة. والحذر أول قاعدة يحافظ عليها الأنصار.

أضاء الصباح كل شيء تقريبا. الهدوء يخيم على كل الأنحاء، لكنني كنت أصغي الى كل حفيف بسيط، وأرصد اهتزاز كل غصن. وبالرغم من أن خطرا ما لم يكن قد أحدق بعد فقد كنت أصدر أوامري كمنبهات شرطية بين الفينة والفينة «انبطح»، «تموه» وذلك ليبقى الرفاق دائما على قدر من الحيطة والانتباه.

مشينا خمسة كيلومترات. وفي الطريق لاح لنا شخصان عن بعد. «انبطح!» – أمرتهم ودعوت لوكين الي:

– الكسندر الكسندروفيتش! أنت رئيس الاستطلاع في هذه الكتيبة، فلتكن أول مستطلع. اعرف لنا من ذانك الشخصان. فان كانا من الاصدقاء اسئلهما عن موقع تولستي ليس.

اصطحب لوكين معه فلوريجاكس الاسباني وذهب.

Twitter: @ketab_n

ظللت أرقبهما عن بعد، ورأيت كيف أن لوكين تكلم مع ذينك العابرين. ثم صافح بعضهم بعضا وافترقوا.

عاد لوكين، وقابل في طريقه امرأة عجوزا تناهز السبعين من العمر برفقة حفيد لها، وما أن علمت العجوز أنها تكلم الانصار حتى ضمت يديها بعنف الى صدرها وشرعت تبكي:

– يا أحبائي يا للسعادة! ومتى ستطردون هؤلاء الأوغاد... لقد انتزعوا منا كل شيء!

وأخبرتهما العجوز أنه بقي عشرة كيلومترات فقط الى محطة تولستي ليس وحذرتنا من السير في الجانب الآخر من سكة الحديد: ففي القرية هناك الكثير من رجال الشرطة.

قدم لها لوكين قطعة من الشوكولات عند الوداع وبعض قطع من السكر.

وقبل أن تبلغ الساعة التاسعة كنا قد أصبحنا على مقربة من محطة تولستي ليس. أمرت بالراحة. لقد أنهكنا السير الطويل الذي لم نكن قد اعتدنا عليه، فتقرحت اقدام الكثيرين.

عينت كمائن استطلاعية للمراقبة على المحطة والمعبر وسكة الحديد. وامرت ليدا شيرستنيفا أن تفتح جهاز اللاسلكي وتبلغ موسكو أننا أفلحنا في عملية النزول وأننا نبحث عن مجموعة كوتشيتكوف.

وفجأة جاء الينا المراقبون بثلاثة أشخاص. نظرت الى وجوههم فاذا هي تشع نورا: انهم مستطلعو كوتشيتكوف.

– ليدا، دعي اللاسلكي جانبا!

وذهبنا مباشرة الى معسكر كوتشيتكوف.

من الصعب أن تنقل سعادة اللقاء. أخذنا نتبادل الأخبار: نحن عن موسكو، وهم عن الحياة هنا.

لقد كان ستيخوف ورفاقه هنا في معسكر كوتشيتكوف، لكن أحداً لم يعلم شيئا جديدا عن مصير مجموعتي كل من ساشا تفوروغوف وباشون، وكما لو أن المياه ابتلعتهما!

ولم تتم الأمور لمجموعة كوتشيتكوف دون أن تتخللها بعض الصعوبات. فعندما جرت عملية انزال مجموعته علقت

Twitter: @ketab_n

مظلة رجل مسن من رجاله واسمه كالاشنيكوف بين الاشجار على ارتفاع شاهق. بحثوا عنه طويلا قبل أن يعثروا عليه. ولما وقع نظر كالاشنيكوف على رفاقه لم يعد ينتظر ليخلصوه من بين الأشجار، وانما عمد الى خنجره وقطع به حبال المظلة وسقط على الأرض. ولم يعد يستطيع النهوض، فلقد بين الكسر في احدى ساقيه. نقل الى مخبأ عند حارس سكة الحديد يبعد نصف كيلومتر عن محطة تولستي ليس، ويعوده كل من طبيبنا تسيسارسكي والمحاربين الانصار يوميا الى هناك.

أحضر لنا الغداء خلال ساعة واحدة. قدموا لي كبد مهر مقلي مع لحم الخنزير المعلب، فكان لذيذا شهيا.

كان ينبغي علينا ألا نجعل دقيقة من الوقت تضيع سدى، فأرسلنا الرجال للاستطلاع فورا في شتى الجهات. وكان علينا أن نعرف ان كان بالامكان استقبال باقي المجموعات هنا أو اذا كان الألمان قد تنسموا ريح معسكرنا. لقد ذهبت عند المساء بنفسي لأجس حراسة المعسكر ولأعلم كيف توزع مخافر الحرس. درت حول المعسكر، ثم عبرت فسحة ممتدة خالية الاشجار، وتوغلت بين أشجار الغابة.

لم تكن المحطة تدعى عبثا باسم «تولستي ليس» («الغابة الكثيفة»)، فالغابة حولها جبارة بالفعل. فأشجار البلوط التي خلفت وراءها القرون، وأشجار البتولا والصنوبر وأشجار الشوح وكثير من الأشجار الصغيرة الأخرى تؤلف فيما بينها حاجزا كثيفا متراصا لا يمكن أن ينفذ خلاله انسان. فهناك حيث كنت أشق طريقي لم يكن ثمة أي ممر. قررت العودة، لكنني، وبعد مضي عشر دقائق، علمت أنني أسير في اتجاه مغاير، ليس الى حيث أريد. انعطفت الى اليسار ومشيت عشر دقائق أخرى، وشعرت من جديد أنني انما أخبط على غير هدى. ثم غابت الشمس، وغابت معها كل معالم الهداية.

«يا للعار! حسبي ذلك: أقائد كتيبة، ويضيع في اليوم الأول!»

والحق أقول كنت احسن الظن في نفسي، لقد ولدت في

Twitter: @ketab_n

بيلوروسيا، وكثيرا ما كنت في طفولتي أطوف في الغابة لأجمع الفطر والثمار والجوز. وكنت أعرف كيف أميز الشمال من الجنوب بواسطة الشمس والغصون وجذوع الأشجار. وكنت قد قضيت سبعة شهور مع الأنصار من قبل، علمتني شيئا ما آخر من هذا القبيل. وها أنا ذا الآن اضيع. كان ظهري لايزال يؤلمني من الهبوط بالمظلة، لكنني استرجعت عادتي في الصغر، وسرعان ما تسلقت رأس شجرة بلوطى هائلة. تطلعت فاذا الغابة تحيط بي من كل الجهات وعلى امتداد البصر. لكنني لاحظت أن نافورة هزيلة من الدخان تنبعث من الغابة وكان هذا يعني أن المعسكر هناك. حددت ذلك الاتجاه بواسطة البوصلة، ثم نزلت من الشجرة ومشيت.

بلغت المعسكر والظلام مطبق، وكان الأنصار يجلسون حول النار، فجلست معهم على أرومة شجرة مقطوعة، وقد لذ لي الجلوس وسماع أحاديث الرفاق. كان الحديث يدور حول الاسباني ريفاس الذي كان يعمل ميكانيكيا للطائرات وأخذناه في كتيبتنا كاختصاصي وطار مع مجموعة ستيخوف. وها هو ذا أحد المحاربين الشباب يتحدث عنه ويقول:

— ايه، اذن اجتمعنا حول النار، أجرينا التفقد ولم يكن ريفاس. ذهبنا نبحث عنه، ظلام دامس يمنع علينا رؤية أي شيء، نصيح من حين الى آخر ملء أصواتنا: «ريفاس!» ولم نعثر على اثره طيلة تلك الليلة. بزغ الضياء، وأرسلنا آمر المجموعة للبحث عنه من جديد. قضينا النهار كله طوافا في الغابة ولم نجد ريفاس! وقبيل المساء عثرت على مستنقع صغير في الغابة تتوسطه شجيرة صغيرة وحيدة. تطلعت فاذا بشخص يختبىء خلفها. وكنت نفسي آنذاك مختبئا خلف شجيرة وأنا ارقب ذلك الشخص. كان كله باريا لناظري الا رأسه فقد كانت متوارية خلف الشجيرة. ونظرت الى لباسه فاذا هو لباسنا. ايه، طبعا، انه ريفاس! قفزت هاتفا: «ريفاس! أخرج» فأجاب: «كاموفلاج! كاموفلاج» وخرج أخيرا، سر بي وأخذ يبربر بلغته ويعانقني. ثم أخرج فجأة من عبه حمامة حية. من أين له بها، ولأي شيء، لست أدري.

ضحكوا جميعا وعيونهم على ريفاس، فضحك أيضا هذا

Twitter: @ketab_n

الصغير النحيل ذو العينين السوداوين اللامعتين وقد فهم عما كان يدور الحديث.

– والحمامة، هل أكلها؟ – سأل أحدهم.

– ما أنت، انه لا يسيىء الى ذبابة بله الحمامة! لقد بحث عن طعام للحمامة فيما بعد، لكن عنايته بها لم تدم طويلا: فلقد طارت منه الى غير رجعة.

وبعد ستة أشهر من ذلك التاريخ كان ريفاس قد تمكن بعض الشيء من التكلم باللغة الروسية، فتحدث الينا عن مخاوفه آنذاك عندما ضل لوحده في الغابة، وكيف أنه كان يحسب الحباحب المضيئة في الليل عيونا للنمور. وقال انه صاد تلك الحمامة ليأكلها اذا ما طال به الأمد هناك دون أن يلاقي رفاقه.

كان المزاج لدى الجميع حسنا، وانجذبت الأنظار جميعا الى شيء جديد: وقد ارونا «مزرعة» من الازاهير المتلألئة التي صنعوها من قطع جذوع الاشجار الهرمة المهترئة. حتى ان اللاسلكية ليدا كانت قد ثبتت قطعة صغيرة في شعرها، فصارت تتلألأ كحجر كريم.

فكرت بيني وبين نفسي «دعهم يمرحون الآن»، لقد كنت أعرف معنى «شاعرية» الغابات مع البعوض والرطوبة ونشيش الحطب في النار.

وبعد يومين استقبلنا مجموعة أخرى من المظليين.

حلقت الطائرة عاليا فوق نيراننا. شبت النيران آنذاك متوهجة حتى أضاءت الطائرة نفسها والغيوم في السماء.

وما أن لمحت الطائرة الاشارات حتى توغلت جانبا ثم عادت، وبدت من جديد على ارتفاع ثلاثمائة متر، ثم بدأت تنفصل عنها قبب المظلات التي أضاءتها النيران بوضوح. دفعت الريح المظليين في اتجاه واحد.

وفجأة، وعلى ارتفاع لا يتجاوز الثمانين مترا، انفتحت مظلتان واحدة تلو الاخرى فوق النيران تماما، حتى أن أحد المظليين هوى الى جانب النار بالضبط. وبعد قليل هبطت على الحطب الممرضة ماورسيا شاتالوفا التي قدمت الينا، فأحدث وقوعها رضة عنيفة في ساقها. ولم يقدر أحد على

Twitter: @ketab_n

فهم ما حدث. لكننا عندما تفحصنا المظلتين جيدا وجدنا أنهما نسيا أن يثبتا الخطاطيف اليهما، ولهذا فلم تكونا لتنفتحان تلقائياً. وتمكن المظليان من فتحهما فقط بعد أن اجتازا بقفزة حرة اكثر من مائتي متر. لكنهما بطلان على كل حال، فلم يقعا فريسة للقنوط!

لم تكن الساحة المعدة ملائمة لاستقبال المظليين، لقد كانت قريبة من المحطة حيث القضبان والطرق المرصوفة بالحجارة وأكداس الاخشاب. فالهبوط على مثل تلك الساحة يمكن أن يشوه أي انسان. اضطررنا الى ابلاغ موسكو لاسلكيا لئلا يرسلوا أحدا بعد.

أما المستطلعون فقد جاؤوا الينا بأنباء مزعجة. لقد كانت الاشاعات تنتشر في ذلك المحيط وتقول بأن عشرين أو ثلاثين طائرة تقريباً تأتي كل ليلة وتقوم بعمليات انزال المظليين حتى صارت هناك فرقة كاملة من القوات. ان تلك الاشاعات لابد وأن تكون قد بلغت الألمان أنفسهم. وربما سيرسلون الى هذه الفرقة حملة تأديبية كبيرة، مع أن عددنا كان سبعين شخصا فقط.

أول معركة

في فجر اليوم الثالث والعشرين من حزيران (يونيو) غادرنا المعسكر. كان من الواضح لدينا أن الألمان يوشكون أن يقذفونا بحملة تأديبية. خلفنا وراءنا في مكان المعسكر «منارة» من خمسة محاربين ليقوموا بمراقبة المحطة. ومع تلك «المنارة» بقي طبيبنا تسيسارسكي. كان ينبغي عليه أن يعالج كالاشنيكوف الذي كان لايزال مستلقيا في المخبأ عند حارس سكة الحديد. لم نستطع أن نصطحبه معنا لأن ساقه كانت لاتزال مجبرة بالجبص.

توجهت بالكتيبة الى الشمال، الى الغابات الكثيفة الهائلة. قطعنا عشرة كيلومترات. ولمحنا دخانا منبعثا من الغابة. بعثت ثلاثة من الأنصار للاستطلاع، وقلت لهم:

– اطلبوا طعاما، وحاولوا أن تعرفوا شيئا عن الألمان.

Twitter: @ketab_n

وسرعان ما عادوا وأبلغونا أن حارس الغابة يعيش هناك في بيت صغير، أعطاهم عشر حبات من البطاطا النيئة ولم يدخل معهم في حديث: بحجة انه لا يعرف شيئا.

ولم نكد نقطع كيلومترا واحدا بعد ذلك حتى أبلغتنا حراسة المؤخرة أنها ألقت القبض على شخص مشبوه. كان يستحث جواده مسرعا كالريح، وما أن رأى رتلنا حتى دنا منا متسائلا:

– وكيف لي أن أرى رئيس الشرطة؟

– وما حاجتك اليه؟ – سأله الانصار في هدوء ظاهر.

– قبل قليل جاءني رجلان وسألاني عن الألمان. أعتقد أنهما من الأنصار. لقد ذهبا في ذلك الاتجاه.

انه حارس الغابة عينه الذي أعطى مستطلعينا حبات البطاطا، لقد ظن أننا فصيلة شرطة.

ولدى الاستجواب اعترف ذلك الحارس أنه انما كان في طريقه الى مركز ناحية خابنويه ليبلغ الألمان عن ظهور الأنصار. لقد وعدوا بمكافأة من يكشف لهم عن الأنصار. وقال عن نفسه أيضا: كان القضاء السوفيتي قد حكم عليه في الماضي بتهمة جنائية.

لقد اتضح لنا كل شيء. كان مجرما وأصبح خائنا للوطن. وأطلقنا عليه الرصاص في الحال.

لقد زادنا هذا الحادث حذرا ويقظة. وبالرغم من أن التعب كان قد أنهكنا جميعا فقد قررت ألا نتوقف عن السير. وفي الساعة الثالثة من ذلك النهار تناول كل منا قطعة من اللحم المسلوق أثناء المسير، ولم يكن لدينا من الخبز شيء.

وكما لو كان للاغاظة بدأ مطر غزير ينهمر، غيث حقيقي ابتلت الملابس والأحذية جميعا، وأصبح السير أشد وطأة من ذي قبل. استمر ساعة، ثم أخرى ولم ينقطع، لكننا لم نتوقف؛ توغلنا ابعد وابعد عن أماكن الخطر. وقبيل المساء، عندما نفدت قوانا جميعا، قررت التوقف. انقطع انهمار المطر، لكن كل شيء في الغابة الكثيفة كان رطبا. وصارت أغصان الأشجار تساقط علينا قطرات كبيرة. وحومت أسراب البعوض فوقنا كالسحب. وسرعان ما تهاوى الرجال جميعا على الأرض،

Twitter: @ketab_n

لم يكونوا قد اعتادوا من قبل على مثل هذا السير الطويل. واستسلموا حالا لسبات عميق.

في اليوم التالي عثرنا على مكان يصلح لعسكرة مؤقتة. كان هذا في الغابة بين أشجار الصنوبر الهائلة. لقد كانت تقوم هناك، على ما يبدو، استثمارة راقية من قبل. كان ثمة حزات على كل شجرة صنوبر ليسيل منها الصمغ وينسكب في كؤوس مثبتة. وسرعان ما نصبنا ست خيمات من المظلات لتقينا شر البعوض ولتتيح لنا النوم في هدوء. وعلى مقربة من المعسكر اخترنا فسحة صغيرة لتكون قاعدة لاستقبال المظليين. وفي ذلك اليوم بالذات شكلنا وحدات صغيرة وقمنا بفرز رجال الاستطلاع، بحثنا معهم كل شيء، ثم وزعناهم في شتى الجهات لنعلم ان كان الألمان يتعقبون آثارنا، ولنطلع على حياة سكان القرى هناك، ثم لنتعرف ان كان بالامكان الحصول على بعض الغذاء.

وفي صباح الخامس والعشرين من حزيران (يونيو) ألقى حرس المعسكر القبض على شخص آخر وقادوه الي، وكان يدعي أنه من سكان تلك المنطقة. لقد كان يتفحص المكان باهتمام قرب معسكرنا. وعند تفتيشه عثرنا على وثيقة تثبت أنه يعمل في شرطة الألمان. فلم يبق لدينا أدنى ريب في أن الألمان يجدون في طلبنا، وربما بدأوا يتعقبون آثارنا.

وداهمنا الانذار في تلك الليلة، لقد سمع أحد الخفراء حفيفا ما في الغابة. فلم تتسن له رؤية شيء ما في الظلام الدامس. فهمس الى مرافقه أن يهرع سرا الى المعسكر ليبلغ عما سمع.

أعلن عن الانذار في المعسكر، وخلال دقائق معدودة كانت الكتيبة جميعها مستنفرة.

لكن الهدوء كان يخيم على كل الجهات، ولم يكن أي صوت يجرح صمت الغابة آنذاك؛ تحرينا المكان كله من جميع جهاته ولم يكن هنالك ثمة شيء مريب.

وبعد ساعة الغي الانذار، ولكن لم أنم بقية تلك الليلة، والقضية هي أن الانذار كشف عن سوء انضباطنا. فكثير من

Twitter: @ketab_n

الرفاق استغرق ارتداؤهم لملابسهم وأحذيتهم مدة لا تقل عن ١٥ – ٢٠ دقيقة، ومحاربو الفصيلة المناوبة قد نزعوا ثيابهم وناموا بالرغم من أن هذا كان محظوراً حسب قواعد الانضباط: عليهم ان يقوموا في الليل بالمناوبة. دعوت الي قادة الوحدات الصغيرة، والذين أخلوا بالانضباط وعنفتهم جميعا بقسوة.

وعند الصباح قصد الكسندر الكسندروفيتش لوكين ذلك الاتجاه حيث سمع الخفير الحفيف في الليل. كان يمشي محاذرا ويده على زناد الرشيش. وفجأة طفر من بين الشجيرات الى جانبه شيء ما وقفز جانبا. وبسرعة البرق، وقبل أن يدرك لوكين حقيقة الأمر، ضرب بالرشيش ولكن... كانت عنزة برية صغيرة. ثم سمع كيف أن واحدة أخرى أخذت تثغو. امسكهما لوكين وعاد بهاتين الغنيمتين الى المعسكر.

– هاتان كانتا باعث الانذار فى الليل، واللتان أفزعتا الخفير! – قال لوكين.

وهتفت كل من ليدا وماروسيا:

– أوى، يالروعتهما! هاتهما الينا!

لكن احداهما كانت مصابة وكان ينبغي ذبحها، أما الثانية فقد أعطيناها للفتاتين.

– لكن اياكما أن تعلنا اشارة الانذار اذا ما هي ثغت، – قال الرجال مازحين.

وعلى حين غرة ظهرت في المساء المتأخر في المعسكر جماعة «المنارة» وقد قدموا من محطة تولستي ليس برفقة الطبيب تسيسارسكي. وتبين ان الهتلريين، على ما يبدو، فاجأوا ذلك المكان وقبضوا على كالاشنيكوف المريض وعلى حارس سكة الحديد.

وفرزنا من جديد جماعة من رجال الاستطلاع، وأولياهم مهمة تحديد أماكن وجود الألمان بالضبط، والتأكد من أنه اذا كان الألمان يعرفون شيئا عن مكان معسكرنا.

وقبيل الفجر، عندما كان الجميع لا يزالون يغطون في النوم، خرج رجال الاستطلاع من المعسكر ولكن لم يذهبوا بعيدا. وعلى بعد ثلاثمائة متر منا تمكنوا من رؤية الألمان

Twitter: @ketab_n

على الضفة المقابلة لساقية صغيرة، وفتحوا عليهم النار. وخلال دقيقتين كان المعسكر جميعه قد هب على قدم وساق. كان سيرجي تروفيموفيتش ستيخوف ينام معي في خيمة واحدة. غادر الخيمة قبلي وأخذ معه الفصيلة المناوبة وهرول في اتجاه النار. وبقيت في المعسكر الى جانب الخيمة مع الجهاز اللاسلكي ووثائق القيادة. اشتد اطلاق النار، وكأن معركة حقيقية تقوم هناك على ضفة الساقية.

ثم بدأت طلقات من الجهة الثانية بالقرب من المعسكر. ولم يعد ثمة وقت للانتظار. فأرسلت مجموعة ثانية من المحاربين بقيادة كوتشيتكوف الى أرض المعركة، وعينت من الباقين مخافر اضافية حول المعسكر.

كانت كل صيحة، وكل طلقة تحدث في الغابة دويا هائلا. وتناهت الى مسمعي صيحات واضحة «استسلم، أيها الروسي!»، فتغطي عليها صيحات رفاقنا الأنصار «هورا، هورا، الى الأمام!».

وبعد نصف ساعة جيىء الينا بأول جريح، انه فلوريجاكس الأسباني. كان الدكتور تسيسارسكي قد هيأ بمساعدة ماورسيا شاتالوفا خيمة الاسعاف. كانت الرصاصة المتفجرة قد أصابت فلوريجاكس بجرح بالغ. فشرع تسيسارسكي باجراء العملية فورا.

ثم سرعان ما قادوا الينا بعض الأسرى: اثنين ألمانيين وثلاثة من الخونة الشرطيين وقد ارتدوا الزي الألماني. لقد استجوبنا هؤلاء الثلاثة قبل غيرهم لأن الدكتور تسيارسكي المتقن اللغة الألمانية كان منهمكا آنذاك في اجراء العملية الجراحية.

لقد تبين لنا من أقوال الأسرى أنهم فعلا جاؤوا الى كتيبتنا وهجم علينا رتلهم الامامي المؤلف من مائة وستين شخصا، من الجانبين. وبينما كانت المعركة على أشدها اتصل قائد ألماني لاسلكيا مع بلدة خابنويه وطلب ارسال التعزيزات في الحال.

همد ضجيج المعركة، وخف اطلاق النار، وكان واضحا أن رفاقنا الأنصار يطاردون فلول الفاشيين.

Twitter: @ketab_n

كان تسيسارسكي منهمكا في اجراء العملية دون أن يعير القتال شيئا من اهتمامه. وظهر اثنان آخران من الجرحى بعد فلوريجاكس.

أجرى تسيسارسكي عمليات تنظيف الجروح وتضميدها بيدين ماهرتين موثوقتين، وقال بصوت هادىء ورزين:

– اطمئنوا، كل شيء سيكون على ما يرام، لا شيء يدعو الى القلق.

ثم عاد من المعركة كوستيا باستانوغوف مضرجا بدمائه، كانت يده ملوية بصورة غير طبيعية، وقال بصوت خافت وضعيف:

– لقد لقنا الأوغاد درسا! – وخر على الأرض.

أمسكه تسيسارسكي: ثم جعله يستلقي على مشمع الخيمة المفروش على الأرض، وبدأ بمعالجة يده. كان العظم مهشماً، والجلد ممزقا وكانت اليد معلقة بالعروق الجافة.

استمرت المعركة ساعتين، تمكن خلالها رفاقنا من أن يطردوا الهتلريين بعيدا، فاضطررت أن أرسل السعاة ليعودوا بالرفاق الى المعسكر.

اجتزنا التجربة الأولى بنجاح. لقد تمكن فيها خمسة وعشرون من محاربينا الأنصار المشتركين في المعركة أن يتغلبوا على مائة وستين من الهتلريين لقد تكبد الألمان فيها اكثر من الأربعين قتيلا بينهم سبعة من الضباط علاوة على الجرحى الذين لم نتمكن من احصاء عددهم لأن العدو عاد بهم جميعا. وغنمنا من الاسلحة رشاشات متوسطة وبنادق ورمانات يدوية ومسدسات.

أما نحن فقد تكبدنا في هذه المعركة خسارة فادحة. لقد قتل توليا كوبتشينسكي، ذلك الموسكوفي المرح الشجاع الكومسومولي، وضارب رقم قياسي للاتحاد السوفيتي بالتزحلق على الجليد. لقد تطوع بنفسه في كتيبتنا، وأصبح خلال فترة قصيرة حبيباً الى قلوب الجميع.

وفي غابة موزير النائية حفرنا قبرا لهذا النصير البطل في فسحة صغيرة بين الأشجار. أنزلنا جثمانه الى القبر،

Twitter: @ketab_n

وخلعنا قبعاتنا جميعا في صمت خاشع. ثم ودعت الرفيق الفقيد بكلمات موجزة: «وداعا أيها الصديق الشاب! سنثأر لك!» ثم بدأت بنفسي فأهلت عليه حفنة من التراب.

وهكذا مر الرفاق جميعا بالقبر، يهيل فوقه كل منهم مقدارا من التراب صمتا في خشوع.

فرغنا من اهالة التراب، وجعلنا القبر يبرز تلا صغيرا غشيناه بطبقة من الأرض المعشبة.

كان ينبغي مغادرة ذلك المكان في الحال. فقد تصل النجدة الى الألمان، وتقع «فرقتنا» في المخاطر.

أعطيت اشارة بالرحيل.

كانت لدينا ثلاث عربات للخيل وضعنا عليها الجرحى واندفعنا سائرين. توغلنا في الغابة بعيدا عن الطريق. وكانت مجموعة منا تسير خلف الكتيبة لتمحو كل ما يمكن أن يخلف سيرنا من الآثار.

تعقبنا الألمان أربعة أيام كاملة على ثلاثين سيارة شحن، لكن دون جدوى!

كنا نسير عبر ممرات ضيقة حيث لا يمكن لعرباتهم أن تمر. وكنا نسير في الليل، وكان الألمان يرهبون ظلام الليل في اراضي روسيا أكثر من أي شيء آخر.

في الطريق

امتد بنا طريقنا المليء بالمخاطر أكثر من شهر في أرض إحتلها الأعداء.

ان ما بين محطة تولستي ليس وغابات سارني زهاء مائتي كيلومتر. قد يجتازها راكب القطار بسهولة، وقد يسهل على السيارة قطعها، حتى أنه ربما يكون من السهل أيضا أن يجتازها الانسان سيرا على قدميه اذا ما سار عبر الدروب المعروفة المؤدية الى هناك وتمتع بقسط من الراحة في أماكن أمينة كلما ألم به التعب. لكن الكيلومتر بالنسبة للأنصار شيء طويل وشاق.

لم نكن نسير في طريق، وانما في مسالك خفية داخل

Twitter: @ketab_n

الغابات والممرات المستنقعية. كنا نتجنب المرور في القرى ونسير حذاءها مجانبين كيلا تقدر على أن تتنسم ريحنا حتى الكلاب.

كنا نسير الليل كله ونفترش الثرى في النهار. وكانت تبلل ثيابنا مياه الأمطار الغزيرة والمستنقعات. ولم يكن البعوض ليترك لنا سبيلا الى الراحة والهدوء. كانت مجاميع البعوض تنسل تحت الاغطية الخاصة الواقية لتغرز خراطيمها في الوجه والرقبة وتتغلغل فى الأذنين والانف والعينين.

لم يكن لدينا من الخبز والبطاطا شيء، ومشينا أياما كاملة على الطوى، ولم يكن أحد منا يذهب الى القرى الا بعض رجال الاستطلاع، وحتى هؤلاء كانوا يدخلونها محاذرين لئلا يشعر أحد بتقدم الكتيبة على بعد قليل.

لقد علم مستطلعونا من السكان المحليين أن الألمان يجدون في أثرنا ويبثون عملاءهم في الغابات في هيئة الرعيان أو جامعي الثمار.

وكثيرا ما كان يحدث لنا، عندما يتقدم رجال الاستطلاع للكتيبة في المسير، أن يقابل أحدهم في الغابة بعض الناس المشبوهين، فتنبطح الكتيبة بأجمعها في المكان حيث وصلها خبر الخطر وتبقى هناك ساعة وساعتين واحيانا ثلاث ساعات الى ان يبلغنا الساعي عن امكانية استئناف السير.

كنا نسير ونذلل العقبات التي كانت تثير ارتيابنا في الطريق. وان المئتي كيلومتر المسجلة على الخارطة لدينا استحالت الى خمس مئة كيلومتر او اكثر من ذلك.

كان رجال الاستطلاع يقطعون مسافة تزيد بثلاث مرات، واحيانا بأربع مرات عن المسافة التي كنا نقطعها، وعندما كانت الكتيبة تتوقف لترتاح كان هؤلاء يتوغلون الى الامام ليستطلعوا طريق المسير المحدد لليوم التالي، وليبحثوا عن الاماكن الملائمة لجعلها محطات استراحة اخرى، ثم يعودون ليرشدوا الكتيبة عبر الطريق الذي استطلعوه.

وكان ثمة آخرون منهم يتوزعون في شتى الجهات ليسترقوا الأخبار عن الألمان اذا ما كانوا ينوون القيام بهجوم ما علينا.

Twitter: @ketab_n

كانت الوطأة شديدة على الجرحى خاصة. فالممرات والمنافذ في الغابات كانت تسدها كثافة جذور الاشجار وجذوعها المقطوعة. كان كل جذر او تل او جذع مقطوع يعترض علينا الطريق، يجعل اصداء الألم العنيف تتردد على شفاه الجروح النازفة. وفي اماكن المستنقعات كانت الخيول تعجز عن ان تجر العربات الراسغة حتى عجلاتها، فتفك عنها وتحمل العربات فوق الاكف.

لقد أولى الرفاق عناية بالغة بجرحانا، وكان رجال الاستطلاع يأتونهم بأنواع القشطة المختلفة والبيض وحتى بالخبز الابيض.

ولم يكن كل من الدكتور تسيسارسكي والممرضة ماروسيا ليبتعدا عن عربات الجرحى خطوة واحدة.

كان الدرب طويلا شاقا، لكن أحدا منا لم يبد تذمرا. وفي محطات الارتياح كانت ترن الأغنيات بصوت خفيض، حتى أن الجرحى أنفسهم كانوا يشاركون في الغناء. وغالبا ما كانت تسمع النكات والضحكات، وتنظر أحيانا – فاذا بالرقص أيضا قد بدأ. والسعداء منا وحدهم، طبعا، هم الذين كانوا يرقصون. وكان يتناوب الكثير من الانصار الى الدكتور تسيسارسكي لتغيير ضماد القروح الملتهبة في الأقدام.

وكنا على اتصال يومي دائم مع موسكو، ونتلقى انباء الحرب من هناك. ثم ننقل تلك الأنباء الى عدة نسخ يقرأها الانصار جميعا، ثم تسلم الى رجال الاستطلاع الذين يترددون على القرى والمزارع.

كان الفلاحون لا يعلمون حقيقة الأنباء عن الحرب: ذلك لأن الهتلريين كانوا يقولون ان موسكو ولينينغراد قد وقعتا في قبضة المحتلين.

لقد كنا نتعرف على حياة الفلاحين بواسطة رجال الاستطلاع. كان المحتلون يقتلون الناس وينهبونهم. وكانوا يرغمون السكان على الأشغال الشاقة، ويسوقون الشباب إلى ألمانيا كالأرقاء.

وقالت إحدى الكولخوزيات:

– وساقوا معهم غاليتي أنيوتا. عندما رحلت قلت لها:

Twitter: @ketab_n

«كوني حذرة يا بنيتي عندما تكتبين. فان كان سوء ارسمي لي زهرة». كنت أعلم أنهم لا يسمحون بكتابة الحقيقة، واستلمت أخيرا منها رسالة جاء فيها بالكلمات أنها تعيش حياة لا بأس بها، لكن على الرسالة نفسها أكثر من اثنتي عشرة زهرة مرسومة...

توجهت الكتيبة الى ناحية قرية موخوييدي.

لقد فكرنا: اذا كان كل من ساشا تفوروغوف وباشون حيا فانهما لا بد سيبحثان عنا في المكان المتفق عليه.

لقد سمع رجال الاستطلاع في الطريق حكايات من الفلاحين عن أربعة عشر محاربا من الانصار البواسل. استقبلنا هذا النبأ في البداية كأسطورة المشاة المظليين الحمر الذين انتصروا على فرقة كبيرة من الفاشيين. ثم أخذت الأنباء تتضح لنا شيئاً فشيئاً، ظهر شهود أعيان، وهذا ما علمنا أخيراً.

ان تفوروغوف الذي تم انزاله مع مجموعته الى جنوب مدينة جيتومير طوف بمجموعته المدينة من الغرب ثم توجه شمالا الى موخوييدي. وتوقف في إحدى القرى للارتياح، وفي الليل طوق الألمان البيت الذي نام فيه الأنصار.

— استسلم، أيها الروس! — كان الأعداء يصيحون.

فيجيبهم رفاقنا وهم يطلقون النار من نوافذ البيت:

— البلاشفة لن يستسلموا!

استمر القتال يوما كاملا، قتل من الهتلريين اكثر من خمسين شخصا. وبقي من الأنصار الأربعة عشر خمسة فقط.

ولما أظلم الليل أشعل الألمان الحرائق في البيت، لكن الأنصار الخمسة تمكنوا من مغادرته، ثم أخذوا يتبادلون النار مع الأعداء واختبأوا.

واجتازوا عشرة كيلومترات في ليلة واحدة بالرغم من الجراح والآلام. وعند الفجر رأوا جماعة من المطاردين تقتفي آثارهم. هرعوا الى القرية واحتلوا بيتا منفردا في طرفها. وطوقهم الألمان من جديد، وعادت المعركة ثانية لتستمر عدة ساعات. وأخيراً خمد اطلاق النار من داخل البيت، فأسرع الألمان واقتحموه ليعثروا على ثلاث جثث للمحاربين الأنصار،

Twitter: @ketab_n

وكان الاثنان الآخران قد تمكنا من الفرار بمعجزة. ومن خلال أحاديث الفلاحين، ومن وصفهم لملابس أولئك، كان بالامكان القول بأن ساشا تفوروغوف كان أحد هؤلاء المقتولين الثلاثة.

لم نعرف شيئاً ما جديداً بعد عن تلك المجموعة الى ما بعد الحرب عندما لقيني أحد الرفاق من مجموعة تفوروغوف، وكان هو نفسه الذي تمكن من الفرار من ذلك البيت مع واحد من الأنصار الاسبان. فبعد ضياع طويل تمكنا من الوصول الى كتيبة للأنصار، فالتحقا بها وبقيا حتى نهاية الحرب. وهكذا تنتهي قصة أولئك المحاربين البواسل في مجموعة تفوروغوف.

وفي احدى المزارع الواقعة عن كثب من قرية موخوييدي أبلغنا السكان بأن أناساً قدموا اليهم في بدلات الطيران والطاقيات، وابتاعوا من عندهم بطاطا ولبنا وخبزا. ثم ودعوهم قائلين انهم سوف يعودون اليهم ثانية.

قررنا أن ننصب كميننا هناك. وأمرنا المستطلع فاليا سيميونوف مع بعض الانصار بالاختباء بين الشجيرات عند آخر بيت. فانتظروا ست ساعات كاملة، وأخيراً لاح في الطريق ثلاثة أشخاص. جهز رفاقنا الرشيشات، لكنهم ما ان اقترب أولئك أكثر حتى هتف سيميونوف بأعلى صوته: «شباب، انه شيفتشوك، وهذا داربيك عبد الرحيموف!» وقفز المستطلعون من كمينهم، وهبوا الى عناق الرفاق الذين كانوا محاربين في مجموعة باشون.

وبعد ساعات معدودات التقينا بباشون نفسه وبرجاله. وأخذ كل ذي آلة تصوير يلتقط الصور! كيف هذا! لم تمض فترة طويلة على افتراقنا في موسكو حتى أصبح الشباب الرياضيون في مجموعة باشون خلال هذه المدة الوجيزة رجالا ذوي لحى.

لقد ظلوا يبحثون عنا أكثر من شهر. أنزلتهم الطائرة عند محطة خوينيكي التي تبعد عن محطة تولستي ليس بمقدار مائة وثمانين كيلومترا. لقد ضللت الطيارين بعض النيران المشعلة هناك والتي، كما اتضح الأمر فيما بعد، أشعلها

Twitter: @ketab_n

سكان تلك المنطقة المجندون للعمل في سكة الحديد. وما أن لاحظ الحراس التابعون لشرطة الألمان عملية الانزال حتى بدأوا اطلاق النار. وأحسنت الريح صنعا آنذاك عندما حملت المظلات بعيداً عن أماكن النيران. لقد فقدوا رفيقا واحدا أصابته رصاصة للعدو وهو لايزال هابطا في الجو. وهبط الباقون على الأرض بسلام، واجتمعوا عند إشارة باشون.

لقد خاضوا في المستنقعات أياما كاملة تضليلا للعدو الذي جد في أثرهم، ثم تمكنوا من بلوغ نهر بريبيات وعبروه على ظهور القوارب. وبلغوا محطة تولستى ليس عقب مغادرتنا لها واقتفوا آثارنا من هناك.

وهكذا فقد اجتمع أفراد الكتيبة جميعا، خمسة وثمانون شخصاً!

وعلى مقربة من مزرعة زلوي عثرنا على ساحة لاستقبال المظليين. وأبلغت موسكو الاحداثيات. وفي الليلة الأولى أقبلت طائرة واستقبلنا اثني عشر مقاتلا جديدا. اغتبطت للقاء نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف الذي شد ما كنت أنتظره، والذي سوف نتحدث عنه طويلا في هذا الكتاب.

الكتيبة تكبر

عثرنا في القرى والمزارع على عديد من جنود وضباط صف الجيش الاحمر السابقين. كان بعضهم قد وقع في حصار الالمان ومكث في القرى كما لو كان من السكان المحليين، وأما الآخرون فقد استطاعوا الفرار من معاقل الأسر الألمانية، والتجأوا الى تلك المزارع.

وما أن علموا بأننا أنصار حتى هبوا يرجوننا لالحاقهم في عداد الكتيبة. وكان المستطلعون يعودون إلينا كل يوم بعدة أشخاص من هؤلاء.

وفي منطقة مدينة أوفروتش التقينا بحارس الغابة، فحدثنا عن وجود بعض الأنصار في تلك الغابات. شغلنا أمرهم، لكن كان من الصعوبة ايجادهم في مكان. كانوا يخافوننا دون أن يدروا من عسانا نكون. وكانوا يخفون

Twitter: @ketab_n

أنفسهم عنا بمهارة. وأخيراً تمكنا من ضبط اثنين منهم، فما كادوا يعرفوننا حتى خفوا الينا بعشرين شخصا آخرين. لقد كانوا من جنود الجيش الاحمر الهاربين من المعتقلات الفاشية.

لكننا لم نستطع أن نلحقهم بكتيبتنا في تلك السهولة. لقد استجوبنا كلا منهم على حدة، من هو، ومن أين، وفي أية القطعات كانت خدمته.

ثم تحريناهم جميعا بدقة، وقام بعملية التفتيش اثنان من الأنصار، بينما كنت أنا وسيرجي تروفيموفيتش نراقب عن كثب.

عثر في جيب أحدهم على ورق لعب. تناوله سيرجي تروفيموفيتش بحذر، وشكر ذلك الشخص الجديد المرتبك:

– شكراً، شكراً! ان هذا الورق ينفع في اذكاء سعير النار في الطقس الرطب!

ولما فرغنا من عمليتي التحقيق والتفتيش صف ستيخوف المجموعة كلها وعرف هؤلاء الجدد على قواعدنا وأنظمتنا كلها.

– سنقبلكم في عداد كتيبتنا، لكن ينبغي عليكم ان تعرفوا ان النظام عندنا صارم. ان أمر القائد قانون لا يخرق، والمخالفون ينالون العقاب. اننا نطلق النار على السارق. وان ما نغنمه من العدو يسلم الى فصيلة التموين، ويوزع باشراف القيادة، حتى التبغ نفسه لا يسمح بالاستيلاء عليه.

وأضاف ستيخوف قبل أن يوفي على الختام:

– ليس لدى بعضكم سلاح، واننا غير مستعدين لتقديم السلاح لكم. فطالما أنكم فقدتم سلاحكم ينبغي عليكم أن تعوضوه في المعارك. فان لنا معارك كثيرة وعنيفة مع العدو. مفهوم؟

وعند المساء استمعنا الى الأحاديث المؤلمة من أولئك المقاتلين الجدد في كتيبتنا، عن آلامهم، وعمليات تعذيبهم التي كانت تجري في معتقلات الألمان...

وكأنني الآن أسمع كلمات أحدهم ذلك المحارب الأحمر السيبيري المسن:

– ايه، اذن مكثنا يوما، اثنين وثلاثة، ولم نتناول ولو

Twitter: @ketab_n

لقمة من الطعام ولا أحد يقدم لنا جرعة ماء. بعضنا لم يتحمل فأخذ يهذي... ومرة ننظر فجأة – فاذا أحد الحراس الالمان يفتح صنبور الماء. ارتمى رفاقنا على الماء المنعش، أما هو، يا للوغد، فقد فتح النار عليهم من الرشاش...

لم ينقطع اتصالنا مع أرضنا العظيمة لحظة واحدة. كان مصير واتجاه العمل في كتيبتنا يتعلق بها. ولهذا فقد أولينا الاتصال اللاسلكي جل اهتمامنا، وحافظنا على اللاسلكيين محافظتنا على حدقة العين.

وعندما كنا ننتقل من مكان لآخر كان يخصص لكل لاسلكي اثنان مسلحان برشيشين لحمايته شخصياً وليساعداه في نقل الجهاز.

وبالمناسبة أقول: بالرغم من أن الجهاز كان من النوع المتنقل والقابل للحمل فقد كان ثقيلا شديد الوطأة. لقد كان يتألف من صندوق صغير وضع فيه جهاز الارسال والاستقبال مع المفتاح و «التغذية» التي هي عبارة عن بطاريات جافة موجبة وسالبة. وعلاوة على هذا كان ينبغي حمل «التغذية» الاحتياطية من بطاريات استعملت بعض الوقت وتستخدم لسماع اذاعة موسكو.

لقد كنا نجري الاتصال بموسكو في ساعة معينة من كل يوم. واما حدث أن صادفتنا تلك الساعة أثناء سير الكتيبة دون أن نرى موجبا للتوقف فقد كان اللاسلكي وحده يتوقف ليجري الاتصال يحميه ثلاثون شخصا مسلحا في المكان نفسه. فالكتيبة كانت تتابع السير، واللاسلكي يتصل بموسكو، وعندما يفرغ من الاتصال يلحق بالكتيبة ويبلغ ما قد بلغه من موسكو.

اقترب شهر آب، ونحن لا نزال في الطريق. ها نحن قد عبرنا سكة حديد كوفيل – كييف، وبقي علينا أربعون كيلومترا الى المكان المقصود.

وعند المحطة، وبالقرب من مفرق بودكي – سنوفيدوفيتشي أنذر السكان المحليون مستطلعينا بأن الألمان شاهدونا عندما عبرنا سكة الحديد، وأنهم يستعدون للهجوم مع فجر اليوم التالي. لكننا لم ننتظرهم، وانما فرزنا

Twitter: @ketab_n

خمسين نصيرا بقيادة باشون وأرسلناهم لتحطيم الوحدة التأديبية.

وبلغ الأنصار مفرق بودكي – سنوفيدوفيتشي في الليل. وأكد رجال الاستطلاع أن الألمان موجودون في القطار على الطريق الاحتياطي.

اقتربت جماعتنا من عربات سكة الحديد وانبطحوا. لم يكد باشون يتحرى المكان حتى أزفت لحظة البدء. لقد تعالى نباح كلب لدى الألمان وكأنما سمع بعض اللغط فأيقظ الحرس. هتف الحارس المناوب، لكن أحداً لم يجب. فأطلق طلقتي الاشارة. ولم تعد ثمة حكمة في الانتظار، فأعطى باشون الأمر «نار!» وطارت الرمانات اليدوية في العربات المليئة بالجنود الهتلريين. واسهمت الرشاشات والرشيشات واحترق برميل البنزين الذي كان بالقرب من القطار من رصاصة متفجرة فتفجر، وامتدت ألسنة النيران حالا الى العربات، وشب حريق مريع.

وقبيل الفجر كان أفراد الحملة التأديبية المرسلون من قبل المحتلين لابادتنا قد أبيدوا الا نفراً قليلا سنحت لهم فرصة الهروب.

وغنمنا اشياء كثيرة: مختلف الأسلحة من بنادق ورمانات يدوية وطلقات، وكثيرا من الأشياء الأخرى واللوازم الضرورية كالسرج مثلا وبعض مواد التغذية التي كنا في أمس الحاجة اليها وعلى الأخص منها السكر ومادة السكرين.

و فقدنا في تلك العملية الأسباني أنطونيو بلانكو الذي كان في الثانية والعشرين من عمره. لكنه خلال ذلك العمر القصير كان قد خبر طريقاً كفاحياً مجيداً. ففي عام ١٩٣٦ عندما كان أنطونيو في السادسة عشر من العمر حارب في صفوف الميليشيا الشعبية الأسبانية ضد الفاشيين، ثم عاش في الاتحاد السوفيتي وتطوع في كتيبتنا هذه.

لقد مات أنطونيو بلانكو ميتة الأبطال. كان أول من بلغ العربة وألقى قنبلة في داخلها.

وبعد يومين من معركة محطة بودكي – سنوفيدوفيتشي بلغنا غابات سارني.

Twitter: @ketab_n

كان محل اقامتنا متسعا مريحا، فقد امتدت غابات سارني الى مئات الكيلومترات، لكنها لم تكن كتلة واحدة من الغابات وانما كانت الغابات والحقول والمزارع تتبع بعضها خلف بعض، فخلال كل ستة الى ثمانية كيلومترات كانت تصادف مزارع معزولة وقرى. وكان هذا يعني أنه بامكان الكتيبة أن تختبىء دون أن تفصلها المسافات عن الناس. وكان هذا ذا أهمية بالغة بالنسبة لنا.

لقد اوضعت القيادة في موسكو أمام كتيبتنا المهمة الرئيسية التالية: القيام بالاستطلاع في المدن ومحطات الخطوط الحديدية الهامة في أوكرانيا الغربية. وكان ينبغي تحرى أخبار العدو وتبليغها الى موسكو: المعلومات عن قواته، وأماكن وجود المصانع الحربية والمستودعات ومراكز القيادة، ومعرفة عدد واتجاه قواته واسلحته، ومعرفة كل أسرار الألمان العسكرية. والى جانب هذا كله كان ينبغي أن نكبد الألمان اضرارا، أنى تسنح لنا فرصة لذلك.

لقد تمركزنا في الغابة ليس بعيدا عن قرية رودنيا — بوبروفسكايا وعلى بعد مائة وعشرين كيلومترا تقريبا عن مدينة روفنو. كان هذا في شهر آب (اغسطس)، وكان الطقس جميلا دافئا، لم ننشىء المخابىء وانما كنا ننصب مشمعات الخيام. وأما أولئك الذين لم تتوفر لديهم المشمعات فقد كانوا يلجأون الى صنع أكواخ من الأغصان، وكانت أغصان شجرة الشوح أفضل مادة لذلك، فعندما يتكوم بعضها فوق بعض تحتفظ بجو دافىء في داخلها، وكانت قطرات المطر تنساب على أوراقها الابرية لتسقط على الأرض دون أن تنفذ الى الداخل. لقد كانت «كفوف» شجرة الشوح تصلح كفراش حسن أيضا: فقد كانت مرنة تماما كالفراش. وكيلا تخز ابر تلك الأغصان فقد كنا نفرش فوقها طبقة من الأوراق أو الطحالب.

كان المخطط الهندسي للمعسكر هكذا: في المركز، حول النيران، مشمعات الخيام لرجال قيادة الكتيبة بتناسب،

Twitter: @ketab_n

تليها على بعد بضعة أمتار ومن الجهات الثلاث خيام الاسعاف الطبي والاتصال اللاسلكي والمطبخ. ثم تليها على بعد قليل الوحدات الصغيرة لرجال الاستطلاع، وبعد ذلك الوحدات الصغيرة العاملة في اطراف المربع المشغول من جميع نواحيه.

لقد بنينا تلك «البلدة» في يوم واحد. وفي اليوم التالي أرسلت المحاربين في شتى الأنحاء للتعرف على سكان ذلك المكان، وتعقب أخبار الألمان عندهم وايجاد أناس مخلصين لنا والحصول على المواد الغذائية.

ذهب في البدء أولئك الذين يتقنون اللغة الأوكرانية، وكانوا كثرا بيننا، لكنه لم يكن في مقدورنا إرسالهم جميعا للاستطلاع لأن أحذية الكثيرين منهم كان قد أتلفها السير الطويل. ولم تكن لدينا ثمة مستودعات بملابس عسكرية، ثم لم يكن بمقدورنا أن ننفذ الى مستودعات الألمان منذ اليوم الأول.

وظل أولئك «الحفاة» الذين بقوا في المعسكر مطأطئي الرؤوس، يشتغلون بأمور «تدبير المنزل» وأجروا كل الترتيبات اللازمة داخل الخيام.

لكن المحارب كورولیوف الذي نشأ في مقاطعة ريازان لم يطق صبرا على ذلك المصير:

— امرأة أنا يا ترى، لألازم البيت هكذا!

فأجابه الرفاق متهكمين:

— انزل الى مخزن موسكو وابتع لنفسك زوجا من الأحذية من جلد الماعز.

ثم ذهب كورولیوف الى فصيلة التموين وطلب فأسا، ثم تقدم الى قائد الحضيرة سارابولوف وقال:

— أيها الرفيق القائد، أتأذن لي بالتغيب نصف ساعة؟

— لماذا، والى أين؟

— سأذهب الى الغابة لأقشر شجرة زيزفون.

— وما حاجتك اليها؟

— سأصنع من قشرتها حذاء لي.

فكر سارابولوف قليلا:

Twitter: @ketab_n

– حسنا، أيها الرفيق كورولیوف، اذهب، لكن اياك أن تتأخر.

– حاضر، لن أتأخر!

وبعد نصف ساعة عاد كورولیوف، جلس على أرومة شجرة مقطوعة بالقرب من الخيمة وشرع يعمل. لقد فرز شرائط من قشرة الزيزفون وصنع قالبا من الخشب، وبدأ يسرج.

وحينذاك ظهر المتهكمون:

– أنت تخيط حذاء، أيها الرفيق كورولیوف؟ سوف يعاملونك أيها الأخ في مثل هذا الحذاء معاملة لورد انكليزي!

تعمد كورولیوف الصمت وتابع عمله.

وبعد ساعة أخذ يقيس الحذاء الجاهز، وكان سارابولوف في الوقت نفسه قد أتى إليه:

– ايه، دعني أراه.

تناول الحذاء، قلبه قليلا بين يديه، وحمله عائداً به دون أن ينبس بكلمة. بينما كورولیوف، الذي لم يفهم شيئاً آنذاك، ظل قاعداً على الأرومة، وفكر:

«ربما سوف يرميه بعيدا، لقد ذهب تعبي سدى!»

لكن سارابولوف سرعان ما عاد ثانية وقال:

– أيها الرفيق كورولیوف، لقد أريت الآن حذاءك للقيادة، وان نائب القائد في القسم السياسي ستيخوف يأمر بأن تسرج له زوجا كذلك، وأوعز الى قادة الفصائل أن يعين كل منهم اثنين من عنده ثم يرسلونهم اليك لتعلمهم صنعتك.

وبعد دقائق معدودات أخذ «التلاميذ» يتدفقون.

– هنا الرفيق كورولیوف؟

– أنا هو.

– أرسلونا اليك لنتعلم تسريج الأحذية.

تجمع ثمانية تلاميذ، لاحظ كورولیوف أن بعضهم لا يرغب في ذلك العمل، فبدأ «دعايته»:

– لا تتأففوا يا رفاق، أنه عمل حسن. والحذاء المصنوع من القشرة صنعة روسية قديمة، نعاني المصاعب الآن. وما

Twitter: @ketab_n

العمل؟ لن نقوم بالنهب ولا يجوز أن نستخلص الحذاء من أخينا الفلاح، ولم نلتق مع الألمان بعد. وانني أؤكد لكم أن هذا النوع من الأحذية للأنصار يفضل حتى على الجزم. فهو مثلا لا يحدث أي صوت عند المشي. يجب ألا يحدث الاقتراب من العدو أي صوت وهذا ما توفره هذه الأحذية. واما اذا كان الأمر ليلا فلا تستطيع الكلاب أن تتحسس أي حفيف ولا تنبح. ثم انها لا تسبب قروحاً في الأقدام. والآن ابدؤوا مثلي، هاكم شرائط...

لقد سرج كل من التلاميذ في الدرس الأول حذاء، غير أنه لم يكن جيدا بالطبع. وبعد يومين صار الكثيرون يمشون في أحذيتهم الجديدة. وهكذا حلت موقتاً قضية الأحذية.

لقد كانت تعوزنا أشياء كثيرة في تلك الغابة، لكننا كنا نتوصل الى مخرج لكل منها في النهاية. لقد ظهرت مواهب وكفاءات جمة عند رجالنا، وخاصة في تلك الأعمال التي شد ما نحتاج إليها. هذا ما كان بالنسبة للأسباني ريفاس، وهو كان في الفترة الأولى ضائعا مشتت الذهن. لقد عبثت تلك الليلة الملعونة، كما يبدو، بتوازنه عندما مكث في الغابة مع الحمامة التي اصطادها وأثرت على مزاجه.

كان قد عين محاربا في الحضيرة، لكنه كان انسانا ضعيفا في بنيته الجسدية، وكان يشق عليه أن يتحمل الخدمة الفعلية كغيره. لقد كان كثيرا ما يتعب ابان السير الطويل. وكثيرا ما كان ينبغي حمله على العربة أسوة بالجرحى. لم يكن يعرف كلمة روسية واحدة. ولم تكن قد ظهرت أية حاجة بعد الى عمله كميكانيكي للطائرات. لقد شاء المصير أن يقوم عندنا بالخدمة حارسا لأول مرة في حياته. لقد كان يقف في مخفره منهوكا حائرا ينجر الهراوى طيلة الوقت بسكينه خارقا بذلك نظام الخدمة في الحرس. لقد نسينا مرة أن نبدله بغيره، ففقد كل معنوياته ووقع في قنوط. ثم تبادلنا الرأي فيما بيننا حول ما ينبغي فعله معه. واقترحنا اليه الذهاب الى موسكو على متن اول طائرة تأتينا، ووافق ريفاس. لكن صدفة مفاجئة قلبت قرارنا رأساً على عقب.

Twitter: @ketab_n

لقد رأى ريفاس أحد الأنصار وهو يصلح رشيشا تالفا. اقترب منه وقال وهو يهز برأسه:

– تشو، تشو! تسليحا؟

– اليك هذه الـ «تشو، تشو» لا جدوى في الأمر! – أجابه النصير بنفاد صبر.

– اي! أجاريبو تسليحا! – قال له ريفاس، وانهمك لتوه في إصلاح الرشيش.

كان النابض قد انكسر في اسطوانته. عثر ريفاس على حاك عاطل بين الغنائم التي استولينا عليها في معركة بودكي–سنوفيدوفيتشي فأخرج منه النابض وركبه في الرشيش الذي أصبح في الحال صالحاً للاستعمال.

ومنذ ذلك الحين بدأت حياة جديدة بالنسبة لذلك الانسان. وانجذب اليه الأنصار. وصار رجال الاستطلاع يأتون اليه بالملازم والمطارق والمبارد، وهكذا صار صاحبنا الأسباني انساناً جديداً: يقضي أياما كاملة ينشر ويثقب ويقطع. لقد صنع من مسمار صدىء عتيق بواسطة المبرد وحده ابرة القدح للرشاش لا تختلف بشيء عن التي تنتجها المصانع.

لقد صار ريفاس مرحا ضاحكا، حتى أنه بدأ يصح ويسمن. كان يخرج مع الفجر بحقيبة أدواته ليشرع باصلاح الأسلحة. ولما كانت تزداد «الطلبات» عليه كان يعمل الليل كله على ضوء النار. ثم صنع لنفسه شيئا ما يشبه السراج كان يسميه بالاسبانية «ماريبوسا» ولم تكن هذه «الماريبوسا» تعمل على الكيروسين وانما على ذوب شحم الخيل أو البقر. وهكذا، فقد أصلح ريفاس كثيراً من الأسلحة التي قد ترمى وتهمل و«أعادها الى الحياة». فكان الأنصار يتحدثون عنه قائلين:

– هو ذا الانسان حقا ذو اليدين الذهبيتين!

وفعلا فقد كان بامكانه أن يصلح أي شيء.

– ريفاس، ان ساعتي لا تسير على ما يرام!

– اي، ليس حسنا! أجاريبو تسليحا.

– ريفاس، لقد تعطلت قداحتي!

Twitter: @ketab_n

– أجاريبو تسليحا!

ثم عندما اقبلت الينا الطائرة وسألنا ريفاس ان كان يود العودة الى موسكو، جزع وقال وهو يخفق بيديه الأثنتين:

– لا، لا، أنا نافعه، تسليحا!

وهكذا صار لدينا براد أسلحة للكتيبة.

لم تكن لدينا ثمة مطابخ متنقلة، حتى ولا طباخون حقيقيون. واية اقوال عن هذه ان لم تكن متوفرة عندنا أية مادة للغذاء. لم يكن من شيء البتة الا ما يقدمه لنا الفلاحون بأنفسهم.

وكان نظام توزيع الأغذية صارماً جدا، فكل ما كان يأتي به رجال الاستطلاع كان يسلم الى قسم المؤونة حتى آخر حبة منه، وهناك يوزع بالتساوي على الوحدات الصغيرة. ولم يكن أحد من المحاربين ليملك الحق بالتصرف في شيء ما دون سواه.

كان ثمة مطبخ خاص لكل وحدة صغيرة. ثم مطبخ واحد لقسم الاسعاف والقيادة واللاسلكيين ورجال الاستطلاع.

كان القازاخي داربيك عبد الرحيموف قد عين طاهيا في مطبخ القيادة، فاخترع «الوان الطعام» – بولتوشكا. كان يحضرها هكذا: يسلق اللحم في الماء، ثم يخرجه ويرش في مرقه دقيقا، فيتكون حساء كثيف لزج دعوناه «بولتوشكا بالقازاخية» على سبيل النكتة. وكنا نتناول البولتوشكا بمقادير صغيرة مع... اللحم: فلم يكن لدينا خبز.

وعندما كان يعوزنا الدقيق – وهذا ما كان يحدث غالباً – كنا نتناول تولتشونكا بدلا من البولتوشكا: كنا نسلق البطاطا في المرق ونهرسها.

واذا لم يتوفر لدينا دقيق ولا بطاطا كنا نلجأ الى الحنطة أو الجودار ونسلقها. وكان يصدف أحيانا أن تظل الحبوب تغلي على النار الليل كله دون أن تنضج.

واذا ما توفر الدقيق كنا نخبز منه ارغفة بدلا من الخبز. لقد كان داربيك ماهرا في صنعها. يضع العجين في مقلاة، ويغطيها بمقلاة أخرى ثم يطمرها في الجمر. وتخرج ارغفة منتفخة «ارغفة على الطريقة القازاخية».

Twitter: @ketab_n

وكان الطعام «الذي تقدمه لنا الأرض» أكبر مصدر لأكلنا. كان في الغابة الكثير من الفطر وحب توت العليق والتوت الافرنجي والآس. وكنا ننظم عملية جمع الفطر والثمار. وكان حب الآس يصبغ شفاه الأنصار وأسنانهم وايديهم بالسواد. وأحيانا كانوا يعمدون الى «كبس» حب الآس هذا في القدور فوق الجمر فيخرج شبيها بالمربى. واذا ما أضيفت اليه مادة السكرين المغنومة غدا طعاما شهيا يمكن استخدامه كمربى مع الشاي. الا أنه، بالمناسبة، لم يكن لدينا شيء من الشاي. فكنا نستعمل أوراق وزهور النباتات.

لم تدم اقامتنا في ذلك المعسكر طويلا. فقد تواردت اليه أسراب الغربان منجذبة برائحة الطعام والفضلات، ومهتدية اليه بدخان النيران حتى صار بامكانها أن تفضح وجودنا. ولم تكن مياه البئر عذبة نقية فأوعز الدكتور تسيسارسكي بوجوب تغيير ذلك المكان. مشينا مسافة تزيد عن العشرين كيلومترا وألقينا رحلنا هناك. ثم كثر تنقلنا من محطة لأخرى لأسباب شتى، وتعودنا على التنقل من «شقة» لأخرى.

وصار معظم المسؤوليات والازعاجات في المعسكر يقع على كاهل الدكتور تسيسارسكي الذي ينصب خياما للاسعاف، يعالج الجرحى ويسهر على شؤون الصحة ووصاياها، ويستقبل المرضى في القرى، فكان يقوم بهذا كله دون أي كلل.

لقد اكتسب في أقصر مدة سمعة شخصية مرموقة بين الأنصار. وكان الجميع يطمئن إليه كطبيب. وهو يحسن معاملة الجريح أو المريض.

استطاع أن يطمئن فلوريجاكس الذي لم يكن يفهم كلمة واحدة بالروسية وأوضح له حالة جرحه بالاشارات وتعبيرات الوجه، وأدخل الثقة الى قلبه مؤكداً له أنه سوف يصح قريبا، وسيعيش وسيقاتل جنبا الى جنب مع الأصحاء.

Twitter: @ketab_n

ووضع تسيسارسكي يد كوستيا باستانوغوف في جبيرة صنعت من ألواح خشبية منجرة. فبدأ جرح اليد يلتئم الى أن تمكن باستانوغوف أخيرا من استعمال المسدس. وقال له الدكتور مواسيا:

– وسوف نجري ليدك تمرينات رياضية طبية.

عندما يتحدثون أمامك عن الطبيب الماهر المجرب، تقفز الى مخيلتك عادة ولأول وهلة صورة لرجل متوسط في العمر ذي لحية تتدلى بشكل سهم، وينظر الى مريضه من أعلى اطار نظارتيه المنزلقتين على ظهر الأنف. ان مثل هذه الصورة لاتنطبق على طبيبنا تسيسارسكي.

لقد كان ألبرت فينيامينوفيتش تسيسارسكي شاباً في الواحد والعشرين من عمره، أنهى معهد الطب في موسكو لشهر خلا قبل الحرب. تدرب على أعمال الجراحة أثناء كونه طالباً في معهد سكليفوسوفسكي. وما أن بدأت الحرب حتى تقدم تسيسارسكي بطلبه الى لجنة الكومسومول في موسكو يرجو ارساله الى الجبهة وأرسل في شهر تموز (يوليو) الى احدى وحدات حامية موسكو.

ولما شكلنا كتيبتنا كان رفاق تسيسارسكي في عداد هذه الكتيبة، فحصل ألبرت تسيسارسكي بواسطتهم على رقم هاتفي وأجرى لي مخابرة. ثم قدم الي في الوقت المحدد فرأيته شاباً وسيما طويل القامة أسود الشعر.

– أرجوك، أيها الرفيق ميدفيديف، أن تنقلني من وحدة المؤخرة الى عداد أنصاركم.

– وما هي امكانياتك؟

– أعرف جراحة الميدان وأتكلم باللغة الألمانية.

– يعوزنا جراح، طبيب لكل الأمراض وجندي شجاع.

– يعز علي أن أمدح نفسي، لكن بامكانك أن تسأل عني كلا من بازانوف وشمويلوفسكي اللذين أصبحا في عداد كتيبتكم.

فطلبت من تسيسارسكي آنذاك أن يتقدم بتقرير. ثم رفعت التقرير الى الجنرال الذي كانت تحت إمرته الفرقة حيث يخدم تسيسارسكي.

Twitter: @ketab_n

وكتب الجنرال على التقرير: «يوضع تحت إمرة العميد ميدفيديف».

فتناول تسيسارسكي التقرير مغتبطاً بقرار الجنرال واسرع الى فرقته.

وخلال الايام القليلة قبل الطيران الى مؤخرة العدو، لم يضيع تسيسارسكي دقيقة واحدة سدى، وانما أخذ يهيء أجهزته والأدوية وأدواته الطبية التي ستعوزه في خدمته؛ وداوم على تمرينات الجراحة وتناصح مع جراحين مهرة، وقرأ الكتب الطبية، وأنهى التدريب العسكري في الوقت نفسه كأي محارب آخر.

كان من المفروض أن يطير معي، لكنه عندما بلغتنا اخبار تفيد ان كالاشنيكوف قد أصيب عند محطة تولستي ليس وانه بحاجة الى الاسعاف السريع، دعوت تسيسارسكي وقلت:

– أيمكنك أن تطير هذا اليوم؟

وكان هذا قبيل المساء. فأجابني تسيسارسكي:

– مستعد في أية لحظة.

– ستطير بعد ساعتين.

– حاضر!

لم تكن قد مضت آنذاك فترة طويلة على زواج تسيسارسكي، فأسرع الى البيت ليودع زوجته، وكانت قد رحلت الى مكان ما آخر، وهكذا شاء مصيره أن يطير دون أن يودعها.

كان تسيسارسكي شعلة من النشاط: فهو منهمك على الدوام، لا تقف له يد، ويهرع من مكان لآخر دون توقف.

كان يجري معاينات طبية يومياً للحضيرة بعد الاخرى بغض النظر عن الطقس. كان ينظم افراد الحضيرة في صفوف، يأمرهم بنزع قمصانهم ويبدأ الكشوف. فاذا ما عثر على قذارة في اليدين أو الأذنين لدى أحدهم بدأ يعنفه ويوبخه ثم يرغمه على الاغتسال. واما اذا عثر على قملة واحدة لدى أحدهم فيرسلهم جميعا الى عملية التطهير الصحي. وعندما يكون الطقس دافئا كانوا يستحمون جميعا

Twitter: @ketab_n

في النهر أو يغتسلون بمياه البئر. ولما يبرد الجو كانوا يسخنون الماء على النار ويغتسلون الى جانبها بالماء الدافيء.

ولم يتذمر الانصار: فطالما يقول تسيسارسكي – فقوله فرض مشروع! ولقاء هذا فلم تدخل الدوسنطاريا او التيفوئيد الكتيبة، بينما كانتا مستفحلتين في القرى المحيطة بذلك المكان.

وقد كان تسيسارسكي المراسل الدائم لجريدتنا «نحن سننتصر» التي صارت تخرج أثناء المسير. وكانت موادها تكتب بخط اليد على دفتر رسم للتلاميذ، وكانت ثلاث صفحات منها مخصصة «لقضايا الطب» حيث كان تسيسارسكي «يناضل» من أجل تطبيق القواعد الصحية.

لقد كتب طبيبنا: «سنعلن حرباً شعواء ضد الأوبئة، وسلاحنا في هذه الحرب واحد ألا وهو النظافة. فعدم النظافة في صفوفنا تعني الخيانة». وانني لأذكر لوحة تهكمية رسمت في أحد أعداد تلك الجريدة: كانت تصور نصيراً وخنزيراً يشربان معاً من مياه المستنقع. وكان قد كتب تحتها:

نصير كالخنزير
يعرضنا الى الوباء جميعا
فالمياه الآسنة القذرة
مليئة بالعصيات، والباكتيريا والنتن والأقذار.

ولم يضع مؤلف هذه الأبيات إمضاءه تحتها، لكنني أعتقد أن مؤلفها هو تسيسارسكي لا غيره. كان يحب نظم الشعر، لكنه كان يوقع باسمه في الجريدة عادة تحت «الشعر الجدي» فقط. كان يتردد غالبا الى القرى.

– لقد أرسل الأنصار طبيبا الينا! – هكذا ذاع صيته في تلك الأنحاء، فيتوافد المرضى زرافات الى «عيادة» الدكتور.

لم يكن الأهالي يحصلون على الاسعاف اثناء الاحتلال الألماني مع أن عدد المرضى كان يفوق الحصر. وكانت

Twitter: @ketab_n

الأوبئة والجوع يحصدان الناس حصدا. فكان تسيسارسكي يستقبل المرضى بشتى أنواع الأمراض.

وكان الأطفال يخلفون أشد الانطباعات أثرا. لقد تعرضوا بسبب سوء التغذية الى شتى أنواع الأمراض الممكنة. فيحملهم آباؤهم الى صدورهم مغلفين بالخرق الرثة الملوثة.

ولما كان يتأخر تسيسارسكي بالذهاب اليهم كان سكان تلك القرى يرجون رجال الاستطلاع للاسراع في ارساله الى هناك، فلا يتوانى تسيسارسكي لحظة واحدة حتى يبلغهم ويبدأ في معاينة مرضاه.

وكان تسيسارسكي يردد دائما على مسامع الرفاق عن ولعه بالفن والأدب وخاصة بالمسرح.

– عندما تنتهي الحرب سأذهب الى المسرح. بودي أن أصبح ممثلا.

ولما كانت تحين ساعة فراغه في المساء كان يذهب الى النار حيث يتحلق المحاربون ويبدأ «حفلته». كان تسيسارسكي يجيد قراءة أشعار بوشكين ونيكراسوف ومایاكوفسكي. وكان ذا صوت ناعم رخيم.

وكنا نهتز خاصة هنا في مؤخرة العدو لأشعار مایاكوفسكي «حول جواز السفر السوفيتي»:

كم تكون بالغة متعة
رجال الشرطة
لو استطاعوا جلدي
وتسميري على الصليب
لأنني أحمل في يدي
جواز السفر السوفيتي
الموسوم بالمنجل وبالمطرقة.

ثم ما لبث أن ظهر لدينا في الكتيبة «فنانون» آخرون من مطربين وعازفين وراقصين. لكن تسيسارسكي وحده هو الذي كان قد أخذ على عاتقه البداية ليس معالجة المحاربين وحسب وانما مواساتهم والتخفيف من وطأة حنينهم الى أسرهم والى الحياة السوفيتية الحبيبة.

Twitter: @ketab_n

لقد رأينا بأم أعيننا في مدن وقرى أوكرانيا الغربية كل ما كنا نقرأه في الصحف من قبل.

كان الهتلريون ينهبون الفلاحين، يسلبونهم خبزهم ومواشيهم. وكل من كان يعترض طريقهم كانوا يطلقون عليه نيران بنادقهم أو يعدمونه شنقا أو يحرقونه بالنار حياً، أو يخنقونه في سيارات الغاز الخانق. وكانوا يسوقون الشباب الى ألمانيا للعمل هناك أرقاء. وكانوا يجدون في أثر المختبئين بواسطة كلابهم. إذا عثروا عليهم ضربوهم وساقوهم أو عذبوهم حتى الموت.

وهذا ما كانوا يسمونه «بالنظام الجديد».

لقد أرهقوا الفلاحين بالضرائب، حتى أنهم كانوا يتقاضون ضريبة على كلب المنزل ثلاث مائة روبل. فالجوع والفقر والأوبئة الرهيبة، كل هذا كان يعمل منجله في الشعب حصادا. وكانت مناطق كاملة تخلو من الاسعاف الطبي.

وهذا أيضا كان من سياق «النظام الجديد».

وما أن احتل الفاشيون مدن وقرى أوكرانيا الغربية حتى اعلنوا تسجيل اليهود. كانوا يستولون على أموالهم جميعا ثم يرسلونهم الى العمل في مقالع الأحجار.

وفي نهاية شهر آب (اغسطس)، كما جاء في خطتهم المرسومة تماما، أجريت حملة «إبادة» لليهود في مدينة روفنو والأقاليم المجاورة لها. كان الهتلريون يسوقونهم جماعات كبيرة الى خارج المدينة ويجبرونهم على أن يحفروا القبور لأنفسهم ثم يحصدونهم بالرصاص، وبعد ذلك يوارونهم في تلك الحفر وبينهم الأحياء.

لم يكن أولئك المتعطشون الى الدماء ليرحموا أحداً من الأطفال أو الشيوخ.

كان بعض الناس فقط يلوذ بالفرار لكن هذا لم يكن سبيلا الى النجاة. لقد حظر الهتلريون على الأهالي تقديم أي عون لليهود متوعدين اياهم بالرصاص. وكان يعلق

Twitter: @ketab_n

كثير من الاعلانات عن مكافآت الخونة: كيلوغرام ملح لكل انسان يسلم يهودياً.

وكان هذا أيضا من ضمن مواد «النظام الفاشي الجديد».

شد ما كره الأهالي هؤلاء الهتلريين، وكانوا ينتظرون التشفي منهم فقط على يد الجيش الأحمر. ولهذا، فلما كنا نحن معشر الأنصار رسل الشعب السوفيتي والسلطة السوفيتية، ندخل تلك القرى والمزارع كانوا يستقبلوننا بترحاب بالغ بالرغم من أن أية شبهة عن علاقة أحدهم بالأنصار كانت تهدد حياته بالموت. وليس هذا وحسب، وانما كان هذا جزاء كل من يرى واحدا من الأنصار دون أن يسلمه الى الألمان. ولم يكن المحتلون المغتصبون يفكرون آنذاك بأن ساعة الثأر آتية لا ريب فيها، وسوف يلاقون جزاء ما اقترفوا من جرائم.

عندما شاهدت الفيلم السينمائي «محكمة الشعوب» عن محاكمة رؤوس مجرمي الحرب الألمان، والذي يرينا وحشية الفاشيين، لم أر شيئاً جديداً بالنسبة الي. وانما رأيت بأم عيني أكثر مما جاء في الفيلم بكثير في عام ١٩٤٢ في مناطق كاستوبولسك وليودفيبولسك وراكيتنيانسك وسارني، وفي نواحي ومناطق ومدن وبلدات أوكرانيا الغربية.

لكن الأعداء كانوا مرتاحين بحياة الراحة على الأرض المتألمة والمروية بالدماء. لقد دعا الموظفون الألمان والمدراء زوجاتهم وأقرباءهم إليهم وسكنوا أوثر البيوت في المدن والقرى. وكثيرون منهم كانوا يتسلمون الأملاك الشاسعة حيث يعمل لهم فيها فلاحونا.

لقد قام ذلك «النظام الجديد» على الحراب والرشيشات وأعواد المشانق الفاشية. وكان ثمة خونة من السوفيتيين الذين أيدوا «النظام الجديد» وساعدوا الهتلريين في أعمالهم السوداء.

وكان الألمان قد أرسلوا سرا الى أرضنا قبل بداية الحرب عملاءهم من القوميين الأوكرانيين، فجمع هؤلاء الجواسيس والخونة عصابات من الكولاك السابقين والمجرمين الملاحقين. وما ان بدأت الحرب حتى هبوا ينهبون

Twitter: @ketab_n

أملاك الكولخوزات ويقتلون الشيوعيين واعضاء الكومسومول وشغيلة الكولخوزات النشيطين. ثم راحوا يبثون الحملات الدعائية «للسيد النبيل هتلر» ضد روسيا، وضد السلطة السوفيتية.

وبعد أن احتل الألمان أوكرانيا الغربية، ذهب فريق من أولئك لينتسبوا الى الشرطة الهتلرية، وبقي الفريق الآخر ضمن العصابات. ولقد سلحهم الألمان وأمروهم بشن المعارك ضد الأنصار.

ويوما ما، بينما كنا سائرين في غابة كثيفة في طريقنا الى غابات سارني، وقع نظرنا فجأة على طابور كبير: كان سكان القرية الكبيرة يزدحمون في الأكواخ والبيوت المحفورة في الأرض. لقد حدثنا رئيس الكولخوز سابقا في تلك القرية، وهو شيخ ناهز الستين من العمر، عن الواقع المر الذي حل بالكولخوز. لقد سلبوهم كل شيء، وقتلوا كثيرا منهم، وأرسلوا الكثير الى ألمانيا. وحرصا على أرواح الباقين فقد حشد شغيلة كولخوزه في تلك الغابة.

وأثناء حديثه هذا كان يردد كثيرا كلمة «الغيداماكيون» فسألناه:

— وماذا عن أولئك الغيداماكيين، ومن تعني بهم؟

— آه، ألا تعرفونهم؟ — سأل الرئيس مندهشا — هم، انهم الخونة السفاحون. أما وحوش، كلاب! انظروا الى صحفهم، انهم يكتبون كيف باعوا أنفسهم الى هتلر.

ثم جاء العجوز ببعض أعداد جريدتهم «الغيداماك»، تناولت الجريدة بين يدي، فوقع نظري على هذه المقطوعات:

«ربما تريدون التنزه والشرب، ربما تريدون سلب انسان ما، أو الحصول على قنص أو متاع؟.. الا اننا لا نعارض في ذلك...»

لقد كان العصاة الغيداماكيون يقدمون خدماتهم بكل ارتياح الى المحتلين الألمان الفاشيين. وكمكافأة لهم على تلك «الخدمات المخلصة» كانوا يسمحون لهم بالسلب والنهب. وقد حصل العصاة على امكانيات كبيرة لمزاولة نشاطهم!

Twitter: @ketab_n

ها هم أولاء الذين كانوا يؤيدون «النظام الفاشي الجديد»!

لكنهم، وهم الشجعان في السطو على السكان الآمنين، كانوا يلقون النظرات رعبا لمجرد سماعهم كلمة «أنصار».

وبعد معركة بودكي–سنوفيدوفيتشي انتشرت الاشاعات تقول بأن زهاء ألف من الأنصار قد ظهروا في الناحية. وعندما صرنا نبعث في كل يوم بجماعاتنا في شتى الأنحاء أخذت تلك الاشاعات تقوى وتزداد. ثم صار يقال: ان جيشاً كاملا من الأنصار يختفي في تلك الغابات.

ثم أخذت الطائرات تمدنا من فترة لأخرى بالأسلحة والذخيرة ومواد الغذاء، وبالطبع، لم يكن هذا يحدث في منأى عن العيون مما أكد في المنطقة تلك الاشاعات القائلة بوجود جيش كبير من الأنصار.

اضطرب الألمان، وأرسلوا الرسائل الى روفنو يطلبون الرجال والأسلحة. واختبأ الخونة فترة في انتظار الامدادات.

أما نحن فقد بدأنا نوسع نشاطنا.

وربما لم تكن تلك الاشاعات حول ظهور جيش الأنصار كاذبة، فلم يكن تعدادنا مائة أو مائتين وانما أكثر من هذا بكثير. وفي الواقع كان جميع السكان المحليين لتلك المنطقة أنصاراً. وأن أي إنسان سوفيتي، اذا ما كان في مقدوره أن يساعدنا في شيء أو يضر الألمان، لم يكن ليتردد عن فعله. لقد كره الناس الهتلريين كرههم للموت، وبهذا كانت تتجلى قوتنا.

فلو أننا اقتصرنا في عملياتنا على قوة كتيبتنا وحدها لما تمكنا من تنفيذ أي عمل، ولوقعنا حالا بين مخالب الفاشيين. لقد كان هؤلاء السكان هم مساعدونا وحماتنا. وهنا يمكن جوهر الأمر. لقد كانوا نقطة ارتكاز لنا في مؤخرة العدو.

وكانت تقف «مناراتنا» في القرى الكبيرة، تضم كل منها عشرة – خمسة عشر شخصا. وكان الأهالي يدعون تلك «المنارات» باسم المخافر السوفيتية. وكانوا يوافوننا إليها بما جمعوه لنا من الأغذية.

Twitter: @ketab_n

وكان الفلاحون يساعدوننا في عمليات الاستطلاع، فيتنكرون في هيئات تجار للخضروات أو الدجاج ويذهبون الى مراكز النواحي والمحطات القريبة يستطلعون ويستفهمون ثم ينقلون لنا كل شيء. وقد امتازت في هذه الأعمال خاصة الفتيات والعجائز والشبان لكونهم بعيدين عن مواضع الشك والارتياب. وكان السكان المحليون يعرفون كل الدروب والناس جميعا، فقدموا بهذا لكتيبتنا خدمات جلى لا تقدر.

لقد تطلبت منا الحياة التدخل في شؤون «النظام الجديد» الذي أقامه الهتلريون. وما كان ينبغي أن نقصر أعمالنا على الاستطلاع وحسب.

لقد بدأنا دفاعنا عن شعبنا ضد الغزاة الهتلريين بعملية صغيرة عندما دمرنا فولفارك (استثمارة) «أليابين» في ناحية كليسوفو. وكانت هذه الاستثمارة تحت إمرة رئيس غستابو مدينة سارني الرائد ريختر. لقد تذمر الفلاحون من المتصرف بتلك الأملاك وشكوا أمره الينا.

وجهزت قيادة الكتيبة مجموعة مؤلفة من خمسة وعشرين محاربا بقيادة باشون أرشدهم الفلاحون الى الاستثمارة وتحدثوا اليهم بالتفصيل عن النظام هناك، وعن كل ما يوجد، وأين.

واغاروا ليلا. جردوا حرس الاستثمارة من أسلحتهم عنوة دون أن يحاول أولئك الدخول في معركة. وقبيل الصباح عادوا الى المعسكر قطارا كاملا وقد حملوا الجياد بمواد الاعاشة من الخبز والسمن والبرغل والسكر والعسل والبيض والخنازير الأصيلة. وكان يسير خلف ذلك القطار قطيع من الأبقار. فأعطينا للفلاحين أجود البقرات الحلوب، ثم اقتسمنا معهم باقي الغنائم.

وكانت تلك العملية أولى عمليات التموين الغذائية الكبيرة. ولم يكن نجاحنا مقتصراً على هذا وحسب.

فقد عاد باشون باثنين من الأسرى الى المعسكر. كان أحدهما مدير أملاك ريختر الذي شكا الينا الفلاحون أمره. أما الآخر فقد كان واحدا من أكبر الخونة واسمه نيموفيتش، وهو أوكراني الأصل، عمل قبل الحرب جاسوسا للألمان.

Twitter: @ketab_n

تلقى تعليم التجسس في مدرسة الغستابو، وعندما جاء الفاشيون بدأ نيموفيتش جولاته في القرى والبادات ليتجسس أماكن وجود المواطنين السوفيتيين النشطاء وخانهم. وكان نيموفيتش يعرف العملاء الهتلريين الذين تعلموا واياه في مدرسة الغستابو والذين أرسلوا الى بلادنا للتجسس.

وقررنا ارسال نيموفيتش الى موسكو. لكن كيف كان ليتسنى لنا الاحتفاظ به الى حين قدوم الطائرة؟ لقد خيطنا كيسا من المشمع، وأدخلنا الجاسوس فيه، وبقيت رأسه وحدها بارزة خارج الكيس في قبعة رمادية.

ثم كثرت هجماتنا على استثمارات الألمان، ودمرنا عديدة من أملاكهم في المناطق المجاورة وجميع مصانع الألبان حيث كانوا يصنعون الزبدة من الحليب.

ثم ازعجنا، كما يقال، ريختر نفسه: قضينا على استثمارته الثانية، واستولينا على سيارتيه، ثم توصلنا اليه نفسه. لقد بلغ به الجبن حدا جعله يطلب من روفنو حملة تأديبية لحمايته شخصيا.

وابان الغارات الأولى على قرى ومزارع مقاطعة روفنو بدأ أنصارنا اصطداماتهم مع «جيش الشجعان» عصابات القوميين. كانت النتيجة، بالطبع، أن منيت العصابات بالفشل الماحق الذريع.

ثم بلغ الامر حد المزاح.

لقد ابتدع فاليا سيمينوف أمين سر منظمتنا الكومسومولية أمرا عجيبا رائعا. لقد ظهر مع بعض المستطلعين في مقر قيادة احدى العصابات متظاهرين بأنهم «الاصدقاء». وكان يجلس هناك تسعة من الغيداماكيين، وزعم فاليا أنه ساع من «معشر الاخوان»، وأثناء الحديث لاحظ أحد أفراد العصابة أن لدى سيمينوف رشيشا من النوع الجيد.

– انه رشيش رائع غنمته من ضابط في الجيش الأحمر. – قال سيمينوف متباهيا.

Twitter: @ketab_n

وشرع أحدهم يتباهى برشيشه بدوره، نظر اليه سيمينوف وقال:

– هراء! ان رشيشي أروع منه، انظره كيف يعمل جيدا!

ورفع رشيشه وحصدهم جميعا برشة واحدة، ثم قبض على اثنين من الحرس المناوبين وعاد بهما الى المعسكر.

كان سيمينوف في التاسعة عشرة من العمر، تدل ملامحه على انه ولد شيطان، لكن واقع الأمر كان يحدث بأنه مستطلع جدي لا تفتر له همة، لبق وشجاع. لقد كان طالبا من معهد التربية البدنية قبل الحرب، وأصبح نصيراً بالوراثة كما يبدو: فقد حارب أبوه مع الأنصار في الحرب الأهلية في أوكرانيا.

كان سيمينوف يعود غانما دائما من الاستطلاع. لقد عاد ذات مرة باسرى وقدمهم الي:

– قبضت على أفراد عصابة.

فسألته:

– وكيف كان ذلك؟

– ما أن رأونا حتى «صنعوا الأسنان الثلاث».

– وكيف هذا؟

– ان «شعارهم» مؤلف من ثلاث أسنان، أشبه شيء بالمذراة ويدعى «الأسنان الثلاث».

– ايه، أنني أعلم ذلك، لكن ماذا كانوا يقصدون بالأسنان الثلاث؟

– الأمر بسيط للغاية، ما أن وقعت أنظارهم علينا حتى رفعوا أيديهم مستسلمين وتشكل ما يشبه الأسنان الثلاث: يدان مرفوعتان، ورأس في الوسط.

ومنذ ذلك الوقت صار الأنصار يقولون عن أفراد العصابات عندما يستسلمون لهم «صنعوا الأسنان الثلاث».

أخذت كتيبتنا تزداد وتكبر لا من يوم الى يوم وانا من ساعة لأخرى. وبدأ الكولخوزيون يرسلون أبناءهم الينا، واحتفلوا بتنظيم الشبيبة في صفوف الأنصار: اخرجوا لهم

Twitter: @ketab_n

أجود الملابس والأحذية التي خبأوها عن الألمان، وباركوا خطاهم في هذا الطريق. كان عندنا ما لا يقل عن عشرة – خمسة عشر شخصا من قرى كثيرة، أما القرى أمثال فيري، بولشيه سيليشي ومالي سيليشي فقد أصبحت بأجمعها للأنصار: كان لكل أسرة من أسر تلك القرى متطوع في صفوف الأنصار.

وكانت أنباء الحرب الوطنية التي تصلنا يومياً من الجبهة بواسطة اللاسلكي ونوزعها بين الناس تحيي وتشد من عزيمة الشعب وتقوي من ايمانه بالنصر.

وصار الأنصار الجدد ينهون عندنا تدريبهم العسكري حسب المنهاج الموضوع لمدة عشرين يوما. كانوا يتدربون على الحياة العسكرية المتنقلة، على مشية الجنود، على تكتيك القتال في الغابات، وعلى استعمال الأسلحة، تماما كما في المدارس الحربية الرسمية الحقيقية. ثم يقدمون الامتحانات الى لجنة خاصة، ومعظمهم كانوا يحصلون الدرجتين «جيد» و «ممتاز».

وفي المزارع التي كان الأنصار يترددون اليها أخذ الفلاحون يمتنعون عن دفع الضرائب وتقديم الغذاء للألمان. فقد كان الألمان قبلا يحصلون تلك الضرائب بمساعدة الغيداماكيين دون عناء. أما اليوم فقد صار أفراد الشرطة الألمان يستقبلون بالنار اذا ما مروا في تلك المزارع.

وهكذا أخذ الشعب يقاوم بمساعدة الأنصار ذلك «النظام» الرهيب الذي وضعه الفاشيون.

ولم يكن باستطاعة الهتلريين ابادة الأنصار. لقد كنا نعرف متى نهجم ومتى نتجنب المعركة غير الملائمة. فما كنا لنظهر الى حيث توجهت حملة تأديبية وبالعكس نظهر في الاماكن التي لا يشتبه الألمان بوجودنا فيها.

وبناء على هذا كانت تخرج أمثالنا الخاصة بالأنصار: كن حذرا، فالعدو يبحث عنك. كن شجاعا، فالعدو يرهب الشجعان. اظهر فجأة حيث لا ينتظرونك. كن ماكرا حتى تجعل العدو يقتفي الآثار الكاذبة. كلما توغلت في الغابة كلما قل وجود الألمان.

Twitter: @ketab_n

عند عقدة الخطوط الحديدية في سارني وعلى محطة كليسوفو كانت تقف حاميات الهتلريين الضخمة. وكانت مجموعة كاملة من الأنصار بقيادة فكتور فاسيلييفيتش كوتشيتكوف تقوم بالاستطلاع في هاتين المحطتين.

كان فكتور فاسيلييفيتش يتصل بالناس الذين يعرفون هذين المركزين الآهلين بالسكان، وعثر هؤلاء الناس بدورهم على أقرباء لهم ومعارف هناك ممن يمكن الاعتماد عليهم في كل شيء. وسرعان ما ظهر لدى كوتشيتكوف الكثير من المساعدين.

وفي تشرين الأول (اكتوبر) من عام ١٩٤٢ بلغ فكتور فاسيلييفيتش أن انسانا ما عاملا في مركز حراسة ورعاية غابات كليسوفو يريد مقابلته، فوافق فكتور فاسيلييفيتش على ذلك.

– دوفغير قسطنطين ايفيموفيتش، – قال عجوز في الستين من العمر مقدما نفسه.

– ماذا تريد أن تقول؟ – سأله كوتشيتكوف وهو ينظر اليه في ريبة.

– انك تعرف كل ما أريد أن أقوله لك.

– ماذا؟

– وكيف ماذا؟ انني انسان سوفيتي، وعندما علمت بوجود الأنصار هنا قررت أن أكون معكم.

فقاطعه كوتشيتكوف قائلا:

– كلا ،اننا سنستغني عنك، كما يبدو.

ولامر ما قرر كوتشيتكوف ان ذلك الانسان مرسل من قبل رجال الغستابو.

فهم دوفغير الأمر فعلا وجهه شحوب مريع.

– أنت لا تثق في؟ أنت تظن أنني سأخونكم؟ ان لي هنا أسرة كبيرة: زوجتي وأمي وثلاث بنات. فليكن رهنا على أمانتي لكم.

Twitter: @ketab_n

لقد قال كلماته تلك بتصميم واخلاص أكيدين مما جعل كوتشيتكوف يتراجع بعض الشيء عن ظنه.

– لكنك انسان طاعن في السن، فمن الصعب عليك أن تصبح نصيرا!

– بالطبع من الصعب علي أن أحمل السلاح وأمشي الى القتال، ولم أكن جنديا في يوم من الأيام، لكنني ربما أكون ذا فائدة في مجال آخر...

كان دوفغير قسطنطين ايفيموفيتش قد أنهى معهد زراعة الغابات قبل الثورة، وعين رئيسا لمراكز حراسة ورعاية غابات كليسوفو في مقاطعة روفنو. وسكن هذا المكان منذ ذلك التاريخ، وقاسى مع الشعب كله تلك النكبات القاسية التي ألمت بأوكرانيا الغربية. ففي عام ١٩٢٠ كان الرأسماليون قد استولوا بقوة السلاح على هذا القسم من الجمهورية السوفيتية. وبعد مرور تسعة عشر عاما، أي في عام ١٩٣٩ اتحدت أوكرانيا الغربية مع الاتحاد السوفيتي وانضم شعبها الى أسرتنا الأخوية الى الأبد. وما أن بدأت الحرب حتى ظهرت جحافل الفاشيين على هذه الأرض.

وكان قسطنطين ايفيموفيتش دوفغير، باعتباره رئيس مراكز حماية ورعاية الغابات، يعرف مواقع الأنصار السوفييت في تلك الغابات، فعجل في الاتصال بنا، لكننا لم نقدر على أن نسلمه مهمة ما قبل التأكد من صدق نواياه. وسرعان ما جد حادث أكد لنا أن قسطنطين ايفيموفيتش مواطن سوفيتي بحق.

فذات مرة، كان رجال حملات التأديب الذين جاؤوا لمكافحة الأنصار قد دعوا اليهم دوفغير من جملة ما دعوا من مأموري زراعة الغابات.

– لم نر أثراً للأنصار عندنا – كان يجيب على كل الاسئلة – لكنني أعتقد أنهم يوجدون في المربع العشرين.

لقد كان دوفغير بالاتفاق معنا يدلهم على الأماكن التي لم يعد لنا وجود بها. وكان رجال الحملة التأديبية يضيعون أوقاتهم سدى في تفلية تلك الغابات المستنقعية الكثيفة

Twitter: @ketab_n

فلا يعثرون الا على الأكواخ المهجورة نصف المهدمة ورماد مواقد النيران.

وسرعان ما نفذ قسطنطين ايفيموفيتش دوفغير المهمات الأولى التي أوكلها اليهه كوتشيتكوف. لقد حدثنا كثيرا من الأشياء الجديرة بالاهتمام عن المحتلين، وحصل على معلومات قيمة حول مدينة روفنو. فعرفنا على مواقع المؤسسات المركزية للهتلريين: مفوضية الرايخ والغستابو، وعلى موقع القصر الذي يسكنه مفوض الرايخ في أوكرانيا وجلاد شعبها ايريخ كوخ.

ثم وفد كثيرا وهو يحمل المهمات الى كوفيل وسارني وراكيتنويه وروفنو. كان انسانا ذكيا فطنا، يتوصل الى معرفة أشياء تستعصى على الآخرين.

ولم يكن الاتصال مباشرة بقسطنطين ايفيموفيتش مريحا بالنسبة لكوتشيتكوف. لذلك عرفه قسطنطين ايفيموفيتش على ابنته الكبرى فاليا. كانت فاليا في السابعة عشرة من العمر لكنها كانت تبدو أصغر من سنها: قصيرة، نحيلة القوام، ذات عينين قاتمتين واسعتين. كانت فاليا تعمل محاسبة في المطحنة في قرية فيري. فشرعت تقوم بدور الساعية بين أبيها وكوتشيتكوف في البدء. لكنها سرعان ما استقلت بعمل خاص بها، فصارت تتردد كثيرا على كليسوفو وسارني حيث تستقصي من معارفها وصديقاتها عما يهمنا من الأنباء.

كانت عند الألمان في قرية فيري التابعة لناحية كليسوفو ورشة ميكانيكية للتصليح، حيث كانت تصلح القاطرات والجرارات والسيارات. وكانت هناك أيضا محطة لتوليد الكهرباء امتد اليها فرع لسكة حديد كليسوفو.

لقد أبلغت فاليا فكتور فاسيلييفيتش أن الألمان يعزمون على نقل جميع معداتها الى منطقة ما في اتجاه الغرب. فاقترح كوتشيتكوف نسف الورشة والجسر الذي تمر فوقه سكة الحديد عند محطة كليسوفو لئلا يتمكن الألمان من تنفيذ خطتهم

وبعد الاستطلاع التفصيلي الذي قام به الأهلون المحليون علم كوتشيتكوف كل شيء عن نظام العمل في ورشة

Twitter: @ketab_n

التصليح وعدد حراسها وتوجه الى هناك بمجموعة تضم عشرين شخصا، وكان من بين افرادها اختصاصيونا بعمليات التفجير: ماليكوف، فادييف وغروس الأسباني.

وبلغوا ذلك المكان في الليل، توزعوا الى ثلاثة أقسام: قسم، كان معه غروس، توجه الى الورشة الميكانيكية؛ والقسم الثاني، ومعه ماليكوف، توجه الى المحطة الكهربائية؛ والقسم الثالث، ومعه كل من كوتشيتكوف وفادييف، توجه الى حظيرة القاطرات. وتمكن كل قسم من تلك الأقسام الثلاثة من أن يقضي دون ضوضاء على رجال الحرس ويزرع الألغام.

ولما أتموا عملياتهم التمهيدية تفجرت الألغام جميعها باشارة من كوتشيتكوف. ودوت الانفجارات المصمة للآذان، وشبت الحرائق في حظيرة القاطرات وورشة التصليح والمحطة الكهربائية. كان يبدو أن كل شيء على ما يرام، لكنه عندما تجمعوا ثانية في المكان المتفق عليه أعلن كوتشيتكوف بنبرة آسفة:

— لم نحسن صنعا. ففي حظيرة القاطرات كان قطاران فقط. أما الثالث ذو الخمسين عربة فقد كان يقف ليس بعيدا عنا على فرع جانبي لسكة الحديد. هل نتركه، أيها الرفاق؟

— لنقم بتفجيره!

— تفجير... أعرف أنه يجب، لكنه بقي لدينا لغم واحد من أجل الجسر...

وجد الأسباني غروس مخرجاً من ذلك المأزق. لقد أوجد طريقة يمكن بواسطتها تفجير القطار والجسر معا بلغم واحد.

وهاكم ما كان: ذهب كل من ماليكوف وفادييف مع مجموعة من الأنصار لوضع اللغم تحت الجسر، بينما توجه الآخرون الى القطار نفسه. وهناك صعد الى القاطرة النصير نيتشيبوروك الذي كان قد عمل مساعدا للسائق من قبل، وأولع النار تحت مراجل القاطرة، وعندما زرع اللغم تحت الجسر كان القطار واقفا تحت سحب من البخار. ثم اعطاه نيتشيبوروك وجميع عرباته السرعة القصوى وقفز منه

Twitter: @ketab_n

بعيدا. أسرع القطار حتى بلغ الجسر الذي نسفه التفجير، وهوت القاطرة منحدرة الى النهر، ومن خلفها أخذت تتهاوى عشرون عربة أخرى.

لقد أثارت عملية التخريب هذه البلبلة في صفوف الفاشيين. وبعد أيام من التفجير وفدت الى ذلك المكان بعثة خاصة قدرت الخسائر بعدة ملايين مارك.

– ايه، والآن ارتاح ضميري! – قال كوتشيتكوف في المعسكر – أما غروس فانسان بارع، ونعم ما ابتدع!

كان الأنصار يحبون كوتشيتكوف، لكنهم كانوا يتندرون به همسا فيما بينهم. فقد كان فكتور فاسيلييفيتش لا يقوى على الكلام بصوت هادىء خفيض، لهذا فقد كانت نبراته الجهورية الحادة معينا للتنكيت الأخوي البري.

وكان الأنصار يسيرون غالبا في الليل، ويسعون جهدهم لئلا تحدث خطاهم صوتاً فيحذرون أن يمسوا غصناً يحدث ضجة ما، وها هو ذا كوتشيتكوف يسمع وسوسة ما:

– اقطعوا الكلام! – يقول لهم بصوت أجش مما يجعل الكلاب تنبح في المزارع المجاورة.

لكنهم صاروا يتندرون عليه خاصة بعد حادثة اخرى. اذ ذهب كوتشيتكوف بمجموعة قوامها خمسة عشر شخصا ليقوم بعملية الاستطلاع. وكان ينبغي عليهم خوض النهر.

فأوعز كوتشيتكوف:

– انزعوا ثيابكم!

حدث هذا ليلا تحت ضوء القمر. نزعوا ثيابهم جميعا وقد قفت شعورهم كالابر من البرد ونزلوا الى المياه. وما أن بلغوا الضفة المقابلة حتى بدأوا جميعا بارتداء ملابسهم.

– دعوا الملابس! – أمرهم كوتشيتكوف – سيروا هكذا، هناك ثمة رافد آخر لهذا النهر وهو غير بعيد عنا، فلماذا تلبسون؟

وساروا عراة. كيلومتر، اثنان، وما من رافد للنهر، آلمهم البرد وأنهكهم البعوض.

– ليس من رافد هناك يا فكتور فاسيلييفيتش.

– أسكت!

Twitter: @ketab_n

وساروا بعيدا وقطعوا خمسة كيلومترات الى أن اقتنع كوتشيتكوف بأن الخارطة التي كان مرسوما عليها ذلك الرافد قد خدعته.

– استراحة، يمكنكم أن تلبسوا! – أعطى ايعازه ببرود وكأن شيئاً ما لم يكن.

وبعد تلك الحادثة صرنا جميعا نضحك من كوتشيتكوف ومن «مسيره العاري»، لكن نكاتنا لم تكن لتؤثر فيه، فقد كان يشاركنا الضحك وكأن الحديث لا يمسه هو وانما انسانا غيره.

وفي نهاية عام ١٩٤٢ اقترح علينا دوفغير الاتصال بانسان يدعى فيداروف.

– سوف يكون ذلك الانسان ذا فائدة، انه مهندس في سكة حديد كوفيل. وقبيل الحرب كان يعمل مديراً لمحطة سارني، وان له كثيرا من المعارف في كل من سارني وكوفيل. وفيداروف هذا عضو في الحزب وباستطاعته أن يكون عاملا موثوقا في القضايا السرية.

– وأين هو الآن؟

– لقد تضايق من الألمان كثيرا ثم توارى عن الأنظار، والآن يعمل مشرفاً على العمل في المطحنة بالقرب من سارني.

كان قسطنطين ايفيموفيتش يحسن اختيار الناس للعمل معنا. وتكونت لدينا ثقة عميقة في أنه لا يخطىء أبدا.

واتصل كوتشيتكوف بفيداروف. وبعد شهر ونصف الشهر من ذلك الاتصال نظم فيداروف على عقدة الخطوط الحديدية في سارني جماعة استطلاعية تخريبية قوية من العمال وسائقي القطارات ومراقبي الخطوط الحديدية والمستخدمين.

وأخذ فيداروف يوافينا بالمعلومات دون انقطاع عن عمل سكك حديد كوفيل – كوروستين، و سارني – روفنو: كم قطار يمر، واتجاه القطارات، ونوع القوات التي تنقلها أية مشحونات واية معدات. ولم نكن نحن لنتوانى في تبليغ تلك المعلومات جميعها الى القيادة.

Twitter: @ketab_n

ثم لم تعد أعمال جماعة فيداروف مقتصرة على الاستطلاع وحسب، وانما بدأت أعمال التخريب ضد الأعداء من تفجير القطارات والجسور. وظل كوتشيتكوف محافظا على صلته مع فيداروف بواسطة دوفغير وابنته فاليا.

«باول زيبرت»

كانت تسير على سكة روفنو – كاستوبول ثلاث عربات، وبالرغم من أن الجياد المشدودة كانت قوية ممتلئة فقد كانت تلك العربات تتحرك بطيئة دون اسراع.

كانت الأولى منها تقل ضابطا ألمانيا وقد جلس بها في استرخاء وكبرياء، ينقل من حواليه نظراته في ازدراء ظاهر. وكان يجلس الى جانبه شخص آخر في بدلة عسكرية كاكية على كمه ربطة بيضاء وعلى طاقيته شارة الأسنان الثلاث. هكذا كان يلبس الخونة المأجورون للهتلريين.

وكانت العربتان الأخريان تغصان بالشرطة ذوي الملابس المختلفة. كان أحدهم يرتدي بنطلونا عسكريا وسترة قروية بسيطة. وكان آخر يلبس بدلة رسمية وعمرة، وكان ثالث يرتدي قميصا خاصا بالجيش الأحمر، وقد نزعت عنه كتافيتاه. كان من الواضح أن ملابسهم جميعها مستولى عليها من الغير. وكانت قد وضعت على أكمامهم جميعا ربطات بيضاء كتبت عليها بالألمانية «الشرطة». وكان الفلاحون الأوكرانيون يسمون تلك الربطات بال «محذرات». وهذه التسمية ذات دلالة واضحة: احذر الانسان الذي يحمل تلك الربطة!

كانت العربة الأولى تقل ضابطا ألمانيا وشرطيا كبيرا، كما يبدو، يجلسان في رزانة وهدوء، أما في العربتين الأخريين فعرابدة يموجون في بركة من الدخان ويتشدقون بالأغنيات.

كان المشهد عاديا بالنسبة لذلك الوقت: ضابط ألماني يقود عصابة الى قرية ما ليفزع سكانها لرفضهم الاطاعة.

كانت الطريق مستقيمة ومكشوفة، تحيط بها المروج

Twitter: @ketab_n

والحقول من الجانبين، وتلوح الغابات أمامها في البعد. وكانت حركة السير عليها نشيطة نوعا ما، فكانت تمر بها سيارة شحن ألمانية أو سيارة ركاب بين الفينة والاخرى بسرعة كبيرة فتخلي العربات لها السبيل متنحية الى جانب الطريق.

وعندما كانت سيارة ما تسبق تلك العربات أو تقابلها من الأمام وجها لوجه يزداد ذلك الضابط هنداماً ويصرخ غاضبا في وجوه افراد الشلة الصاخبين، ويحيي من يقابلهم من الألمان على الطريقة الهتلرية: بأن يفرد ذراعه الأيمن الى الامام والأعلى الى ما فوق الرأس بقليل ويهتف «هايل هتلر!». من الواضح أنه لمن المزعج لذلك الضابط الألماني أن يركب عربة مع شرذمة الرجال من «الجنس الواطيء» بينما يمر بزملائه عن كثب وقد خفت بهم سيارات مريحة.

وتابعت تلك العربات سيرها ثلاث ساعات متواصلة مروعة بسيرها سكان المزارع المجاورة لتلك الطريق.

كان الأهلون يتوارون في البيوت عند ظهورها، ثم يشيعونها بأبصارهم من خلف النوافذ.

ولاحت سيارة ركاب رشيقة كبيرة على الطريق من الأمام. وكانت الطريق هناك تمر عبر الحقول. وشب الضابط واقفا على العربة وتفحص بنظراته كل الجهات، فلم ير احدا عدا تلك السيارة لا من الأمام ولا من الوراء. فعاد الى العربتين الخلفيتين ورفع يده. صمت كل شيء في الحال وتحفز الجميع.

أخذت السيارة تقترب، وقفز من العربة ذلك الشرطي الذي كان يجلس الى جانب الضابط وتقدم بسرعة الى الأمام. وما أن غدت السيارة بالقرب منه حتى قذف اليها رمانة يدوية مضادة للدبابات في رباطة الجأش وكأنما كان يقذفها اثناء التدريب. وانفجرت الرمانة خلف السيارة، لكن موجة الانفجار الصادمة دفعتها بقوة فانقلبت سيارة «اوبيل اميرال» اللامعة في الحال في الخندق المحاذي للطريق.

وخفوا جميعا بأسلحتهم في وضع الاستعداد من العربات واندفعوا الى السيارة المقلوبة التي وقف الى جانبها ضابط ألماني.

Twitter: @ketab_n

– أحسنت يا بريخودكو! – قال الضابط بلغة روسية صحيحة لذلك الانسان الذي قذف الرمانة – لقد جاء حسابك مضبوطا: قلبت السيارة وأبقيت الركاب، على ما يبدو، في عداد الاحياء. هيا نخرجهم!

وانتشلوا من داخل السيارة هتلريين يرتعدان. فقال لهم الضابط بالألمانية:

– أرجوكم ألا تضطربوا أيها السادة. أنا الملازم في الجيش الألماني باول زيبرت. مع من أتشرف بالحديث؟

فتقدم ألماني أشقر ممتلىء متوسط في السن، أصلح هندامه وأجاب:

– انا الرائد الكونت ها آن في الجيش الألماني رئيس قسم مفوضية الرايخ. ومعي – اشار الى الثاني – المستشار الامبراطوري في شؤون المواصلات رايس القادم من برلين.

– لنا الشرف، لنا الشرف! – قال الضابط – لقد تحملت سيارتك النكبة، أرجوكم ان تستقلوا العربة.

– أوضحوا لي ماذا في الأمر؟ – قال الكونت عابسا – انني لا أفهم شيئا!

وعزم هاآن على السؤال مرة أخرى، لكن الضابط هز رأسه مشيراً لرجاله فخف هؤلاء وقيدوا أيدي الضابطين الهتلريين وحملوهما على العربات.

وعند أول منعطف خرجت العربات عن الطريق لتصبح بعد مدة قليلة في «منارة» الأنصار. عندئذ نزع الضابط الألماني ملابسه وارتدى بدلته الحقيقية فبدا كما هو في الواقع: النصير نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف.

أنه كوزنيتسوف نفسه الذي هبط الينا بمظلته عند مزرعة زلوي، والذي كنت أنتظره آنذاك بفارغ الصبر.

كان نيقولاي ايفانوفيتش من أصل أورالي، ينعكس عقله الرزين وارادته الصلبة في تقاسيم وجهه الصارمة القاسية وعلى الأخص في عينيه الرماديتين بلون الفولاذ.

كان انسانا طويل القامة ممشوقا شجاعا وقويا. وسرعان ما أصبح أروع نصير مستطلع عندنا في الكتيبة.

كان كوزنيتسوف يجيد اللغة الألمانية. تعلمها عندما

Twitter: @ketab_n

كان لا يزال صبيا صغيرا، فقد كان المستوطنون الألمان يعيشون الى جوار قريته التي نشأ فيها. ونتيجة لاختلاطه بهم تعلم لغتهم وتعرف على حياتهم وخصائص الألمان المميزة. ثم تابع دراسته للغة الألمانية في المدرسة ثم في المعهد. ومن حيث اختصاصه المدني كان نيقولاي ايفانوفيتش مهندسا.

وكان كوزنيتسوف، كما اتضح لأفراد الكتيبة لغويا أصيلا. فهو، مثلا، لم يكن يعرف اطلاقاً اللغة الأوكرانية من قبل، لكنه ما أن وطئنا أراضي أوكرانيا وصار كوزنيتسوف يتردد على المزارع حتى صار يتكلم باللغة الأوكرانية ويغني الأغاني الأوكرانية كذلك، وصار الفلاحون يحسبونه أوكرانيا حقيقياً.

وعندما كنا نظهر في الأماكن التي يسكنها بولونيون كان نيقولاي ايفانوفيتش يتكلم معهم بالبولونية. وليست العبرة في هذا وحسب؛ فقد كان بامكان كوزنيتسوف التكلم بالروسية والأوكرانية والبولونية كما يتكلمها الأجنبي الجاهل بها، فيزعم أنه ألماني عندما يتكلم بالروسية، أو أنه روسي عندما يتكلم بالبولونية وهكذا دواليك. وبكلمة موجزة فان نيقولاي ايفانوفيتش كان في ذلك ممثلا بارعاً لايبارى.

لقد أعرب لنا كوزنيتسوف، عندما كنا لا نزال في موسكو، عن رغبته في الدخول بين الألمان أنفسهم للحصول على المعلومات اللازمة. ووافقناه على هذا بشرط أن يتعرف جيدا على نظم الجيش الهتلري، وأن يدرس احدى المناطق في ألمانيا ليسهل عليه الزعم فيما بعد أنه من سكان تلك المنطقة.

وقرر كوزنيتسوف أن يصبح بروسيا حقيقيا، فقرأ كثيرا من الكتب عن بروسيا الشرقية، عن اقتصادها وطبيعتها وسكانها. واستطاع أن يتصور مدينة كينيغسبرغ كما لو أنه بالفعل ولد فيها وعاش. ثم صرنا نقدم له الأسرى لا ليستجوبهم وحسب، وانما ليتعرف عن طريقهم على نظم الجيش الألماني الفاشي.

Twitter: @ketab_n

لكن الأسرى الذين كانوا قد وقعوا في أيدينا لم يعجبوا كوزنيتسوف:

– انهم أغبياء، مجرد دمى اصطناعية! يمكنهم أن يطقطقوا بأرجلهم وحسب. فأي حديث يمكن أن يكون لي معهم عندما هم لا يفقهون شيئا غير «هايل هتلر!»

– ومن أين لنا أن نأتيك ببروفيسور؟ – قلت لنيقولاي ايفانوفيتش مبتسما.

– انني سوف أحصل بنفسي على «ألسنة» حقيقية. اذنوا لي بذلك وحسب.

– كما تشاء!

وعند ذاك تمخض تفكير نيقولاي ايفانوفيتش عن خطة تلك العملية التي تحدثت عنها آنفاً. لقد كانت عملية فريدة من نوعها. فالكتب العسكرية تشير الى أن التربص العادي يتم هكذا: يختبىء المقاتلون في كمائن معينة وينتظرون ظهور العدو لينقضوا عليه. هيم، ولكن اذا كان لديكم طريق مكشوف تحيط به الحقول الخالية من كل جانب فأين يمكنكم نصب الكمائن؟ لهذا بالذات قرر نيقولاي ايفانوفيتش احداث «الكمين المتحرك»، كما دعاه هو نفسه، على العربات.

ولئلا يكون باعثاً على الشك فقد ارتدى بدلة ضابط ألماني وجعل أنصاره الباقين في هيئة الشرطة.

ولم يكن كوزنيتسوف قد قام عبثاً باختيار سيارة «اوبيل اميرال» الرائعة. فقد كان قنصه في تلك السيارة سميناً بالفعل، و «السنة ثمينة» حقا.

لقد ظهر كوزنيتسوف في المعسكر امام الأسيرين فى لباس ملازم ألماني. انحنى امام الاسيرين محافظة منه على تقاليد الجيش الألماني.

– اجلس، – اقترح الرائد هاآن للملازم المهندم عابسا وهو يشير الى أرومة شجرة مقطوعة. فلم يكن ثمة مكان آخر للجلوس في الخيمة.

– كيف أحوالكما؟ – سألهما نيقولاي ايفانوفيتش متوددا.

ولم يكونا بمزاجين حسنين على أية حال.

Twitter: @ketab_n

– قل لنا أين نحن وماذا يعني كل هذا؟
– انتما في معسكر للأنصار الروس.
– ولكن لم وجودك في معسكر أعدائنا وأنت الضابط الألماني؟
– لقد توصلت الى نتيجة تقول بأن هتلر يقود ألمانيا الى الهلاك وسوف يخسر الحرب لا محالة، والتحقت بالروس طوعا. وانني أنصحكما أيضا بأن تكونا صريحين مع ضميريكما.

لم يحجم الألمانيان طويلا، وأجرى كوزنيتسوف معهما أحاديث طويلة وكثيرة. لقد كانا محنكين فعلا واستطاع نيقولاي ايفانوفيتش حقا أن يجرب معهما معلوماته باللغة الألمانية. وبالمناسبة فقد ظهر أن الكونت هاآن من كينيغسبرغ «مدينة كوزنيتسوف».

ولدى التفتيش عثروا عند رايس المستشار الامبراطوري للمواصلات على خارطة لطرق المواصلات في كل أوكرانيا المحتلة، المعبدة منها وغير المعبدة والحديدية. وكانت الخارطة مذيلة بشروح مفصلة. فعندما درس كوزنيتسوف الخارطة وشروحها كشف سرا خطيراً للألمان. لقد كانت فيها معلومات عن خط الكبل المصفح الذي يمر تحت الأرض ويصل برلين بمقر القيادة العليا لهتلر في الشرق والواقع على مقربة من مدينة فينيتسا.

وقرر كوزنيتسوف أن يتعرف على كل شيء بالتفصيل. فسأل هاآن:
– متى تم تمديد هذا الكبل تحت الأرض؟
– منذ شهر خلا.
– ومن الذي قام بذلك؟
أسرى الحرب من الروس.
– وكيف وثقتم بالروس لتطلعوهم على سر وجود مقر القيادة العليا لهتلر؟
– لقد تخلصنا منهم.
– وماذا تعني بقولك؟ هل أبدتموهم؟
صمت كل من هاآن ورايس.

Twitter: @ketab_n

– وكم كان عدد العاملين من الأسرى؟
– اثنا عشر ألفاً.
– اثنا عشر ألفا كلهم...
– انه الغستابو. – حاول هاآن التملص.

ثم استقصى كوزنيتسوف من الأسيرين عن كل ما لزمت معرفته. وفي نفس الوقت قد تفحص نفسه جيدا: فلم يترك لديهما أي شك في كونه ألمانيا.

ثم أعدمنا كلا من هاآن ورايس شنقا، فما كانا يستحقان شيئا سواه.

وصار بالامكان ارسال كوزنيتسوف الى روفنو مباشرة للاستطلاع. لكن شيئاً واحداً كان يقلقني، وهو أن نيقولاي ايفانوفيتش كان أحيانا يتكلم بالروسية في المنام. فكان هذا يكفي لأن يفضح أمره.

واضطررت لأن أقول ذلك لكوزنيتسوف، ونصحته بأن يقلل من التكلم باللغة الروسية.

– اذهب ان شئت الى تسيسارسكي، وتحدث معه... بالألمانية، وفكر بالألمانية أيضا...

وسعى كوزنيتسوف جهده للاسراع، كما قال نفسه، في العمل الحقيقي. لقد كان يحمل بين جوانحه كرهاً عظيماً للهتلريين بالرغم من أن كلامه كان قليلا في هذا المضمار. فقد كان بطبيعته يحسن ضبط عواطفه ومنطويا على نفسه بعض الشيء. لكن قلبه الطيب الكبير كان ينعكس في كل شيء.

كنت في احدى المرات أتنزه واياه حول المعسكر. كان الطقس بارداً، وسقط الثلج آنذاك لأول مرة؛ وفجأة لمحنا كائناً ما حياً بين الشجيرات. اقتربنا منه فاذا به صبي صغير في السابعة من العمر، لكن في أية هيئة كان! كان رهيبا أن تنظر اليه.

لم يبق من قميصه وبنطلونه الا خصل معلقة تكشف كل جسمه الهزيل: بأضلاعه البارزة المقوسة تحت جلده الازرق، وساقيه الهزيلتين، وشعره الذي كان يموج لخفق القمل فيه. وكان جرح متقيح في احدى ساقيه.

Twitter: @ketab_n

نظر الينا الصبي بعينين عكرتين تكاد تنطفىء فيهما شعل الحياة، وهو يقشعر من الخوف قليلا.

ونظرت الى نيقولاي ايفانوفيتش فوجدته واقفا في شحوب الأموات. نزع سترته المبطنة بالقطن دون أن ينبس بكلمة، لف بها ذلك الصبي وحمله بين ذراعيه برفق عائدا به الى المعسكر بخطى مسرعة.

كان اسم ذلك الصبي، كما علمنا فيما بعد، بينيا. وأية معجزة أبقته حيا بعد عمليات الابادة التي أخضع الفاشيون لها كل اليهود.

لقد وضعنا بينيا في خيمة الاسعاف، وصار نيقولاي ايفانوفيتش يأتي اليه بجيوب مليئة بالهدايا كلما عاد من الاستطلاع.

– عندما تصح سوف نرسلك الى موسكو. – هكذا كان يعده نيقولاي ايفانوفيتش.

الخنجر الفضي

عند قرية فورونوفكا، وعلى بعد قليل من المعسكر عثرنا على مرج ملائم لاستقبال الطائرات. كان الحقل كبيرا، لكن المكان المستوي حيث بامكان الطائرة ان تهبط وتدرج عليه كان محدودا جدا. وهذا كان يتطلب دقة كبيرة ومهارة من الطيارين للافلاح في عملية الهبوط.

أخذنا وعدا من موسكو بارسال الذخيرة الينا. وكان ينبغي علينا أن نرسل الجرحى وكل ما حصلنا عليه من الوثائق الخطيرة الى هناك. وأبلغنا موسكو عن احداثيات الساحة المعدة للاستقبال، وتلقينا الرد بأن طائرة ستقدم الينا.

كان كوتشيتكوف اختصاصيا عندنا بشؤون المطارات. فوضع تخطيطا للنيران حسب القواعد المتبعة في المطار: بعض النيران كانت تحدد الحقل، ورسم ببعضها الآخر حرف « T » ليشير الى اتجاه ومكان الهبوط. وكانت مخافرنا

Twitter: @ketab_n

السرية موزعة على مدى ثلاثة – خمسة كيلومترات على الطرق المؤدية الى المطار.

مرت ميلتان، كنا عبثا ننتظر؛ وفي الليلة الثالثة فقط أقبلت الطائرة. لكن خطراً ما داهمنا، لقد طلع علينا ضباب كثيف من ناحية الساقية الصغيرة قبيل ظهور الطائرة بساعة واحدة. ظل ذلك الضباب ينخفض ويغشي الأرض حتى حجب الحقل عن الأنظار. وما العمل؟ وكيف لنا بعد ذلك أن نستقبل الطائرة؟ ثم اننا لم نتمكن من انذار الطيار بخطر الهبوط لأننا لم نكن قد هيأنا الاشارات لذلك. قلت:

– فكتور فاسيلييفيتش، أشعلوا نيراناً قوية، فلربما نطرد بها هذا الضباب.

وتأججت النيران، لكن الضباب مازال يخيم كثيفاً فوق الساحة.

وفي تلك الأثناء بلغ مسامعنا جميعا أزيز المحركات.

– الجو! زد النيران! – أوعز كوتشيتكوف.

وهنا بدا صوته الجهوري ضرورياً وفي محله.

وظهرت الطائرة فوق الساحة يحجبها الضباب. مرت فوقنا وتوغلت جانبا. فقلت لهم:

– لقد عاد بها الطيار لأنه فهم أن الهبوط مستحيل.

وفجأة تعالت أصوات من جديد تقول:

– انه يطير، ما زال يحوم!

وسمعت أحدهم من ورائي يقول:

– هذا يعني أنه صمم على الهبوط.

واشتد أزيز المحركات، لم نر الطائرة بأعيننا، لكن أزيز محركاتها أكد لنا أنها فوق الساحة. واذا بوميض خاطف ودوي اصطدام مريع.

لقد فهمنا أن الطيار لم ير الحرف « T » وهبط حيث لا يجوز الهبوط، وانطلقنا جميعا الى هناك.

وراء حافة الساحة، وعلى بعد بضعة أمتار من الساقية الصغيرة كانت الطائرة تقف وقد انغرس انفها في الأرض. وقفز الطيارون وقد أشهر كل منهم مسدسه. فما أن تميزونا حتى أخفوا مسدساتهم وجلسوا على الأرض كئيبين الى

Twitter: @ketab_n

جانب الطائرة المحطمة. اقتربت من قائد الطائرة وحييته، كان جبينه مضرجاً بالدماء.

– هل جرحت؟

– شيء تافه، مجرد خمش، أما هذه، – وأشار الى الطائرة، – فقد أصيبت بجرح بالغ.

ثم اشترك ميكانيكينا ريفاس مع الطيارين في تفحص الطائرة واكد أنه لا حيلة لهم معها: فقد أصيبت عجلاتها بالعطب، وتحطم الجناحان وخزانات البنزين. فكان ينبغي استبدال أقسامها، لا ترميم تلك الاقسام.

ومهما كان من أسفنا عليها فقد اتخذنا قراراً ممكناً وحيداً باحراق الطائرة. فلا يجوز بأية حال من الأحوال أن نتركها غنيمة للأعداء.

وسرعان ما أفرغها الأنصار من حمولتها، ثم فصلوا عنها كل المدافع الرشاشة وكل ما أمكن فكه وفصله. ثم وضعوا القش تحت جناحيها وخزانات البنزين، صبوا عليها بنزينا واولعوا به النار.

والتهمت النيران الطائرة، وانفجرت خزانات البنزين، وتصاعدت سحب الدخان الى السماء ونحن كلنا وقفنا جانبا فودعناها صامتين وكأنما كنا نودع انساناً قدم الينا من الوطن. لقد شعرنا، نحن وطياروها، بالذنب الى حد ما، ولكن أي ذنب كان لنا في الأمر؟ يا للضباب اللعين!

لقد حدث هذا في أيام الدفاع البطولي لمدينة ستالينغراد. وفي تلك الأيام الحاسمة، عندما كانت بلادنا تستنفر كل قواها للنضال ضد الجحافل الفاشية لم ينس الوطن أمرنا، امر كتيبة الأنصار السوفييت الذين يقاتلون في غابات سارني النائية...

وفي اليوم التالي عقدنا اجتماعاً لأنصار كتيبتنا. فآلينا على أنفسنا أن نعوض طائرتنا المحترقة بعشرة من طائرات الأعداء، وأن نبعث بكل الغنائم القيمة الى موسكو لصنع طائرات جديدة. لقد أيدنا، ونحن في مؤخرة العدو، المبادرة الوطنية للعمال والكولخوزيين والمثقفين السوفييت الذين جندوا كل امكانياتهم لصنع السلاح لجيشنا.

Twitter: @ketab_n

وبدأنا البحث من جديد عن ساحة أخرى تفضل على الأولى لاستقبال الطائرات. فالتقينا بالناس الذين أرشدونا الى مكان يصلح لهبوط الطائرات، وقدموا خدمات جلى لكتيبتنا.

وقبيل مصرع طائرتنا، وعلى بعد عشرين كيلومترا من معسكرنا هجمت جماعة ما من الناس على قافلة ألمانية محملة بمنتوجات الألبان. فأجهزوا على الهتلريين وغنموا البضاعة ووزعوها على الفلاحين. عندما حدثوني عن ذلك، ظننت أن «هؤلاء، فيما يبدو، بعض مستطلعينا». وسألت جميع الرفاق، لكن أحداً لم يعرف شيئا عن ذلك الأمر. وبعد أيام قليلة بلغني نبأ جديد: أوقفت جماعة سيارة ألمانية كانت تقل قائد درك الناحية وجنديين ألمانيين كانوا يسوقون خمسة من الكولخوزيين المعتقلين، فأطلقت الرصاص على الألمان وحررت الكولخوزيين. لقد حكى أولئك الكولخوزيون أنفسهم تلك الحادثة لأنصارنا.

– وما هي أوصاف أولئك؟ – سأل أنصارنا الكولخوزيين.

– انهم شبيهون بكم، من الصعب أن نتذكرهم بالضبط، لقد أنساناهم الرعب اشكالهم.

فأمرت المستطلعين أن يستطلعوا عند الأهالي ان كان ثمة هناك أنصار غيرنا في ذلك المكان. ومر أسبوع، ثم آخر، دون أن نعلم شيئاً جديداً.

ثم توجه نابوليون سركيسيان الشاب الأرمني المرح بثلاثة من الأنصار للبحث عن ساحة لاستقبال الطائرات.

اقتربوا من قرية غريبة، فتوقف سركيسيان مع رفاقه عند تخوم الغابة، تفصلهم عن القرية مسافة ثلاث مائة متر:

– انتظروني هنا، وسأذهب لوحدي.

ولم يطل بسركيسيان التفكير حتى «تموه»: لبس طاقيته بحيث جعل النجمة فيها من الخلف، وسلم رشيشه الى رفيقه.

وعند أول بيت رأى رجلا. ولاحظ كيف أن ذلك الرجل أعطى اشارة ما باتجاه النافذة، فخرج من البيت رجل آخر، وتأكد سركيسيان أنه ثمة كمين هناك. فاستدار وجرى

Twitter: @ketab_n

عائداً الى الوراء. لكن ذينك الغريبين كانا في أثره. وكان الرفاق الذين يراقبونه من الغابة قد رأوا كل ذلك، فانبطحوا استعدادا لفتح النار، وليغطوا انسحاب رفيقهم سركيسيان الأعزل من السلاح. لكنهم سمعوا في تلك اللحظات صوتاً مسالماً لأحد الغريبين اللذين يلاحقان سركيسيان:

– اي ،أيها الشاب، انتظر، لنا حديث معك!

فأسرع سركيسيان الى رفاقه، تناول رشيشه وتصدى للعدو وجهاً لوجه.

– قف! والا أطلقنا النار! – صاح بهما.

لكن ذينك تابعا سيرهما للقائه مطمئنين. فتقدم أحدهما وهو شاب قوي البنية، أزرق العينين، من سركيسيان وقال:

– ضع طاقيتك على رأسك كما يجب. لقد اطمأن قلبي عندما لمحت النجمة عليها. فطالما أن هناك نجمة مثبتة على الطاقية، يعني هذا أن كل شيء على ما يرام، الاصدقاء.

– ايه، وماذا بعد! – سأله سركيسيان بحدة.

– يعني الاصدقاء. أنا نيقولاي ستروتينسكي. بلغوا آمركم أنني أريد مقابلته. ان عندي جماعة غير كبيرة، فنحن هنا كذلك من الأنصار.

وصار الحديث وديا حالا، ثم اتفق الطرفان على لقاء جديد، وقدم ستروتينسكي خنجراً فضياً كان قد غنمه الى سركيسيان كعربون للصداقة، وكان يحمل امثال ذلك الخنجر مدراء النواحي الألمان.

وعندما عاد سركيسيان الى المعسكر حدثني عن ذلك اللقاء دون أن يقص علي كيف ترك سلاحه عند الرفاق وكيف أنه جرى عائداً اليهم. ثم انه لم يقل شيئا قط عن الهدية.

وفي اليوم التالي لذلك الحديث صدر العدد الدوري لجريدتنا «نحن سننتصر» يتضمن صورة كاريكاتورية لسركيسيان في طاقيته المقلوبة الى الوراء يمشي مزهواً بنفسه ويداه في جيبيه، ومن خلفه يقف نصير بيده الرشيش وقد أخذته الدهشة.

لكن سركيسيان لم يكن آنذاك في المعسكر، ولم تسنح

Twitter: @ketab_n

لي الفرصة للاستفسار منه. لقد أرسلته ليحضر الي نيقولاي ستروتينسكي.

وسرعان ما حضر سركيسيان. فسألته:

– هل جئت به؟

– أجل، أيها الرفيق قائد الكتيبة.

– أرايت هذه الصورة؟ – وأريته الكاريكاتور.

شحب وجه الشاب.

– هذا صحيح؟

– صحيح.

– وكيف سمحت لنفسك بذلك؟ كيف استطعت أن تسلم سلاحك لغيرك؟

– مذنب، أيها الرفيق قائد الكتيبة.

– إياك أن تعود الى مثلها! هيا بنا.

وذهبنا سوية الى أولئك الذين جاء بهم سركيسيان.

كان ثمة تسعة أشخاص يقفون عند آخر خيمة في المعسكر. وكانوا مسلحين بالبنادق الاوتوماتيكية «س. ف.» وبالبنادق القصيرة الألمانية والمسدسات. وكانت تتدلى من جيوبهم الرمانات الألمانية الشبيهة «بالهاون» الذي تستعمله ربات البيوت في هرس البطاطا المسلوقة. وكان هناك رشاش جاؤوا به كذلك.

– من أكبركم؟ – سألتهم وأنا أنظر الى انسان متوسط في العمر ذي شاربين وقد حسبته أكبرهم، لكن ظني كان خاطئا، فقد تقدم من بينهم انسان شاب تماما:

– نيقولاي ستروتينسكي – قال لي معرفا بنفسه.

– انني أسمع ما تريد أن تقوله.

– نحن نريد أن نلتحق بكتيبتكم.

– ومن أولئك الـ «نحن؟»

– نكاد جميعا نكون أقارب. هذا أبي – وأشار نيقولاي ستروتينسكي الى الرجل المتوسط في العمر ذي الشاربين – وهؤلاء اخوتي الاصغر مني: جورج وروستيسلاف وفلاديمير؛ وهذان الاثنان كولخوزيان في قريتنا، وأما هؤلاء الباقون فقد هربوا من معسكر روفنو، وهذا كل شيء.

Twitter: @ketab_n

كنت أصغي الى ستروتينسكي وأنا أنقل ناظري ما بين أبيه واخوته. كانوا يقفون أمامي متدرجين في أطوالهم، الأب وأولاده الأربعة. ولم يكن فارق السن بين الأولاد كبيراً، عام واحد أو عام ونصف، كانوا كلهم أصحاء أقوياء وقريبي الشبه بعضهم للبعض. كانت تقاطيع وجه الأب ستروتينسكي جميلة صحيحة، وكان ذا عينين زرقاوين وقوام قوي ربع متماسك. واتسم بهذه التقاطيع جميع أبنائه.

وحدثني نيقولاي ستروتينسكي عن أن أحد عشر رجلا من جماعتهم توجهوا منذ زمن غير بعيد الى خط الجبهة ليلتحقوا بالجيش الأحمر.

وكان يتكلم في هدوء واتئاد، يفكر في كل كلمة يقولها، بينما كان أبوه ينظر اليه وشفتاه ترددان كل ما يقوله، لكن بهينمة خفية.

– أي أنه كان عندك فصيلة كاملة من الأنصار، وأنت القائد.

– هيم، وأي أنصار نحن! هكذا دعانا الألمان.

– لكن، وعلى أية حال، ماذا عملتم حتى الآن؟

– وماذا أمكننا أن نعمل! اننا قلة.

– وكيف علمتم بوجودنا؟

– وكيف هذا! الجميع هنا يتحدثون عنكم. ونحن بحثنا عنكم طويلا، وقد كنا هناك حيث احترقت طائرتكم.

وعندئذ قال لنا ان عند قرية لينتشين مرعى للمواشي مستو وكبير يمكن للطائرات أن تهبط به بكل يسر.

تداولت الأمر مع معاوني السياسي ستيخوف ومع رئيس الاستطلاع لوكين، وقررنا جميعا ضم جماعة ستروتينكسي بأكملها الى كتيبتنا.

وبعد أيام قليلة رأيت خنجراً فضيا لدى سركيسيان.

– من أين لك هذه؟

– انها هدية أيها الرفيق القائد.

– ممن؟

– من ستروتينسكي نفسه.

– قف! – ودعوت نيقولاي ستروتينسكي الي.

Twitter: @ketab_n

– أيها الرفيق ستروتينسكي، من أين لك مثل هذا الخنجر الفضي؟

– لقد أنقذنا بعض الكولخوزيين المعتقلين وكان هناك قائد درك الناحية، فأخذته منه.

– هاه، اذن أنتم أولئك؟ لقد حل اللغز! وأنتم الذين استوليتم على القافلة؟

– أجل، نحن.

ثم تعرفنا بالتفصيل على التاريخ الرائع لأسرة ستروتينسكي، أسرة الأنصار السوفييت.

اسرة من الانصار

كان فلاديمير ستيبانوفيتش ستروتينسكي قد قضى حياته كلها تقريبا يعمل بناء في ناحية ليودويبولسك. ولد له تسعة أطفال، فرباهم مع زوجته مارفا ايلينيتشنا. وعندما اتحدت أوكرانيا الغربية مع أوكرانيا السوفيتية عاشت تلك الأسرة مليئة بالحيوية والرخاء، واصبح فلاديمير ستيبانوفيتش يعمل معاوناً لمدير مركز حماية وحراسة الغابات.

وقبيل الحرب كان أولاده الكبار يعملون: نيقولاي – سائق سيارة في روفنو ،وجورج – كان تلميذا في الخراطة في مصنع السفن بكيرتش، أما روستيسلاف وفلاديمير فقد كانا يساعدان أباهما في الأعمال المنزلية. وأما الأولاد الباقون فقد كانوا لا يزالون صغاراً.

وبدأت الحرب، واحتل الألمان تلك البقعة الحبيبة. ومنذ الأيام الاولى للاحتلال ألقى الألمان القبض على الابنين: نيقولاي وروستيسلاف، وعزموا على ارسالهما الى ألمانيا، لكنهما تمكنا من الفرار من المعتقل الىالغابات. وسرعان ما لحق بهما أخوهما الثالث جورج الذي تمكن بدوره من الوصول الى الأماكن الحبيبة الى نفسه.

لقد نزع جورج رشاشا من دبابة المانية محطمة وهيأه للرمي يدوياً. فكان ذلك الرشاش سلاحاً وحيداً في أيدي

Twitter: @ketab_n

أولئك الأشقاء الثلاثة في البدء. وكان نيقولاي أول من استهل بالحساب: لقد قتل دركياً ألمانياً، ثم غنم سلاحه لنفسه.

وهكذا بدأ أولئك الاخوة الثلاثة حرب الأنصار، ولم يمض زمن طويل حتى التحق الأب نفسه بتلك الفصيلة تحت قيادة ابنه.

وتضاعف بعد ذلك عدد الأنصار في أسرة ستروتينسكي. لقد أخذ السكان المحليون ينضمون اليهم واحداً تلو الآخر – من الكولخوزيين، من المحاربين الذين يقابلونهم في الغابات، وقد هربوا من الأسر عند الألمان.

وذاع صيت هؤلاء الاخوة الأنصار على ألسنة الناس في القرى، فاقتحم الفاشيون بيت ستروتينسكي باخبارية من أحد الخونة حيث صادفوا مارفا ستروتينسكايا مع أولادها الأربعة الصغار، فرفسوها بالأرجل وبأعقاب البنادق، وانهالوا على أطفالها ضرباً على مرأى منها لتقر على مكان وجود زوجها وأولادها الباقين. لكنها لم تنبس بكلمة، فقيدوا يديها خلف ظهرها وهددوا: «سنشنقك ان لم تقولي!»

لكنهم لم يشنقوها، بل قرروا تركها مؤقتاً علها توصلهم الى الأولاد.

وتسلل فلاديمير ستيبانوفيتش ليلا الى بيته، وطرق النافذة طرقا خفيفاً، ففتحت مارفا ايلينيتشنا له الباب: لقد كانت تنتظر تلك الطرقات. وقص الابن الصغير فولوديا على أبيه كل شيء.

– اسمعي يا أميمة، – قال فلاديمير ستيبانوفيتش، – تهيئي للرحيل. خذي الاطفال الصغار، وهاتي البنية، وهيا بنا. سأوصلك الى بيت انسان أمين في العزبة. اما فولوديا فسآخذه معي.

كان فولوديا في السادسة عشرة من العمر.

وجمعت مارفا ايلينيتشنا حاجياتها الضرورية، أيقظت الأولاد ورحلت الأسرة بكاملها من ذلك البيت. لقد غادروا جميعا تلك الدار الحبيبة الى قلوبهم تحت ستار ليلة صيفية قصيرة دون أن تلحظهم عين لانسان. وبعد يوم من ذلك

Twitter: @ketab_n

الرحيل أحرق الألمان ذلك البيت بعد أن نهبوا ما بقي فيه من أشياء.

لقد كان ظهور آل ستروتينسكي في كتيبتنا لقية عظيمة بالنسبة لنا. فهم يعرفون تلك المنطقة جيدا، ولم الكثير من المعارف والأقرباء في عديد من المدن والقرى. والأهم من هذا كله فقد كانوا يعرفون مدينة روفنو جيداً، وهي تهمنا أكثر من أي شيء آخر.

ولم ينتخب عبثاً نيقولاي ستروتينسكي قائداً لفصيلته الصغيرة. فقد كانت تتوفر فيه الشجاعة والاقدام ورباطة الجأش. وأطلق عليه الأنصار منذ الأيام الأولى اسم «الهادىء».

اننا في بداية الأمر لم نول جورج ستروتينسكي، الذي كان يصغر نيقولاي بعام واحد، اهتماماً خاصاً. وكان هذا مثل أبيه وأخيه الأكبر أشقر، قوي البنية، أزرق العينين، وتميز عنهما بأنه كان أميل منهما الى القصر وربما أكثر هدوءاً وصمتاً من نيقولاي نفسه. كان دائما يمشي الهوينا ويتهادى في مشيته.

لقد قال عنه لوكين «انه جامد».

وهكذا كان يبدو لي كذلك، لكننا سرعان ما غيرنا رأينا بجورج. فبعد عمليات القتال الأولى التي خاضها جورج صار الكل يتحدثون عنه بأنه انسان لا يعرف الخوف.

– ان جورج يفعل برشاشه فعل عامل المنجم بمطرقته، – هكذا قال لي قائد الحضيرة كوليا فاديف.

كان جورج بارعاً بالرمي، ولم يكن في رشاشه خافض للصوت، لذلك كانت طلقاته تثير الذعر. ثم تبين لنا ان جورج كان على معرفة بجميع انواع الأسلحة، فشرع من تلقاء نفسه يعلم الآخرين الرمي الصائب وكيفية فك الرشيشات والرشاشات والبنادق وتنظيفها. وسرعان ما صار جورج عنصراً لابد منه في أكثر عمليات القتال تعقيداً. فكان يعود من المعركة، كما ذهب اليها، هادئاً ليجلس صامتاً ويستمع الى ما يقوله الآخرون.

فلم يترك جورج بهذا لأي منا سببا لتأنيبه، وكنا نثني

Twitter: @ketab_n

عليه في تحفظ. لقد كان يتحدث عنه المحاربون باعجاب، لكنه اذا ما امتدحه أحدهم في حضوره آنذاك كان لا يتضايق وحسب وانما يعاني آلاماً نفسية مبرحة: ينفر الدم بغزارة الى وجنتيه، ولا تتغير تقاسيم وجهه وانما يعلوه الاحمرار ليتلاشى بعد ذلك شيئا فشيئا حتى يتحول الى الشحوب.

وكان روستيسلاف ستروتينسكي في التاسعة عشرة من العمر ومقاتلا جديا، يحب النظام ويقتدي بأخويه الأكبرين في كل شيء.

أما فولوديا ستروتينسكي فقد كان قد دخل عامه السابع عشر. قررنا في بداية الأمر تعيينه في حضيرة التموين لأنه كان ثقيل السمع. لكن فولوديا احتج بشدة وأعلن أنه يريد أن يقاتل. وضاعت محاولاتنا سدى في اقناعه، واضطررنا الى إعطائه السلاح. ثم حاولوا في حضيرة القتال أن يبقوه في المعسكر لأنهم خشوا ألا يسمع الأوامر، ولم يفلحوا في هذا أيضا. فأخذ يقتحم ميدان القتال بصورة جعلتنا نشركه فيما بعد في كل المعارك تقريبا.

كان فولوديا يحب السلاح، يفك في أوقات الفراغ بندقيته القصيرة، ينظفها ويجمعها من جديد. وكان شغوفا كذلك بالحكايات عن المعارك، فكان يبذل مجهودا كبيرا لسماع محدثه حتي تحسب أن عينيه توارتا في وقبيهما تحت الجبين.

وكان الأب ستروتينسكي فلاديمير ستيبانوفيتش في الخامسة والخمسين من العمر، لكنه كان سالماً قويا. وكان الشيب يلاحظ بلأي في شعره الأشقر. لقد عيناه نائباً لرئيس حضيرة التموين والادارة في الكتيبة ولم يكن أحد يجاريه في توفير المواد الغذائية وتأمينها. فقد كان إلمامه باللغتين الاوكرانية والبولونية يمكنه من التفاهم مع الفلاحين. فكان حيثما يظهر ذلك العجوز يهرع اليه الفلاحون بكل طيبة خاطر ويقدمون له البطاطا والخضار والدقيق والبرغل وغيرها من المواد الغذائية.

ففي عملياتنا الحربية في مجال توفير المواد، وأعني في تلك الأثناء عندما كنا نهجم على مستودعات الألمان

Twitter: @ketab_n

وقوافلهم، لم يكن فلاديمير ستيبانوفيتش بأقل شأن منه في الأحيان الأخرى. فقد كان يجيد الرمي بالبندقية ويحتفظ برباطة جأشه في المعركة.

وتلبية لرغبة نيقولاي ستروتينسكي عرج مستطلعونا على العزبة حيث كانت تختبىء مارفا ايلينيتشنا مع أطفالها الصغار، وقاموا بزيارتها.

وعند عودتهم توجه أحدهم الي وقال:

– أيها الرفيق القائد! ان أحد أولئك الصغار سلمني رسالة صغيرة، وطلب مني أن أوصلها اليك.

وقدم الي قطعة من ورق رمادي كتب عليها بقلم الرصاص:

«الى قائد كتيبة الانصار من فاسيلي ستروتينسكي طلب أرجو القائد يخبرني ان كنت أستطيع الانتساب الى كتيبة الانصار وعندما سوف أذهب سوف اشكر القائد جزيل الشكر الى اللقاء فاسيلي ستروتينسكي ٢٦ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٤٦ ان اخوتى من الانصار وأنا أريد».

الأخطاء النحوية أمر سيىء لكن فاسيا كان في العاشرة من المعر. دخل المدرسة لعام واحد قبل مجيىء الالمان . وما أن فكرت بجواب لفاسيا حتى قدم الي نيقولاي ستروتينسكي. فقلت له:

– ها هو أخوك الصغير قد رفع طلبا الي.

ابتسم نيقولاي وقال:

– انه لا يترك لنا سبيلا الى الهدوء من كثرة الحاحه: يطلب أن يكون نصيرا. لكن لي طلب آخر اليك أيها الرفيق القائد. لقد تحدث الرفاق عن أن خطرا ما يهدد حياة العائلة هناك. لقد اشتم الالمان رائحتهم على ما يبدو. اسمح لنا أن نأتي بالأسرة جميعها الينا في المعسكر.

ووافقت. وبعد أيام قلائل قدمت الينا في المعسكر مارفا ايلينيتشنا ستروتينسكايا مع ثلاثة أولاد بالاضافة الى ابنة أخيها يادزيا. وجاء الينا فاسيا الذي كتب الطلب.

Twitter: @ketab_n

وهكذا وجد آل ستروتينسكي كبارا وصغارا أمكنتهم في كتيبتنا.

كان عمر مارفا ايلينيتشنا خمسين عاما ونيف ، لا تريد أن تقعد عن العمل لحظة واحدة وتعقد يديها . كانت تخجل أن تتوجه الي بنفسها فيما تريد. ولذلك فقد بعثت برجلها العجوز الي تطلب أن أكلفها أمرا ما. لكنني ما كنت لأريد ازعاجها: فمن غير هذا كانت ازعاجاتها كثيرة مع أطفالها . عندئذ صارت مارفا ايلينيتشنا ترفو الملابس لأفراد أسرتها ولغيرهم، وتغسل كومات الثياب المتسخة للأنصار. فكانت تعمل ليلا ونهارا دونما توقف. ورأيت أنه ربما يكون من الأسهل عليها أن تعمل طباخة في حضيرة التموين. وقبلت تلك المهمة بارتياح بالغ. لكنها ظلت الى جانب مهمتها الجديدة تغسل وترفو الثياب للأنصار.

أما فاسيا، فبالرغم من حماسه الشديد الى القتال، فقد عيناه أيضا في قسم التموين ليعنى بالخيول. زعل منا في البدء وتورم وجهه بالغيظ، لكنه أخيرا أعجب بجوادي الذي يدعى «ديفيرسانت» وبالخيول الأخرى مما جعله يرضى بقسمته. وعلاوة على هذا، فقد صار يعمل مرافقا عند ابيه دون ان يعينه احد: يسعى من مكان لآخر في المعسكر لتنفيذ المهمات .

وكان الابن الآخر سلافا الذي يبلغ الحادية عشرة من العمر يساعد أباه كذلك. أما قريبته يادزيا فقد عملت طباخة في احدى الوحدات الصغيرة.

ثم عينا كاتيا، بنت ستروتينسكي والبالغة من العمر الخامسة عشرة سنة، في قسم الاسعاف. وسرعان ما حازت اعجاب المرضى والجرحى هناك. وقد كانت كاتيا، على عكس اخوتها، فتاة حيوية كثيرة الحركات بصورة غير معهودة. لم تكن تستطيع القعود وتسرع في كل لحظة الى المرضى:

– ماذا تريد؟ وأنت؟

– ثم تطير بخفة الريح لتلبي لهم ما يريدون ، فتتطاير جديلتا شعرها الأشقر في كل الجهات.

لقد جاءتني احدى المرات، يجب الا أقول «جاءتني» وانما طارت الى كوخي وقد توهجت وجنتاها من السرعة

Twitter: @ketab_n

والاضطراب ، فقالت لي متلعثمة من العجلة وعيناها الزرقاوان الماكرتان تبرقان:

– أيها الرفيق القائد، الجرحى غير راضين عن الطعام بالرغم من أنهم يأكلون الطعام من مطبخ القيادة. فهناك يحضرون طعاما رديئا والصنف واحد على الدوام لا يتغير. ان عندهم أمراضا مختلفة، فهم يشتهون أنواعا خاصة من المآكل. ولهذا... ينبغي أن يكون لهم مطبخ خاص.

– مطبخ خاص؟ – قلت لها مبتسما – ومن أين لنا أن نأتي بطباخ «خاص»؟ من سيحضرلهم؟

– حتى ولو كنت أنا. وماذا؟

– ايه، حسنا!

ثم جعلنا مطبخا خاصا للمستشفي، وعينا كاتيا رئيسة الطبخ هناك، وعينا لها كذلك مساعدين، لقد كانا نصيرين رزينين ملتحيين. أو تستطيع تلك الفتاة يا ترى أن تأمر مثل ذينك العمين! ولهذا فقد كانت تقوم بكل شيء لوحدها. كان يحدث أحيانا أن تمد ساق الخنزير ثم تقطعها بالفأس، تطبخها وتجد الوقت للاعتناء بالمريض، وصار جرحانا يلتهمون بشهية حساء الكرنب الأوكراني ولحم الخنزير المطبوخ، مثنين على كاتيا ستروتينسكايا.

كوليا الصغير

انقطع النصير كازاكوف عن جماعته التي ذهبت الى محطة كليسوفو للاستطلاع. ولم يكن ذا علم ولا خبرة بطريقة الاهتداء، فظل يطوف بالغابة يوما كاملا على غير هدى دون ان يجد طريقه الى المعسكر. كان حيثما اتجه يعود بعد ساعة أو ساعتين الى المكان نفسه.

لقد أمضى الليلة وحيدا في الغابة، حتى أنه لم يتمكن من اشعال النار. وطوف متخبطا طيلة اليوم التالي. وقبيل المساء تناهى الى مسمعه خوار أبقار، فتوجه كازاكوف الى تلك الجهة متجنبا السير على الأغصان اليابسة على الأرض لئلا يحدث صوتا.

Twitter: @ketab_n

وسرعان ما أطل على فسحة في الغابة حيث كانت ترعى الأبقار والجواميس. وكان الصبي الراعي يجلس على أرومة شجرة مقطوعة، ينجر بسكينه عصا في اهتمام بالغ.

تفحص كازاكوف ببصره كل الجهات، وتقدم الى الصبي:

– مرحبا، أيها الصبي!

وانتفض الراعي الهزيل ذو الشعر الأبيض واقفا من الخوف، اتسعت عيناه وحملق في كازاكوف واجما.

– ولماذا فزعت؟ أنت من هنا؟

– من هنا، – أجاب الصبي.

وعندما رأى البندقية تعلو منكب كازاكوف، والمسدس والرمانات تتدلى في وسطه سأله في استحياء: – وأنت نصير، أيها العم؟

– يا لدهاءك!

– انك نصير، أراك بعيني، – قال الراعي الصغير بلهجة الواثق مما يقول.

– وأنت هل رأيت الأنصار؟

– لم أرهم. لكن الناس يتقولون بوجود الكثير منهم عند رودنيا – بوبروفسكايا.

– وفي أي جهة تقع رودنيا – بوبروفسكايا؟ انني، بالمناسبة أقصد الى هناك.

– انني أعرف الطريق اليها. أتريد أن أوصلك؟

– أريد، لكن قل لي ما اسمك؟

– كوليا.

ثم حكى كوليا له كل شيء عن نفسه. انه من كليسوفو، قضى أبوه تحت سياط الفاشيين، وسيقت أمه وأخوه الأكبر الى ألمانيا. كان كوليا يتعلم في المدرسة قبلا، أما الآن فقد أغلقوا أبواب المدرسة. ولكي يسد قوته بطريقة ما صار يعمل راعيا.

– اسمع يا كوليا، – قاطعه كازاكوف – لقد مر علي يومان كاملان دون أن آكل شيئا، عد بالقطيع الى القرية، وأحضر لي شيئا ما منها آكله.

لوح كوليا بسوطه وصفر، ثم ساق أمامه القطيع الذي

Twitter: @ketab_n

كان يسميه «بضاعة». وعند المساء عاد الى كازاكوف بجرة من اللبن وبفطائر وقطعة من الشحم:

– هاك، أيها العم، كل. هذا ما أعطتني اياه صاحبة الدار طعاما للعشاء.

وأخذ كازاكوف يلتهم الطعام بنهم، وتوجه كوليا اليه فورا بالسؤال:

– هل تسمح لي، أيها العم، أن أذهب معك الى الأنصار؟

– لكن القائد سوف يوبخنا يا كوليا! فأنت لا تزال صغيرا.

– ان عمري اثنتا عشرة سنة.

– صغير ،صغير يا عزيزي!

– اذن هيا بنا، أيها العم، نكون لأنفسنا فصيلة. ففي الغابة الكثير من الناس الذين فروا من الألمان.

ابتسم كازاكوف.

– واذا ألقى الألمان القبض علينا وقتلونا، ماذا يكون؟

– لكننا سنختفي عن أنظارهم!

ثم عم الظلام، فقاد كوليا كازاكوف الى حوش بيت، وهناك نام النصير على كومة من التبن نوما أسطوريا بعد أن كان قد قضى ليلتين لم يطبق لعينيه بهما جفن. أما كوليا فقد أخذ يتمشى على مقربة من المكان قائما بحراسته. وعند الفجر أيقظه، ومشى يدله على الطريق.

وعندما أصبح الصباح أطلق الفلاحون سراح مواشيهم لكنه لم يكن للراعي وجود هناك. فتشوا عنه طويلا، وصاحوا به في كل أحواش البيوت، ولم يعثروا له على أثر. فصاروا يتساءلون مندهشين:

– وأين تراه قد اختفى؟

لكن كوليا وكازاكوف كانا قد ابتعدا عن العزبة. لقد كانا في طريقهما الى رودنيا – بوبروفسكايا.

– ألا تريد، أيها العم، أن تصحبني معك، آ؟ ولكن سيان عندي، لن أفارقك... سأتبعك حيثما تسير، وكفى.

وتوقفا على مقربة من قرية كاربيلوفكا. اختبأ كازاكوف

Twitter: @ketab_n

خلف احدى الشجيرات، وتابع كوليا سيره لوحده الى القرية ليأتي بشيء ما يؤكل.

وعاد بعد ساعة بالخبز والشحم، وصار يحدث كازاكوف عما سمعه من الأخبار.

– يقال ان كثيرا من رجال الشرطة موجودون في مركز حماية ورعاية غابات كاربيلوفكا. ينامون في الليل كالجنادل دون أية حراسة. هيا بنا نهجم عليهم، آ؟

من الصعب أن نتصور كيف توصلا الى الاتفاق على هذا الأمر، لكن الحقيقة تظل حقيقة: لقد خضع كازاكوف لكلام كوليا ومشيئته، وقرر: «يا للروعة اذا ما عدت الى الكتيبة ومعي ما معي من الغنائم والأسرى!»

وسلح كازاكوف الصبي برمانة ومسدس. وفي الليل تسللا الى مركز حماية ورعاية الغابات. صادفا عربة الى جانب البيت، وكان الحصان يجرش العلف متكاسلا وقد بقيت العربة مشدودة اليه. فدخل كل من كازاكوف وكوليا ذلك البيت حيث كان أفراد الشرطة نائمين يشخرون على الأرض وفوق الطاولات.

– ارفعوا أيديكم! – هتف بهم كوليا، ورفع الرمانة في يده.

بينما أشهر كازاكوف بندقيته.

انتفض هؤلاء ولم يفهموا شيئا مما يحدث من شدة النعاس، الا أنهم رفعوا أيديهم في استسلام.

– هيا اخرجوا! ضعوا السلاح على العربة! – أمرهم كازاكوف.

وشرعوا جميعا يلبسون أحذيتهم واجمين ويخرجون أسلحتهم من البيت طائعين.

ظل كازاكوف واقفا في الباب، بينما كوليا تقدم الى العربة بالرمانة والمسدس في يديه.

شيء غريب فعلا ومضحك، لكنه هكذا حدث بالضبط: واحد من الأنصار وصبي جردا جماعة كبيرة من رجال الشرطة من أسلحتهم. ولكن هذه الحادثة انتهت بصورة مضحكة على أية حال.

Twitter: @ketab_n

وما أن فرغوا من تكديس الأسلحة على العربة حتى أمر كازاكوف وكوليا أولئك الشرطة بأن ينتظموا في صف واحد، ثم ساقوهم من القرية في اتجاه المعسكر. لقد كانت تفصلهم عن المعسكر مسافه لا تقل عن الاربعين كيلومترا من ذلك المكان، فلما حل المساء كان عليهم أن يتوقفوا في احدى العزب ليرتاحوا من عناء السير. وفي الليل تمكن أفراد الشرطة جميعا من أن يفروا منهما بعد ان أخذوا معهم أسلحتهم كاملة من العربة. انه لشيء مدهش حقا كيف أنهم لم يصفوا حسابهم مع «بطلينا»!

ولم يفترق كوليا عن كازاكوف حتى بلغا المعسكر معا. وقابله الأنصار بتودد ولطف مما جعل عدم ابقائه في الكتيبة مستحيلا.

لقد التقيت بكوليا في اليوم الثاني من قدومه الينا. نظرت، فاذا صبي صغير هزيل أبيض الشعر يجلس مع الأنصار.

— ما اسمك؟

— كوليا. — ونهض الى وقفة الاستعداد كما يفعل الباقون.

— أتريد أن تبقى معنا؟

— أريد.

— وماذا سوف تعمل هنا؟

— كل ما تأمرون.

— لا بأس، — قلت في لهجة الجد — ستكون عندنا راعياً.

— لا... لقد عملت راعيا. أريد أن أقتل الألمان.

— حسنا ، ابق ... لكن يا للمصيبة؛ لقد صار عندنا «نيقولايات» كثيرة، نيقولاي بريخودكو، نيقولاي ستروتينسكي ، نيقولاي غنيديوك ، نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف كلهم نيقولاي. فسنكون مضطرين الى أن ندعوك باسم كوليا الصغير. ألا تعترض؟

لقد عمل كوليا عندنا في البدء في حضيرة التموين، يساعد في رعاية الخيول، ويقشر البطاطا في المطبخ ويأتي

Twitter: @ketab_n

بالحطب. كان يقوم بأعماله في سرعة ورضى. لكنه كان الى جانب ذلك غالبا ما يهتم بشيء آخر: «ومتى سيعطونني بندقية؟»

وصار كوليا يذهب الى قسم التدريب مع الآخرين الأغرار. وقد اجتاز امتحان التدريب على الأسلحة بدرجة «ممتاز». كان مرتبا انضباطيا دائما مستقيما (لقد قدمنا له اللباس طبعا)، وكانت أجوبته لآمره عادة موجزة ومضبوطة كما ينبغي أن تكون أجوبة الجنود. وكان ما يروق لي أحيانا أن أثرثر معه وألاطفه – كان لا يزال صبيا صغيرا– ولكنه يجيب كالجنود.

وما أن عرفناه حق المعرفة حتى قررنا أن نعد منه مستطلعاً وساعياً، وصار الكسندر الكسندروفيتش لوكين يدربه لوحده.

العيد

في مساء السادس من تشرين الثاني عام ١٩٤٢ تجمع الأنصار في مركز المعسكر حول عربة كان قد وضع عليها مكبر للصوت جيىء به وأعد خصيصاً لذلك اليوم.

كانت ليدا شيرستنيفا لا تكف عن الحركة حول جهاز الراديو قلقة لأن الهوائي قصير.

وكان قلق فانيا ستروكوف الذي كان مسؤولا عن تنظيم الاذاعة، لا يقل عن قلق ليدا لكنه أخذ يهدىء من روعها قائلا:

– ايه، ما أنت يا ليدا! يكاد يبلغ طول الهوائي كيلومترا!

وكان ذلك الهوائي موضوع اهتمامنا جميعا طيلة أيام كاملة.

وبدأ المذياع يجعجع، و سمعت أصوات يصعب تمييزها، ثم أخذ فانيا ستروكوف يعالج بشيء ما، وتنفسنا جميعا الصعداء . لقد كانت تذاع حفلة موسيقية من موسكو، وكانت تلك هي المرة الأولى منذ خمسة أشهر خلت نسمع بها اذاعة موسكو. لقد كان لدينا سابقا جهاز للاتصال الرسمي وحسب.

Twitter: @ketab_n

وبدت سيماء المسرة واضحة على وجه كل من اللاسلكيين ليدا شيرستنيفا وفانيا ستروكوف.

لكننا ما كنا نريد سماع تلك الحفلة بالذات، وانما كنا جميعا ننتظر آملين سماع الحفل الخطابي المكرس لذكرى ثورة أكتوبر.

وقد جلس حول طاولة بالقرب من العربة أربعة أنصار وقد استعدوا بأوراقهم وبأقلامهم المبرية جيدا. انهم سوف يسجلون دفعة واحدة: فاذا ما أغفل أحدهم كلمة واحدة تداركها الآخرون.

وقبيل الساعة السادسة مساء أعلن المذيع عما تنتظره البلاد كلها، عما كنا ننتظره بفارغ الصبر نحن الأنصار الذين أحطنا بجهاز الراديو تحت السماء الماطرة في غابات سارني الواجمة الخرساء: سوف ينقل من موسكو الحفل الخطابي بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاما على ثورة أكتوبر العظمى.

وساد الصمت في الغابة، وكل منا يحاول جهده أن يرصد صوت تنفسه.

لقد عرفنا كل ما يدور في أرض الوطن ونحن الذين تفصلنا عن العاصمة مسافة ألف كيلومتر. وعرفنا كل شيء عن الحالة في جبهات الحرب الوطنية.

لقد جمع الألمان في فترة الصيف كل قوى الاحتياط، بعد أن أبعدوا عن موسكو، اخترقوا الجبهة الواقعة في الاتجاه الجنوبي الغربي، وخرجوا الى مناطق فورونيج، ستالينغراد، نوفوروسييسك، بياتيغورسك، موزدوك.

وكنا، كشعبنا كله، لا نشك في أن جيشنا سوف يجهز على العدو في معركة مكشوفة، وسيطارده مرغما اياه على التراجع.

ان ثمة تقليدا عند السوفيتيين، وهو أن يستقبلوا الأعياد بالانتصارات في مجال العمل أو القتال.

فقررنا أن نحيي عيد ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) مثلما يروق لنا نحن الأنصار احياؤه بصورة تجعل الهتلريين يتذكرونه الى الأبد.

Twitter: @ketab_n

لقد كنا قد هيأنا قبل يوم العيد بكثير عمليتي نسف قطارات العدو. وفي ليلة السابع من تشرين الثاني، وبعد أن استمعنا الى التقرير الخطابي، توجهت مجموعتان منا، احداهما بقيادة شاشكوف، والثانية بقيادة ماليكوف لتنفيذ المهمة. وفي ظهر اليوم السابع من تشرين الثاني نفسه عاد شاشكوف وتقدم الينا بتقريره:

– أيها الرفيق القائد! لقد نفذنا المهمة الحربية التي قمنا بها على شرف الذكرى الخامسة والعشرين لثورة أكتوبر العظمى. لقد فجرنا قطاراً للعدو على سكة الحديد وقد كان متوجها الى الشرق بالمعدات والرجال.

وقبيل المساء عاد ماليكوف وأبلغنا أنه قام بنسف قطار للعدو محمل بالمعدات، وكان متوجها الى خط الجبهة، وذلك كهدية من مجموعته لذكرى أكتوبر العظيم.

ثم أجرينا مهرجانا رياضيا في يوم العيد. لقد أجريت مسابقات في احسن التدريب العسكري بين خمس حضائر في فسحة من الغابة تبعد كيلومترا واحدا عن المعسكر. وكانت المسابقات تشمل رماية القنابل اليدوية في المسافة وفي الهدف، وتسلق الأشجار، والعدو عبر الحواجز.

وكان المهرجان يجري في وسط من الصخب. وكان «المشجعون الهواة» أشد الناس حرقة ومعاناة. لقد ظلوا أياما عديدة يتجادلون عمن سوف ينال قصب السبق. وكان أشد أولئك المشجعين حماسة العجوز ستروتينسكي ولوكين وكوتشيتكوف.

كان فلاديمير ستيبانوفيتش ستروتينسكي طورا يقفز في مكانه وطورا يصرخ: «آه، لو أنك!» «يا للرأس الغبية، اخطأت الهدف!» ولوكين يعدو من مكان لآخر ليبث حماسه في المتأخرين. أما كوتشيتكوف فقد كان يقهقه عاليا بصورة تجعلك لا تأمن الوقوف الى جانبه: يمكن لطبلة الاذن أن تتمزق.

وازداد الصخب حدة خاصة عندما بدأت مباريات شد الحبل، أية جماعة تنجح في شد الأخرى اليها؟

– ايه، شدوا!

– لن تفلحوا!

Twitter: @ketab_n

وها هي ذي احدى الجماعتين تضعف أمام الأخرى. ويشد الطرف المنتصر الحبل اليه، فيتساقطون الى الوراء متكومين بعضهم فوق بعض. وينفجر الجميع ضاحكين فتعج الغابة بالضوضاء من جديد.

ثم اختتمنا ذلك اليوم بحفلة قام بها لهواة الفنيون من الأنصار. لقد بدأت بالغناء الجماعي (الكورس): «وداعا يا مدينتي الحبيبة» وكانوا جميعا يعرفون تلك الأغنية. ثم انطلقت بعض الأصوات، وتبعتها جوقتنا الغنائية، ثم غنينا «كاتيوشا». ونهض فلاديمير ستيبانوفيتش ليقود الجوقة بيديه ، وغنى اغنيته «يهدر ويئن الدنيبر العريض» ، ورددد معه الجميع تلك الاغنية وهم يبتسمون في استحسان.

ثم خرج الرقاصون الى الساحة وكان بينهم من اجادوا رقصات «غوباك» و «كومارينسكايا» و «ليزغينكا» «وتشيتشيتكا» وقدموا انواع الرقصات. وتنوعت «فصول» البرنامج دون توقف. ثم تقدم ماتشيريت من النار، وكان قبل الحرب يدرس في كلية الآداب، وقال:

— سأنشدكم بعض أشعار نيقولاي تيخونوف «ثمانية وعشرون من رجال الحرس».

وقبيل نهاية الحفلة نهض نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف ، وكان مزاجه حسنا للغاية ، وبدأ يقرأ دون أن يقدم بشيء:

— «وفي قمم الجبال الشاهقة زحفت حية الى فجها الرطب، واضطجعت متكومة في حدة تنظر الى البحر...

وفجأة هوى الى ذلك الفج، حيث تكومت الحية، صقر من السماء بكلكله المحطم وتخضب ريشه بالدماء...»

كان كوزنيتسوف يقرأ ببساطة وهدوء، لكن كل كلمة يلفظها كانت تشق طريقها لتنفذ مباشرة الى القلب . وشعر الجميع أن كوزنيتسوف يقرأ أحب انتاج اليه.

نظرت الى الأنصار فوجدتهم يجلسون في رزانة واحتفال، ينظرون الى كوزنيتسوف بعيون جديدة غير معهودة.

واستمر كوزنيتسوف دون أن يرفع صوته، لكنه كان يشدد على مقاطع كل كلمة حتى أشرف على النهاية:

Twitter: @ketab_n

– «دع انك ميتا!.. لكنك ستبقى مثالا حيا يرن دائما في أغنية البواسل الأقوياء، ستبقى نداء ابيا الى الحرية والنور!

اننا ننشد الأغنية لطيش الشجعان!..»

لقد تركت في نفوسنا قراءة نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف لمقطوعة غوركي «أغنية عن الصقر» أثاراً عميقة خالدة.

وبعد العيد سرعان ما توفقنا الى استقبال طائرة قدمت الينا من موسكو في الحادي عشر من تشرين الثاني. وكانت الساحة الواقعة بالقرب من لينتشين، والتي أرشدنا اليها كوليا ستروتينسكي جيدة بالفعل. وقد فتشنا في أرضها كل عشب وسوينا كل التلال الصغيرة. ثم اضطررنا الى أن نطيح البرج التثليثي الذي كان يقع على بعد أربعة كيلومترات من الساحة . وفي الحقيقة فقد سر الفلاحون لذلك ، لأن البرج كان مهترئاً عتيقاً ويخشون شر انهياره المفاجيء .

وفي أعتاب تلك الليلة، عندما كنا نستعد لاستقبال الطائرة، وصلت جماعة كبيرة من الهتلريين على السيارات الى قرية ميخالينو التي تبعد مسافة تسعة كيلومترات عن الساحة. فارسلنا جماعة منا تتربص لهم على الطريق. وأصدرنا أمراً صارماً بألا يسمحوا للألمان بالاقتراب من ناحيتنا.

وتلبية لرغبات موسكو كان يجب علينا ان نطلق أسهما نارية حمراء وخضراء بعد كل نصف ساعة كيما تتميز الطائرة مكان الهبوط عن بعد أربعين – خمسين كيلومترا. وقد زاد هذا من خطر هجوم الألمان. لكن كل شيء تم على ما يرام.

وفي الساعة الواحدة ليلا سمعنا أزيز المحرك. سكبنا زيت النفط على النيران فتاججت بلهيب ساطع.

وتم هبوط الطائرة بنجاح تام. ولم تقتصر سعادة النجاح على الأنصار وحدهم، وانما كان سكان القرية لا حد لابتهاجهم عندما حلقت الطائرة فوق سطوح منازلهم وهبطت سابحة في أرض الساحة وقد اضاءت مصابيحها كل ما حولها.

ومكثت الطائرة عندنا أربعين دقيقة فقط. سلمتنا

Twitter: @ketab_n

الهدايا والرسائل. ثم أرسلنا على متنها الى موسكو الجرحى والوثائق والرسائل الى الأقارب، وحملت كذلك كلا من فلوريجاكس وباستانوغوف عائدة بهما الى موسكو لأنهما كانا لا يزالان في حاجة الى العلاج الطويل. وطار معهما الصبي الصغير بينيا الذي عثرنا عليه أنا وكوزنيتسوف في الغابة. وقد طار ايضا طاقم الطائرة التي اصابها العطب. وأرسلنا كذلك الى موسكو كل الأشياء القيمة التي غنمناها من الأعداء والتي قررنا ارسالها لصنع طائرة جديدة عوضاً عن تلك التي تحطمت.

واقتربت الطائرة من نقطة الانطلاق. ارتفعت سابحة في الهواء، ودارت دورتين فوق الساحة، ثم تأرجحت بجناحيها في وداد وطارت بعيدا.

أفضل من الهويات الحقيقية

في قلب أوكرانيا الغربية الغارقة في الخضرة كانت تقع مدينة روفنو على امتداد فسيح. لم تكن روفنو تتميز بأشياء خاصة بها، فبيوتها صغيرة ومؤلفة من طابق واحد ما عدا بعض البيوت القائمة الى الشارع الرئيسي فقد كانت ذات طابقين، ونادراً ما تكون ذات ثلاثة طوابق. ومع ذلك فقد جعلها الألمان مركزاً للقسم المحتل من اوكرانيا.

شد ما كانت تهمنا هذه المدينة، فقد كانت فيها مفوضية رايخ أوكرانيا برئاسة نائب هتلر ايريخ كوخ هاولايتر بروسيا الشرقية. وكان يقيم فيها كذلك كل من الغستابو وقيادة الدرك الألمان ومقر الجنرال ايلغين قائد الحملات التأديبية الخاصة بأوكرانيا. وبالرغم من ان كييف كانت في يد الألمان آنذاك فقد آثروا جعل مدينة روفنو مركزا لأوكرانيا دون غيرها. وربما فكر الألمان بأنه كلما ابتعدوا عن الجبهة كلما كانت الحياة أكثر هدوء وراحة.

لقد كانت المدينة تعج بالضباط والموظفين الألمان وبأقاربهم وذويهم الذين قدموا اليها نشدانا وبحثا عن الغنيمة.

Twitter: @ketab_n

من الواضح أنه كان بالامكان الحصول من روفنو على معلومات قيمة ومفيدة لقيادة الجيش السوفيتي: عن تنقلات وتشكيلات القوات الفاشية الألمانية على الجبهة، عن بناء خطوط الدفاع الجديدة، عن التدابير ذات الطابع الاقتصادي، وعن كل ما يحدث في ألمانيا ذاتها. وقررنا أن نشق طريقنا الى تلك المدينة بعزم واتئاد، وبحذر شديد بحيث نفكر في كل خطوة نخطوها.

وتقرر في البدء ارسال أولئك الذين يعرفون روفنو جيدا، والذين لهم فيها أقارب ومعارف. فوقع الاختيار على **كوليا بريخودكو قبل أي انسان آخر . لقد ولد بريخودكو** في زدولبونوفو التابعة لمقاطعة روفنو. وعمل قبل الحرب مديرا لمستودع محطة سكة الحديد في مدينة روفنو. وتم جلاؤه عن المدينة متأخراً عندما كان القتال يدور في الشوارع وبدأت تدوي فيها الانفجارات. فغادرها بعد أن حمل سيارة شحن بشتى الأشياء القيمة في ذلك المستودع.

وكان كوليا بريخودكو في الثانية والعشرين من العمر، طويل القامة، عريض المنكبين، صحيح البنية، لطيف المحيا وذا عينين عسليتين طيبتين. وهكذا كنت أتصور أبطال الفولكلور والأساطير، وبالفعل فقد كان بريخودكو يتمتع بقوة عضلية لا مثيل لها، وقدرة على الجلد والاحتمال. لم يكن يهاب شيئا، وكان دائما يقتحم أماكن الأهوال.

لقد حدثت له حادثة عندما كانت كتيبتنا لا تزال في طريقها الى غابات سارني. تقدم بريخودكو جماعة من المستطلعين ودخل قرية ما. وكان جمهور كبير من الناس يحتشد في وسط الشارع: كانت الفلاحات يعولن ويندبن مصيرهن. تقدم بريخودكو من النسوة وسألهن:

– ما شأن هؤلاء هنا؟

– انهم يسوقون أولادنا وبناتنا الى ألمانيا.

وكان الشباب والبنات يقفون في الدائرة وأمتعتهم على ظهورهم، ويحرسهم ستة من رجال الشرطة.

وشق بريخودكو طريقه بين الجمهور المحتشد الى الشرطة:

Twitter: @ketab_n

– ومن أنتم؟
– شرطة، – أجاب أحدهم، دون أن يشك، طبعا، في سائله: لقد كان بريخودكو يرتدي نصف بدلة عسكرية رسمية.
– ولماذا تأخذون هؤلاء الشباب؟ – صرخ بهم.
– أمرنا بذلك، ونحن ننفذ الأمر. وأنت من؟ – سأل رئيسهم غاضبا.
– سأعرفك توا على نفسي.
ومع تلك الكلمات قبض بريخودكو بيديه على رقبتي اثنين منهما، وبكل ما أوتي من قوة صفق جبهتيهما ببعضهما، فتباعدا متساقطين على الأرض.
– ارم السلاح! أمر بريخودكو الباقين وقد صوب رشيشه اليهم.
وعندما دخل باقي المستطلعين تلك القرية محاذرين، فوجئوا بذلك المشهد: كوليا بريخودكو يتبادل الأحاديث القلبية مع الفلاحين، وقد وضعت عند قدميه ست بنادق. بينما كان رجال الشرطة يجلسون بالقرب منه على الأرض مقيدين ومجردين من السلاح.
فاذا كان ينبغي على المستطلع أن يسير ثلاثة أضعاف ما يسيره غيره، فان بريخودكو كان يسير أكثر من أي مستطلع آخر. كان يحدث هذا لأن بريخودكو كان دائما موجودا تحت الطلب عندما تجد حادثة ما تتطلب السرعة في التنفيذ.
– وفي احدى المرات–وكان هذا أيضا أثناء السير– تناهت الى مسامعنا من الأبعاد أصوات طلقات. وأرسلت بريخودكو ليعرف لنا حقيقة الأمر.
وما أن ذهب حتى قدم الي تسيسارسكي وقال:
– دميتري نيقولايفيتش! يجب ألا ترسل بريخودكو: لقد تقرحت قدماه حتى صار لا يستطيع أن يلبس الحذاء.
– ماذا تقول! لقد جاء الي لابساً حذاءه، ولم ألاحظ شيئاً ما من هذا القبيل.
وعندما عاد بريخودكو، سألته:

Twitter: @ketab_n

– ما شأن قدميك؟

– لا شيء، بقبوقة خفيفة!

لكنه خدعني، على ما ظهر انه انتعل حذاءه بلأي شديد ليظهر أمامي كما ينبغي، وعندما ذهب للاستطلاع مشى حافي القدمين.

وهكذا تقرر ارسال نيقولاي بريخودكو الى مدينة روفنو اولا. لقد أجاب عن سؤالي له ان كان مستعدا للذهاب الى روفنو:

– طبعا، وماذا يمكن أن يقال غير ذلك؟ يمكنكم الاعتماد علي.

ولم نكن لنشك في ذلك.

لكنه ماذا سيلبس؟ لقد تهرأت ثيابه التي يرتديها دائما وينام فيها الى جانب النار. وينبغي أن نرسله الى روفنو في زي مدني لئلا يكون موضع انتباه هناك.

لم يكن بين ما لدينا من الغنائم شيء من هذا القبيل، وصرنا نبحث بين الأنصار عمن يملك ملابس تليق بكوليا. وعثرنا على أربعة.

فتصوروا هذا المشهد: أربعة يجلسون بالقرب من النار في ملابسهم الداخلية دون أن يفهموا لماذا أخذنا ثيابهم (لأننا أبقينا أمر ذهاب بريخودكو الى روفنو في سرية تامة)، بينما كان كوليا يجرب تلك الثياب في الخيمة. لكن واحدة منها ما كانت لتليق به.

– ليسوا بشرا، وانما هم اقزام! – كان يزمجر في غضب.

فقد كان كما السترة قصيرين حتى لا يكادا يغطيان المرفقين، وتتدلى يداه بقبضتيهما الهائلتين. وكان البنطلون، وكأنه لأخيه الصغير، يكشف ساقيه حتى الركبتين. وبينما كان يجرب تلك البدلات كانت تتفتق من شدة ضيقها به.

ثم حملوا تلك البدلات الى مكان النيران وأعادوها لأصحابها شاكرين.

وأخيرا، وبعد لأي شديد، استطعنا أن ندبر لكوليا

Twitter: @ketab_n

شيئا ما يلبسه. لكن السترة والبنطلون اللذين اهتدينا اليهما كانا صغيرين أيضا بعض الشيء. ولم نستطع تدبير حذاء (من قياس ٤٤) لقدميه. واضطررنا لارساله في جزمة على أن ينزل فوقها البنطلون.

وذهب بريخودكو الى روفنو مع بطاقة هوية فيها أن «حامل هذه البطاقة غريتسينكو من سكان قرية لينتشين».

كان معسكرنا يبعد عن روفنو مسافة مائة وعشرين كيلومترا. أي أنه كان عليه أن يقطع ذهابا وايابا مسافة ٢٤٠ كيلومترا. وانطلق بريخودكو سيرا على القدمين. وانتظرنا عودته بعد ستة أو سبعة أيام.

لم يتأخر بريخودكو، بل عاد في الوقت المحدد.

وتنفست بارتياح بالغ عندما رأيته. لقد أفلحنا في القيام بعملية تسلل أولى الى روفنو. وكان هذا بحد ذاته حدثا بالغ الخطورة.

عرج بريخودكو في أول الأمر على خالته التي كانت تعيش في قرية بالقرب من روفنو، وأبلغته هذه أن أحد اخوته يعيش في روفنو نفسها. ورجاها كوليا أن تذهب الى أخيه وتعود به اليه. وقامت بذلك خلال عدة ساعات. ثم ذهب كوليا مع أخيه الى مدينة روفنو.

وفي روفنو صار كوليا يندهش لأشياء كثيرة. لقد ظهرت تسميات جديدة للشوارع كتبت باللغة الألمانية على أركان البيوت: «شارع الألمان»، «شارع فريديريك». وظهرت على الأبنية التي كانت من قبل نوادي ودور سينما ومطاعم كتابات أخرى: «للألمان فقط». وكان الألمان قد احتلوا أفضل المنازل لمؤسساتهم أو لسكنهم الخاص. وكان الحديث باللغة الألمانية يسمع دائما في الشوارع.

قام بريخودكو بزيارة لأسرة صديقه. واتفق مع أولئك الناس المخلصين على أن يستخدم الأنصار شقتهم فيما بعد. وهكذا نظمنا أولى شقة سرية لنا في مدينة روفنو.

واستطاع كوليا أن يسافر أيضا الى محطة زدولبونوفو التي تبعد مسافة ثلاثين كيلومترا عن روفنو. وهناك التقى كذلك بأصدقاء له آخرين واتفق معهم على لقاء آخر.

Twitter: @ketab_n

وعندما أنهى، بريخودكو حديثه توجهت اليه بالسؤال:
– ايه، وهل طلبوا منك ابراز الهوية في مكان ما؟
– لقد تحروها ثلاث مرات. وكل شيء على ما يرام.
وكان هذا انتصارا رائعا كذلك من جملة انتصاراتنا، لكن في أي شيء يمكن سر هذا الانتصار، هذا ما لم أصرح به لبريخودكو.

ثم أرسلنا الى روفنو رفاقا آخرين، وكانت مهمتهم بسيطة: ايجاد بيوت سرية أمينة، والاطلاع على المؤسسات الألمانية ألتي توجد في المدينة واماكن وجودها.

جهزنا بوليكارب فوزنيوك الذي كان قد انضم الينا في غابات سارني حيث كان يؤلف مع الكولخوزيين مجموعة صغيرة من الأنصار. ثم أرسلنا من بعده بوندارتشوك وهو احد سكان ذلك المكان أيضا وكان يشترك في فصيلة ستروتينسكي.

ثم أرسلنا الى روفنو كوليا ستروتينسكي من غير أن ننتظر عودة هؤلاء من هناك. وكان يحمل بطاقة شخصية كالتي تصدرها دائرة نفوس مدينة كاستوبول، وتثبت أنه معلم ذاهب الى روفنو من أجل الكتب المدرسية. وألبسناه بدلة مدنية جيدة ظهر فيها أنيقا جذابا بصورة جعلتنا جميعا نعجب به .

ورافقناه أنا وستيخوف ولوكين الى مكان بعيد عن المعسكر .وتوقفنا عند تخوم الغابة، واخترنا شجرة من الاشجار هناك واتفقنا على أن نترك له في تجويفها ورقة اذا ما انتقل المعسكر الى مكان آخر. ثم ودعناه بعد عناقنا له .

وعادت بي ذاكرتي بصورة عفوية الى مشهد من فلم «طفولة غوركي»، عندما انخرط الصبي «في معمعان الحياة» . لقد اختار كوليا ستروتينسكي طريقه عبر مرج تحيط به الأعشاب النامية على الجانبين، وظللنا نتابعه بأبصارنا حتى توارى عن الأنظار .

وبعد يومين من ذهاب كوليا ستروتينسكي الى روفنو عاد فوزنيوك وحدثنا عن هذه الواقعة: لقد عثر على شاب من معارفه كان يعمل بائعا في مخزن الكومسيون للألمان.

Twitter: @ketab_n

وأبلغه ذلك الشاب أن عميلا للغستابو يقدم الى ذلك المخزن كل يوم. ورصد فوزنيوك قدوم ذلك العميل، ثم أطلق عليه الرصاص مرتين فطرحه أرضا ولاذ بالفرار. وبينما كان يعبر الشارع صادف سيارة ركوب تقل ضابطين ألمانيين، فرماهما برمانات يدوية وهرب الى حوش أحد البيوت ثم قفز عبر السور الى شارع آخر وتوارى عن الأنظار.

انهى فوزنيوك حديثه عن تلك الواقعة، وهو ينتظر ثناءنا عليه. لكن لوكين نظر اليه معنفا، وقال له مؤكدا على كل كلمة يقولها:

— ومن هداك الى مثل هذا العمل؟ لقد أرسلناك لتكون هادئا محاذرا في شوارع المدينة، فتتعرف على مكان وجود الغستابو ومفوضية الرايخ وتعود الينا دون احداث أية ضجة. لكنك شاغبت! — وتابع لوكين كلامه وقد ازداد صوته حدة وارتفاعاً: — وسوف تقوم قائمة الاعتقالات هناك وسوف يحققون مع كل انسان يصادفونه. فلأجل أي شيء قمت بذلك؟ ان قتل ذلك العميل الأجرب سيهدد حياة اصدقائنا هناك. هيم، وظهر أخيرا من بيننا بطل!

ثم أبعدنا فوزنيوك عن عمل الاستطلاع. وأخذ الأنصار يقولون له متهكمين بعد أن سمعوا بقصة «بطولته»: «اذن، نحن نشاغب أيها الأخ؟» ودعوه منذ ذلك اليوم «المشاغب».

وعاد بوندارتشوك بعد أيام قلائل، وكان قد اتفق على تأمين بيت سري، لكن صعوبات جمة كانت تعترض طريقه. فقد كان يعمل في روفنو قبل بداية الحرب، وصادف هناك الكثير من المعارف، الذين اهتموا بعمله الحالي.

وأخيراً عاد كوليا ستروتينسكي. وقص لنا حالا عن كل شيء عرفه: أية مؤسسات ألمانية موجودة في المدينة، وأين تقع، أين يعمل معارفه، وأين يعيش أقاربه، ثم عند من يمكن تأمين البيوت السرية. وعلاوة على هذا فقد جاء الينا ببضعة نماذج من الهويات التي كان يصدرها الهتلريون.

وسألته:

— كيف حال هويتك، على ما يرام؟

Twitter: @ketab_n

– على ما يرام . لقد تحراها الألمان . وماذا هناك، انها أفضل من الهويات الحقيقية!

وسأتحدث الآن عن تلك الهويات .

لقد حدثنا كوليا ستروتينسكي مرة ما، أنه كان في طفولته يحفر بسكينه على الخشب . فاقترحت عليه أن يجرب حفر خاتم تقليداً للخاتم الألماني . فوجد كوليا فرجاراً وشحذ سكينا كان يستعمله في بري الأقلام . ثم نزع قطعة الكاوتشوك من كعب الحذاء وصنع خاتما لا يمكن تمييزه عن الخاتم الأصلي . عندئذ اقترحنا عليه أن يقلد الأختام الألمانية الأخرى .

كان كوليا في بداية الأمر بطيئا في العمل: كل يومين أو ثلاثة أيام كان ينتج خاتما . وكان الوقت خريفا والجو عكرا، ومثل ذلك العمل كان دقيقا ويتطلب نورا قويا. لكنه مرن يديه فيما بعد، وصار يصنع كل ساعة أو ساعتين أي خاتم يريده بواسطة تينك الأداتين – السكين والفرجار . لكننا صرنا نأتي اليه بقطع الكاوتشوك من جهات أخرى لأنه نزع اعقاب حذائه وحذاء كل من جورج وروستيك، وتوصل الى أحذية العاملين في القيادة .

وفي احدى الاستثمارات الألمانية سقطت في أيدينا آلات كاتبة بالأحرف الألمانية والأوكرانية . فصار تسيسارسكي يطبع حسب النماذج الاصلية بواسطتها أية وثيقة كانت، وكان لوكين أستاذاً في تقليد توقيع أي رئيس كان .

فكان تسيسارسكي يطبع الورقة، ولوكين يوقعها، ثم يمهرها بالخاتم الذي صنعه ستروتينسكي، فتخرج وثيقة وكأنما من اصدار الألمان أنفسهم.

وهكذا أمنا الوثائق لكل من بريخودكو وستروتينسكي وللكثيرين من المستطلعين . لقد كنا نصدر الهويات باسم دوائر النواحي والمدن أو الشركات الخاصة، وحتى باسم الغستابو نفسه .

وبالفعل فقد كانت تخرج أفضل من الهويات الحقيقية . واعترضنا مرة واقعا طريفا . لقد طلبت فصيلة الأنصار

Twitter: @ketab_n

المجاورة لنا أن نصدر لها هوية ما تخول مستطلعهم من دخول لوتسك . وأصدرنا لهم «شهادة مأمورية» ، لكننا لم نخبرهم عن كيفية حصولنا عليها. وتمكن مستطلعهم بواسطة تلك الشهادة من الذهاب الى لوتسك والعودة منها في أمان. ثم ارسلوا بواسطتها كذلك انسانا آخر وعاد دون أن يصاب بسوء . ثم أنهم كانوا في حاجة الى ارسال ثالث، لكن مدة الوثيقة كانت قد انتهت . عندئذ لجأوا أنفسهم الى تمديد زمن استعمال الوثيقة وذيلوها بتوقيع . لقد تحدث الينا (أنا ولوكين) عن هذا كله قائد تلك الفصيلة نفسه عندما قدم الينا في المعسكر .

– لقد ظهر بيننا انسان باستطاعته أن يقلد التوقيع فلا تكاد تميزه عن التوقيع الأصلي!

فتجهم لوكين باستياء، ثم قفز من مكانه وصرخ به:

– ان هذا لاجرام! كيف تجرؤون على تزوير الوثائق؟ انني سوف أضعكم أمام مشيئة القضاء! لقد زورتم... امضائي!

وجزع القائد في البدء وطار صوابه . ثم ما لبثت خيمتنا أن رددت قهقهات أخوية طويلة.

لقد زورنا كثيرا من الوثائق حتى أن الهتلريين شعروا بها أخيراً وأخذوا يغيرون نماذج أوراقهم بين الحين والحين . وكان لمستطلعينا دورهم المرموق في هذا الشأن . وقبل صدور تلك الوثائق الجديدة باسبوعين كنا نحصل على نماذجها . لقد كان يرسلها الينا اناس سريون من المطابع نفسها ، وصرنا نصدر وثائق جديدة مع الألمان في آن واحد.

لم يتعرفوا على ذويهم

كان نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف يتحدث طويلا ومفصلا مع كل من يعود من روفنو . وكان يطرح على بريخودكو وستروتينسكي وبوندارتشوك مئات الأسئلة. لكنني كنت لا أزال أخشى ارسال كوزنيتسوف الى روفنو.

– لن أحدث هناك أية ضجة حولي، فأنا لست

Twitter: @ketab_n

«مشاغباً»! – كان يقول هذا محاولا اقناعي، – أطوف في المدينة، أنظر وأعود . ثم نقرر بعد ذلك ما العمل .

وأخيراً قررنا ارساله لا لوحده وانما برفقة العجوز ستروتينسكي الذي كان ينبغي عليه أن يعرف كوزنيتسوف على أقاربه هناك .

وجهزنا نيقولاي ايفانوفيتش للذهاب بحرص وحذر شديدين . وكنت مع كل من ستيخوف ولوكين نناقش كل جزء من أجزاء بدلته . لقد اخترنا له «جزمة» جيدة: واصلحنا له من بين الغنائم بدلة ألمانية رسمية تليق به، وضعنا عليها بدقة كل الشارات والأوسمة الألمانية . وجرى هذا كله بعيداً عن عيون الأنصار جميعاً في المعسكر، فقد يجوز أن يكون بيننا ثمة عميل مرسل من قبل الأعداء . ولهذا ، ولصعوبة حفظ الأسرار في ظروف معسكر كهذا، فقد لجأنا الى هذه القاعدة: ينبغي على النصير ألا يحاول الاطلاع على ما لا يخصه.

وكان كوزنيتسوف يرتدي لباسه العادي في المعسكر . واذا ما خرج الى العمليات في الزي الألماني، كان يعلم به المشتركون في تلك العمليات وحدهم.

وطال بنا التحضير لذلك ثلاثة أيام بلياليها . ولم يكن أحد ليعلم متى ينام كل من نيقولاي ايفانوفيتش وفلاديمير ستيبانوفيتش . فقد كانا ينهمكان في التحضير أثناء النهار . وفي المساء، حتى وفي الليل، كانا يتمشيان بعيداً عن بقية الرفاق، أو يجلسان على أرومة شجرة ويتحادثان باهتمام.

ثم انطلقا معاً الى روفنو على عربة: كان ستروتينسكي بمثابة الحوذي، وكوزنيتسوف في هيئة ضابط ألماني من ضباط المؤخرة مسؤولا عن شؤون التغذية في الناحية. هكذا، على الأقل، كانت هويتاهما تشيران.

وتوقفا في احدى العزب التي تفصلها عن روفنو مسافة ثمانية عشر كيلومترا، عند فاتسلاف جيغادلو – أحد أقارب ستروتينسكي . وعندما علم جيغادلو بأمرهما قال لهما:

– على الرحب والسعة، ان بيتي تحت تصرفكم جميعاً،

Twitter: @ketab_n

عرجوا اليه متى شئتم، لكن كونوا حذرين في كل شيء، والا فسوف تلقون بأنفسكم وبي وعائلتي الى التهلكة.

كان لجيغادلو عشرة أطفال، وعندما جاء الألمان حرمت أسرته من المعونة الكبيرة التي كانت تقدمها لها السلطة السوفيتية لكثرة عدد أفرادها.

ثم توقف ستروتينسكي كذلك بالقرب من روفنو نفسها عند قريب آخر حيث ابقى العربة وسار مع كوزنيتسوف الى المدينة.

كانا في المدينة يسيران هكذا: كوزنيتسوف بجانب من الشارع، وستروتينسكي بالجانب الآخر.

ثم حكى لنا فلاديمير ستيبانوفيتش فيما بعد:

— أمشي، ساقاي ترتعدان، ويداي ترجفان، وأفكر في نفسي ها هم أولاء يلقون القبض علينا . وكنت أدير ظهري كما مررت بألماني، وعلى الأخص بواحد من أفراد الشرطة الخونة . كان يخيل لي أن الجميع ينظرون الي بعين الريبة، لأنني كنت أظن أن الكثيرين في روفنو يعرفونني. أما نيقولاي ايفانوفيتش، فقد كنت أنظر اليه فأجده يسير بالجانب الآخر كالنسر، أو كسيد المكان يقرأ بينه وبين نفسه اللائحات على أبواب المؤسسات، ويتوقف عند واجهات المحال ويمعن فيها النظر غير مبال. وعندما يمر بألماني يرفع يده ويهتف عاليا: «هايل هتلر!» وطاف بي في المدينة اربع ساعات كاملة. وكنت أخاطبه بالاشارات كما جرى الاتفاق آنفا، أرفع المنديل الى أنفي: حسبنا، آن أوان العودة. أما هو فيظل يسير ويسير. يا له من شجاع!

هكذا كان نيقولاي ايفانوفيتش في روفنو لأول مرة . ولم يدر في خلد أي واحد ممن قابلوه قطعا أن هذا «الضابط الألماني» ما هو في الواقع الا نصير روسي، وأنه بعد زمن ما سوف يطارده رجال الغستابو.

ولقد عرفه ستروتينسكي على قريب له كذلك في روفنو نفسها يدعى كازيمير دومبروفسكي، يملك محلا لتصليح الحاجيات المصنوعة من الجلد: كان يصلح عدة الخيل والسروج. ووافق كازيمير دومبروفسكي على أن يساعد

Twitter: @ketab_n

الأنصار، وأقسم لهما على ذلك .وينبغي القول بأن ذلك الرجل قد بر بقسمه فعلا وقدم لنا مساعدات كبيرة.

كان التجول محظورا بعد الساعة السادسة مساء في شوارع روفنو ، فغادرها كل من ستروتينسكي وكوزنيتسوف في الوقت المناسب واستقلا عربتهما عائدين الى المعسكر.

عاد كوزنيتسوف من تسلله الأول سعيدا راضياً، فلم يكن ظهوره في روفنو باعثاً على الشك في حقيقة أمره. وهذا يعني انه برع في ترويض نفسه.

ولكنه تذمر بعض الشيء من البدلة . فقد كانت بدلته صيفية بينما كان الضباط الألمان جميعاً يرتدون المعاطف ومشمعات الخريف . وكان يلبس الطاقية في حين كان يلبسها المحاربون في خطوط النار فقط . أما اكثرية الضباط في روفنو فقد كانوا يلبسون العمرات.

وعندما ذهب كوزنيتسوف الى روفنو للمرة الثانية ارتدى بدلة خاطها له خياط شهير من فرصوفيا يدعى شنيدر.

لم نكن نفتقر في معسكرنا الى أي اختصاصي! فقد كان عندنا الحذاؤون (ولم تعد حاجة الآن الى أحذية من قشر الأشجار) والخبازون، واللحامون، وهذا الخياط شنيدر. كان شنيدر، وهو يهودي الأصل، يعيش في فرصوفيا قبل الحرب . وعندما احتلها الألمان ساقوا اليهود جميعاً الى المعتقلات الخاصة بهم . لكن أحد الجنرالات الألمان دعا هذا الخياط شنيدر الى منزله، ووضعه في غرفة صغيرة تحت سقيفة في الفيللا الخاصة به، وأرغمه على أن يخيط الملابس ليس له وحده وحسب، وانما للضباط الآخرين أيضاً ، ثم يستبد بالأجور لنفسه. وكان لا بد من نهاية لذلك الأمر: فقد صرح الألماني للخياط بأنه سوف يرسله الى المعتقل اليهودي. وهناك سيجد شنيدر أمامه طريقا واحدا– أن يعدم رميا بالرصاص . وسنحت للخياط فرصة الهروب في الليل . وبعد ان عانى كثيرا من المصاعب والأهوال تمكن من الوصول الى كتيبتنا . ولأول مرة في حياته كان يخيط بدلة ألمانية باخلاص. لقد فطن الى ما سوف يكون لتلك البدلة من شأن مع كوزنيتسوف .

Twitter: @ketab_n

وهكذا صار نيقولاي ايفانوفيتش يتردد كثيرا على روفنو. كان يذهب عادة بصحبة كوليا ستروتينسكي أو كوليا بريخودكو . وكان يبيت اما عند كازيمير دومبروفسكي أو عند شقيق بريخودكو.

وصار نيقولاي ايفانوفيتش يتعرف على الألمان في المطاعم أو المخازن فيتبادل معهم الأحاديث العابرة، وأحياناً كان يتحدث معهم طويلا . وكانت الأحاديث كلها آنذاك تدور حول ستالينغراد . لقد كان الألمان قلقين لمجرى الحوادث الحربية . أن تلك المدينة الأسطورية، التي كثيراً ما أعلن الألمان سقوطها في أيديهم، كانت تخوض نضالا بطولياً ضدهم حتى أن أنباء كانت قد تفشت بين الألمان فقضت مضاجعهم وتفيد بأن الجيوش الهتلرية قد تم تطويقها هناك.

وفي ذلك الوقت ذاته كان يذهب مع كوزنيتسوف الى روفنو رفاق لنا آخرون. لكنهم لم يكونوا ليعرفوا شيئا ما عن غيرهم من الرفاق الذين كنا نرسلهم كذلك الى هناك. وكنا نوصي كل من يذهب الى روفنو: أذا ما حدث أن رأيت أحد رفاقك هناك فلا تندهش، ولا تسلم عليه بل تجاوزه واحسر بصرك عنه وكأن أحداً ما لم يكن.

وفي احدى المرات أرسلنا نيقولاي ايفانوفيتش الى روفنو بصورة جعلته أكثر ارتياحاً وأجل شأناً . لقد أتينا بجوادين أشهبين أصيلين، وجهزنا لهما عربة وفيرة . ثم أوعزت الى فلاديمير ستيبانوفيتش ستروتينسكي أن يسلم الجوادين الى كوزنيتسوف . فهو كلما ظهر بمظهر الموسر كلما صار في منأى عن الأخطار ولن يعترض طريقه أحد من الناس . وكان ينبغي على كوزنيتسوف أن يمكث في هذه المرة عدة أيام في مدينة روفنو، لذا فقد أوعزت اليه أن يبقي الجوادين في مكان ما لدى دخوله المدينة . لكن فلاديمير ستيبانوفيتش قال لي:

– أيعقل أن يترك مثل هذين الجوادين!.. اذن فأنا سوف أسرج له ذينك الأشقرين.

وتوسل الينا محاولا اقناعنا في لجاجة حتى أنه كاد يبكي، ولكن دون جدوى . فقد انطلق الجوادان الأصيلان

Twitter: @ketab_n

بكوزنيتسوف . وأرسلنا معه النصير غنيديوك بمثابة الحوذي. وكان ينبغي لهذا الأخير أيضا أن يبقى بعض الوقت في روفنو لشؤون الاستطلاع.

وبعد أيام ثلاثة بلغ معسكرنا مع ذينك الجوادين والعربة ذاتها مستطلعانا في المدينة ماجورا وبوشنين. لقد كانا يقيمان في روفنو بصورة دائمة تقريبا ويقدمان الى المعسكر بدعوة منا وحسب، أو عندما كانت تقتضي قدومهما ضرورة ما ملحة.

واضطربت فعلا لدى عودتهما، لأن كلا من ماجورا وبوشنين كان لا يعرفهما كوزنيتسوف، وبالتالي فهما لا يعرفان أن أحداً ما من الأنصار يذهب الى روفنو في بدلة ضابط ألماني . فكيف قابلاه اذن؟ ومن سلم الجوادين والعربة اليهما؟ هل فشل كوزنيتسوف يا ترى؟ أم هل يكون الألمان قد ألقوا القبض عليه؟

وهرعت للقاء ذينك القادمين، فوجدت فلاديمير ستيبانوفيتش يربت على ظهري الجوادين سعيداً بهما.

— ماذا حدث؟ — سألت ماجورا في اضطراب ظاهر — من أين لك بمثل هذين الجوادين؟

— انها قصة طويلة — رد مبتسما — سرقناهما من الألمان.

— وكيف كان ذلك؟

فانتحى ماجورا بي جانبا غير مستعجل، بل لم تفارق ثغره الابتسامة التي شد ما أفزعتني في تلك اللحظة، وبدأ يقول:

— كنا في شقتنا السرية وقد تهيأنا للمجيء الى المعسكر . وفجأة رأينا عربة بجوادين تقل ضابطا ألمانيا تتوقف على مقربة منا . ونزل الضابط من العربة ومضى في اتجاه ما . ونزع الحوذي أعنة الجوادين ثم علق لهما كيسي علف على عنقيهما، وتفحص ببصره كل الجهات ومضى . أما نحن فقد صرنا نتساءل : ولم نتجشم مشقة العودة الى المعسكر على أقدامنا! فركبنا العربة و... تشوه! وتوقفنا في تلك العزبة الواقعة بالقرب من روفنو كعادتنا ولنريح

Twitter: @ketab_n

الجوادين طوال الليل . وهكذا قدمنا الى المعسكر ... أحقاً أنهما جوادان رائعان، أيها الرفيق القائد؟

– أجل ، جوادان رائعان، جوادان نادران! ـ قلت له وقد تنفست الصعداء.

جزاء سريع

أقمنا «منارة» في العزبة التي يعيش فيها جيغادلو قريب العجوز ستروتينسكي . لقد كانت قاعدة صالحة تقع في منتصف الطريق بين المعسكر ومدينة روفنو . ويفصل روفنو عن المعسكر زهاء مائة وعشرين كيلومترا يستغرق من الساعي يومين كاملين . لكنه، وبعد أن أقمنا تلك «المنارة» صار ساعينا القادم من روفنو يتوقف عندها، ويستبدله ساع آخر على جياد مرتاحة لينقل الينا المعلومات من «المنارة» الى المعسكر.

وفي أواخر شهر كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٤٢ استدعينا جميع المستطلعين من روفنو، ومن «منارة» جيغادلو أيضا . لقد كان هناك في تلك الأثناء كل من كوزنيتسوف ونيقولاي ستروتينسكي وجورج ستروتينسكي وبريخودكو وغنيديوك وشيفتشوك وغيرهم، وكانوا جميعاً عشرين شخصا تقريبا . وكان كذلك في «المنارة» كوليا الصغير الذي ساهم في أعمال الاستطلاع اكثر من مرة مع المحاربين.

كان من المنتظر ان يكون هؤلاء جميعا في المعسكر مع الفجر. وجاء الصباح، ومر النهار ولم يبد أحد منهم لهم؟ جعل القيادة في حيرة من أمرهم . ماذا يمكن أن يحدث لهم؟ هل أقحموا نفوسهم على حملة تأديبية، أم وقعوا في كمائنهم؟

تصورات كثيرة أخذت تدور في خلدي، وكل منها كانت أشد ظلاماً من الأخرى، فقلت:

– سننتظر حتى الصباح، فاذا لم يظهروا فسوف نرسل في اعقابهم جماعة كبيرة من الأنصار.

Twitter: @ketab_n

وفي الساعة الثالثة ليلا جاءني الخفير المناوب في المعسكر على حين غرة وقال:

– أيها الرفيق القائد! اسمح لي أن أخبرك بقدوم كوزنيتسوف.

– وأين الباقون؟ – أطلقت هذا السؤال بصورة عفوية.

وما كنت أهدف في سؤالي الى أي شيء . فقد كان ذلك الخفير ككل الأنصار في المعسكر لا يدري من استدعينا ومن أين . حتى أنه لم يفهم سؤالي . وكانت دهشته عظيمة عندما رأى كيف أن جميع الجالسين معي قرب النار نهضوا وقوفا . وقبل أن يجيب عن سؤالي كان نيقولاي ايفانوفيتش قد اقترب من النار:

– أتأذن لي، أيها الرفيق القائد ان اخبرك؟ لقد وصل المستطلعون.

– وأين هم؟

– هناك وراء المخفر . يقومون بحراسة الأسرى .

– أي أسرى؟

– لقد حطمنا حملة تأديبية.

فأمرت الخفير المناوب أن يستلم الأسرى، ثم قلت لكوزنيتسوف وقد هدأ روعي:

– ايه، حدث يا نيقولاي ايفانوفيتش!

فقال، كوزنيتسوف:

– لست أدري من أين أبدأ يا دميتري نيقولايفيتش... انها حكاية عجيبة! فحسبما أوعزت الينا تجمع المستطلعون عند «منارة» جيغادلو، وتوجهوا عائدين الى المعسكر. وأخبرت في آخر لحظة من وجودي في روفنو أن مفوض مقاطعة ليودوويبول يتهيأ لقضاء اجازته، وأن الألمان سوف ينقلون بعد ساعات معدودة من مدينة ليودوويبول كل ما سلبوه من الخيرات على العربات التي سوف ترافقها جماعة من رجال الدرك. ثم ان المفوض سوف يخرج بعد ساعتين في سيارة الى كاستوبول حيث يستقل القطار من هناك مع تلك «الغنائم».

Twitter: @ketab_n

ايه، وأنت تعلم أن مفوض ليودويبول كان واحدا من أولئك الذين حسبنا لهم الحساب . وعز علي ألا أغتنم تلك الفرصة . فلو أنني لجأت الى اخبارك بالأمر أولا لتأذن لي بذلك لفاتت علي تلك الفرصة لأنه كان لا يمكن لأي ساع أن يأتي اليك ثم يعود قبل فوات الأوان . وتبادلت الرأي مع الرفاق. وأنت يمكنك أن تتصور جيداً ما يمكن أن يقوله كل من بريخودكو وستروتينسكي في صدد مثل هذا الأمر! حتى أن كوليا الصغير نفسه كان متحمسا للاسراع في تنفيذ القضية.

ونصبنا كميناً على الطريق التي تصل ليودويبول بكاستوبول ولم يكن ذلك المكان ملائماً، فقد كان مكشوفا عاريا من كل شيء الا من بعض الشجيرات العارية الأغصان. وانبطحنا عند تلك الشجيرات وتموهنا . وزرع غروس لغما على الطريق ودفن السلك تحت التراب ثم مده الى الشجيرة التي كان بريخودكو منبطحا الى جانبها.

وانتظرنا ساعة، ثم ساعتين، وثلاث، ولا مفوض ولا عربات . وبدأ البرد يلسعنا فهممنا بالرجوع الى المعسكر.

وفجأة لمحنا دخانا أسود على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات، ثم تراءت لنا ألسنة من اللهيب في أحدى الجهات، وسمعنا طلقات الرشاشات والرشيشات . وبعد ساعة رأينا قافلة قادمة من جهة القرية المحترقة و اقتربت عشرون عربة تقريبا من كميننا.

تصور مشهدا كهذا. في العربة الأولى المشدودة الى جوادين كان يجلس أربعة من الغستابو، حتى انه كان يمكن تمييزهم عن بعد : معاطف سوداء ، وشارات فاشية على العمرات والاردان. ثم تلتها عربات اخرى تقل رجال الدرك . واخيراً في مؤخرة القافلة ظهرت جماعة الخونة الغيداماكيين. ظننت ان ذلك يعني انهم احرقوا القرية .

وكان علينا لا بد ان نقوم بالهجوم، فلم يكن ثمة مخرج آخر . لم نكن مموهين جيدا، وكان ابطاؤنا في الهجوم معناه أن نجعلهم يتسلمون زمام المبادرة.

وأوعزت الى بريخودكو باشارة من يدي، فما أن اقتربت

Twitter: @ketab_n

العربات الاولى من اللغم حتى شد بريخودكو السلك . وبعثر الانفجار رجال الغستابو مع حطام العربات على الأرض، وأصلينا رجال الحملة التأديبية نيران رشيشاتنا ورشاشاتنا وهجمنا عليهم.

واستطاع بعضهم أن يلوذ بالفرار، فاستولى كل من كوليا بريخودكو وشيفتشوك على ما خلفوه وراءهم من بنادق وأشركوها في القتال . أما جورج فقد تفوق على الجميع آنذاك، لقد كان يحصد برشاشه أفراد الشرطة حصدا، فأردى الكثير منهم وألقينا القبض على اثني عشر شخصا ممن بقوا على قيد الحياة . ثم فتشنا القتلى واستولينا على وثائقهم، وقام الرفاق بجمع الغنائم من بنادق ورشيشات ورمانات يدوية ثم أقفلنا راجعين.

لكن انتظر قليلا واسمع الى ما سأقوله، فالقصة لم تنته عند هذا وحسب.

لقد استجوبت الأسرى في الطريق وعلمت منهم المعلومات التالية . لقد علم مفوض المقاطعة بطريقة ما اننا كنا نهيىء هجوما ضده. فأرجأ ميعاد سفره الى حين، وأرسل تلك العصابات من القتلة في حملة تأديبية . فنصبوا كمائنهم بالقرب من قرية أوزيرتسي، بينما كنا نحن نتربص بهم الدوائر في كمين يبعد ثلاثة كيلومترات عنهم. كان كل منا في انتظار الآخر وعندما بدأت سياط البرد تلسعهم أشعلوا النيران.

وتوسم فلاحو قرية أوزيرتسي شرا، فهرعوا الى الغابة عبر ممرات سرية ملتوية.

وحسب رجل الغستابو المسؤول أن ذهاب الفلاحين الى الغابة ليس الا لتحذير الأنصار . فأصدر أمره الى أفراد عصابته ليتصيدوا أولئك السكان المروعين وليقوموا باحراق بيوتهم . ولم تكن تضرعات الكبار ولا دموع الصغار لتفيد في شيء . وخلال ساعة من الزمن كان أولئك الجلادون الوحوش يقبضون على الأهلين واحداً تلو الآخر فيقتلونهم ويقذفون بهم في البيوت المحترقة الى سعير النيران ... لقد اعترف لنا الأسرى أنفسهم بذلك، ويمكنك أن تسمع بأذنيك الى ما يقولون.

Twitter: @ketab_n

ثم لما فرغ القتلة من تلك الأعمال الفظيعة توجهوا بسلام الى ليودوبيول ليقدموا تقريراً عن العمليات الى المفوض هناك، وهكذا فوجئوا بكميننا في الطريق.

وأنهى نيقولاي ايفانوفيتش حديثه فران الهدوء والصمت على الجميع، وصمت أنا كذلك. والحق أقول ،لقد عزمت في بداية الأمر على تأنيب كل من كوزنيتسوف وبريخودكو وستروتينسكي للتصرف الفردي، لكن لساني لم يعد يطاوعني على ذلك.

وقال أحد الحاضرين:

– أجل، جزاء سريع!

وفهم نيقولاي ايفانوفيتش أن أمر قضائه على تلك الزمرة من القتلة لقي استحساننا.

فتقدم الي بشيء ما بين يديه وقال:

– دميترى نيقولايفيتش، انظر الى هذا الشيء، انه غنيمتي الخاصة بي.

تناولت ذلك الشيء وصرت أتفحصه بنظري ، لقد كان قرصا غير كبير من معدن أبيض في سلسلة متينة . وكان قد كتب على أحد وجهيه بالألمانية: «الشرطة السياسية للحكومة»، وفي أسفله «رقم ٤٨٨٥» . وعلى الوجه الثاني كان قد حفر النسر مع الصليب المعقوف الفاشي.

وقال كوزنيتسوف موضحاً لي كنه ذلك الشيء:

– انه قرص لرجل مسؤول في الغستابو ملقى الآن على قارعة الطريق . انني أعتقد أن مثل هذا الشيء سوف يلزم لي . فهم جميعاً يخضعون لحامله دون أن يجرؤوا على اعتراضه في شيء.

وبعد أيام معدودة بلغنا أن أولئك القتلة الغاصبين أحرقوا ٣١٢ بيتا من مجموع ٣٣٠ بيتا في قرية أوزيرتسي، وأعدموا ٤٠٠ شخص رميا بالرصاص. وبتعبير أدق فقد كانوا يطلقون الرصاص على الكبار فقط، أما الأطفال فأبادوهم ضربا باعقاب البنادق وألقوا بهم في أشداق النيران.

Twitter: @ketab_n

وينبغي القول بأن الأنصار لم يدخلوا تلك القرية مطلقاً، ولم تربطهم بسكانها أية علاقة.

وهكذا، انتقم الألمان من سكان قرية أوزيرتسي الآمنين.

طوق الورود

علم فكتور فاسيلييفيتش كوتشيتكوف أثناء مقابلاته الدورية لكل من دوفغير وفيداروف أن الالمان أفرغوا منزلا كبيراً في مدينة سارني، وسارعوا الى تجهيزه بكل الوسائل والمعدات.

وما انفك رئيس خدمة الحراسة والانضباط في المدينة وشرطتها وادارتها يبحثون عن اثاث لذلك المنزل في المدينة كلها: عن خزانات مجهزة بالمرايا، عن اسرة مطلية بالنيكل، وعن ارائك وثيرة مريحة . فكانوا ينتزعون كل ما يستظرفونه من أشياء وينقلونها الى ذلك المنزل . وكانوا يقولون لمن يسألهم عن غايتهم في ذلك: «هنا سوف يستجم ابطالنا المستحقون».

واهتم فيداروف بالأمر، ثم علم أن الألمان فعلا يجهزون ذلك المنزل ليستجم به الضباط الكبار والمتوسطون من عداد الجيش العامل، وأنه من المحتمل أن يصل أول قطار الى سارني في الأيام القليلة القادمة.

كان ينبغي تهيئة استقبال يليق بأولئك «الأبطال».

فقامت جماعة كبيرة من الأنصار، قوامها اثنان وأربعون مقاتلا بقيادة معاوني السياسي ستيخوف، باحتلال المواضع عند خط سكة الحديد منذ المساء.

كانت السماء تساقط الثلج وسرعان ما يذوب. وعند منتصف الليل هبت رياح شديدة باردة . وقضى الأنصار تلك الليلة منبطحين على الأرض يعانون آلام البرد والرطوبة. ومر الجنود الألمان بالقرب منهم على طول خط سكة الحديد التي يحرسونها حاملين في أيديهم فوانيس، لكنهم لم يكتشفوا لغمنا.

كان الظلام ينحسر دون أن يظهر القطار.

Twitter: @ketab_n

وعزت عليهم العودة دون تنفيذ المهمة، وكان ينبغي عليهم أن يعودوا مع الفجر لأن الألمان كانوا قد قطعوا الأشجار والشجيرات من جانبي سكة الحديد على امتداد ثلاثمائة متر ليتعرى ذلك المكان، كان من الممكن ان يكلفنا هذا ضحايا كثيرة في وضح النهار.

وأبلغهم عمال الاشارات الموزعون على جانبي الكمين أنه ثمة قطار قادم من جهة الشرق . وأدركوا بواسطة جلجلة عرباته أنه فارغ من الحمولة . وبعد نصف ساعة مر قطار ثان وكان فارغا كذلك الا من عدة عربات مشحونة بالصابورة أمام القاطرة . وفهم ستيخوف ان ارسال الألمان لذينك القطارين الفارغين كان يعني أن القطار المنتظر سوف يتبعهما سريعا.

وأخيراً سمعوا صوت قطار يقترب . وأبلغهم المراقبون عنه بالاشارات . وتراءت أمام الأنظار عربات الركاب المتسلسلة خلف القاطرة، ينبعث من نوافذها نور أزرق خافت مموه.

امر ستيخوف بالتهيؤ . وتناول النساف ماليكوف اسلاك اللغم، وعندما تجاوزت القاطرة خط كميننا كله وبلغت مكان ماليكوف شد هذه الاسلاك، وانفجر اللغم، فارتجت القاطرة ووقفت فجأة واخذت العربات تهوي واحدة فوق الاخرى متحطمة على مرأى من الانصار . وران الهدوء وبعد دقيقتين او ثلاث دقائق أخذ الفاشيون يقفزون من ابواب العربات . كان يبدو عليهم أنهم حسبوا ذلك الانفجار قد انتهى، وأنه لم يعد ثمة شيء آخر يهدد حياتهم . لكنه سرعان ما دوى الانفجار الثاني في مؤخرة القطار، وتبعه انفجاران آخران في الوسط . وعند ذاك بدأ اطلاق النار.

كان أول من نطق بلغة الرصاص رشاشنا ذو العيار الكبير الذي نزعناه من الطائرة المحطمة وثبتناه على العربة التي صنعت خصيصا لأجله . أشبعنا القاطرة رميا بالرصاص قبل كل شيء حتى جعلنا المرجل فيها كالغربال. ثم بدأ رشاشنا يوزع رشاته على العربات جميعا في خط أفقي مستقيم ترفده نيران الرشيشات.

Twitter: @ketab_n

واستمر الرمي على القطار أربعين دقيقة . ورأى الأنصار كيف أن أحد الضباط الألمان قفز من العربة بوجه مشوه من الرعب، وأخذ يقهقه عاليا وقد أصيب بالجنون .

كان الفجر قد أضاء كل شيء عندما عاد رفاقنا الى الغابة . وبعد يومين قدم كوتشيتكوف تقريراً عن نتائج عملية التخريب :

—كان القطار هو ذلك الذي انطلق من ضواحي ستالينغراد لينقل الى سارني ضباطاً من سلاحي الجو والمدرعات للاستجمام . واقبل الألمان بعد ساعة من انسحاب الأنصار الى مكان التخريب، ثم طوقوا المنطقة كلها، ونقلوا قتلاهم وجرحاهم على السيارات وعربات سكة الحديد الصغيرة الى سارني وكليسوفو وراكيتنويه. ولم يعرف عدد القتلى بالضبط، غير انهم نقلوا منهم الى سارني وحدها سبعة وأربعين قتيلا . وأرسلوا بعض القتلى من كليسوفو وراكيتنويه الى ألمانيا: لقد كانوا، على ما يبدو، من الشخصيات الخطيرة ذات الشأن .

لقد حدث هذا في السادس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٢ .

ووصلتنا البيانات الصادرة عن وكالة الأنباء السوفيتية والتي تفيد بأنه في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) اخترقت القوات السوفيتية خطوط دفاع الهتلريين في ضواحي ستالينغراد، وطوقت الجيشين الألمانيين الرابع والسادس . لهذا فقد غمرتنا السعادة لاسهامنا على الأقل بجزء بسيط في تلك المعركة العظيمة . فقد وقع في كمين الأنصار أولئك الضباط الألمان الذين هربوا من تنور المعركة في ستالينغراد.

ولم نتكبد أية خسائر في الأرواح في تلك العملية؛ الا أن رصاصة طائشة أصابت ايرمولين في عقب حذائه لكن هذا كان أمراً لامفر منه بالنسبة لايرمولين. من المدهش حقا أن الرصاص كان شغوفا دائما به! ففي كل اشتباك مهما صغر شأنه كان لابد لرصاصة ما أن تصيبه، وبالأحرى، لا تصيبه نفسه وانما كانت تصيب ثيابه: فتارة معطفه، وأخرى

Twitter: @ketab_n

عمرته، وأحيانا أخرى، كما حدث هذه المرة، عقب حذائه. فكان ايرمولين عقب كل معركة يجلس ليرفو ويرتق ملابسه. لكنه صدف ان جرحته رصاصة واحدة خلال فترة المعارك كلها، وحتى أن هذه حدثت على سبيل النكتة – فقد أصابت اصبعه.

لم يكن نجاحنا في تلك العملية وليد صدفة، فقد قام بادارتها معاوني في القسم السياسي سيرجي تروفيموفيتش ستيخوف . كان ستيخوف يحب العمليات الحربية ويستعد لها بكل قواه بعد أن يدقق كل الأجزاء والتفاصيل . وكان أنصارنا يعتبرون الذهاب مع ستيخوف الى العملية سعادة ما بعدها سعادة .

لم يكن من السهل أن تحوز محبة الأنصار . أما ستيخوف فقد أحاطوه جميعاً بالحب والتقدير . فقد اجتمعت فيه كل الخصال الرائعة التي ينبغي أن يتحلى بها القائد البلشفي الباسل والرفيق الممتاز . لقد كان قصير القامة، قوي العزيمة، يعتني بهيئته فيشد الحزام دائما على وسطه ويحمل رشيشا (موزير) وحقيبة عسكرية. فكان، وهو المدني من قبل، يبدو دائماً وكأنه في عرض عسكري . وكانت تلك الخصال مثلا ضرورياً يقتدي به الأنصار جميعاً في مثل تلك الظروف الحياتية التي نعيشها .

كان سيرجي تروفيموفيتش يتواجد دائماً بين المقاتلين، فيجلس بين المجموعات الصغيرة وينفث دخان غليونه لا للذة التدخين وانما ليذب به البعوض، فيتحدث أو يسمع أو يسدي نصيحة ما .

واقترب عيد الميلاد، فبدأ الهتلريون استعداداتهم للعيد بنهب الأهلين كعادتهم . وأبلغتنا فاليا دوفغير أن الأعداء اقتحموا قرية فيري ويقومون الآن بالاستيلاء على كل المأكولات فيها . وقد أخذوا من المطحنة كل ما كان فيها من دقيق .

قررنا حماية الفلاحين . وفي الطريق، ليس بعيدا عن قرية فيري ،أتيحت لنا رؤية مشهد من مشاهد «التحضير للعيد» .

Twitter: @ketab_n

كانت جماعة من الجنود الألمان تسير يتقدمها ضابط ألماني في لباس الاس-اس وبقفازين أبيضين، لم تكن مشيته عادية وانما كان يخطو في خيلاء . وكانت أيدي الجنود تقبض على البنادق استعداداً لأي طارىء (لم يستطيعوا نسيان الأنصار مطلقا!) . وكانت ورائهم أربعة أزواج من الثيران مقيدة على عربات تضج بأصوات الخنازير والدجاج والاوز . هكذا كان يجري «التحضير» لموائد العيد .

وحينما اقترب الهتلريون كان ستيخوف أول من بادرهم بنار رشيشه، فرفع الضابط يديه وسقط . وسرعان ما فتح باقي المحاربين نيرانهم بعد ستيخوف . وخلال بضع دقائق كان الأعداء قد أبيدوا الى آخرهم ما عدا اثنين انبطحا في الخندق و فتحا علينا النيران.

وبينما كنا نصفي معهما الحساب كانت التعزيزات الهتلرية قد وصلت من كليسوفو على السيارات . ودوى ايعاز، فانتشر الألمان وحالا بدأوا هجومهم على الأنصار . لكن ستيخوف كان قد تنبأ بذلك قبل حدوثه، فأرسل بعض المحاربين بعيداً عن مكان الكمين الى مسافة ثلاثمائة متر في اتجاه كليسوفو تحينا لفرصة قدوم النجدات . ولهذا فلم يكد الهتلريون يتقدمون خطوات قليلة في اتجاهنا حتى فاجأهم رفاقنا بالنار . واستمرت تلك المعركة عشرين دقيقة فقط، استرجعنا فيها كل ما نهبه الفاشيون من الفلاحين، وأعدنا اليهم ممتلكاتهم .

لقد كانت السلطات هناك أعجز من أن تشتبك معنا في قتال . فقد كتب الضابط الألماني حاكم بلدة موكوين الى قرينته في برلين يقول:

«زوجتي العزيزة هيرترودا! لقد صار الأمر في غاية الجدية، الأنصار يحيطون بنا في كل مكان، وكل منا لا يجرؤ على أن يظهر حتى أنفه خارج البيت . لم أعهد في حياتي كلها عيد ميلاد كهذا . أجلس فلا يستقر لي ساكن خوفا على حياتي . انني أترقب مجيء الأنصار وظهورهم كل ليلة . لقد أرسلوا الي ببعض من رجال الدرك . أيمكن لعشرة من رجال الدرك أن يقاوموا الأنصار الذين يساعدهم السكان جميعاً.

Twitter: @ketab_n

لقد أرسلت اليك طرداً ولست أدري ان كان قد وصلك أم لا . وها أنا ذا أرسل اليك مائتي مارك، ولست واثقاً من أنك سوف تستلمينها . أخبريني حالا فور وصولها» .

ولم يكن ذلك الحاكم في ريبة من أمر وصولها عبثا .

فقد استولى الأنصار على الطرد والمائتي مارك، وعلى تلك الرسالة الناقصة . ووقع في أيدينا قبيل عيد رأس السنة زوج هيرترودا نفسه .

لقد احتفلنا بحلول عام ١٩٤٣ بشجرة الميلاد للأنصار: من أجل أن تكون كل أسرة سوفيتية سعيدة ومسرورة بشجرة الميلاد مع كل عام جديد . وكان ينبغي على شجرتنا نحن الأنصار ان تكون حربية لا تأخذها رأفة بالعدو. وقد جاء في اعلان جريدتنا، في العدد الخاص برأس السنة:

«كل من يرغب في الاحتفال بشجرة الميلاد ينبغي عليه أن يعمل من أجل تزيينها وبهرجتها. ونقبل لهذا الغرض: ١ـ أطواق من الورود المضيئة من القطارات الألمانية المحترقة. ٢ ـ رشيشات مغنومة لتكون آلات موسيقى. ٣ – ألمان من أي حجم . ٤ – كل نصير يستطيع أن يكشف عن جدارته . الهدايا تسلم حتى ٣١ كانون الأول» .

وقد جاءت جماعة من النسافين وعلى رأسها ماليكوف بطوق الورود من قطار محترق لتزيين «شجرة الميلاد».

وكان الأعداء يولون جد اهتمامهم الى غابات سارني حيث كنا نعسكر . ولهذا، كيما ننقل اهتمامهم، فقد قررنا نسف قطار من الجهة الغربية لمدينة روفنو على سكة حديد كوفيل – روفنو .

فتوجه ماليكوف، وهو مهندس مختص، على رأس اثني عشر مقاتلا الى المكان المعين لذلك ومعهم الألغام من الحجم الكبير . أخذوا مواقعهم بالقرب من خط سكة الحديد، وزحفوا تحت ستار الليل الى المخفر .

وأبلغهم الخفير العجوز بملء ارادته أن القطارات الثقيلة غالبا ما تمر هنا، في اتجاه الجبهة ملأى بالأسلحة والقوات .

Twitter: @ketab_n

وحينما تمر في اتجاه الغرب تكون محملة بالجرحى ومن اصابه الصقيع وبما نهبوه من الخيرات . وفهم العجوز بغية الأنصار فقال:

– ان أمري لا يهمني . لكن الشعب؟ فهم سوف يحصدون الناس جميعا بالرصاص!

وتبين لنا أن الألمان جندوا فلاحي القرى المجاورة وأرغموهم على حراسة سكة الحديد بعد أن توعدوهم بالموت الاكيد اذا ما حدث لسكة الحديد حادث. فوقف الفلاحون جميعاً خفراء تفصل واحدهم عن الآخر مسافة خمسين متراً .

قال ماليكوف:

– نحن أنفسنا سوف نستشيرهم في الأمر .

ودار الحديث مع الفلاحين في الحال في جو من الود . ولم يفكر الفلاحون في أن يقنعوا رفاقنا لاثنائهم عن عزمهم، كلا، وانما بحثوا معهم كيفية القيام بعملية النسف دون ان يصاب الفلاحون بسوء. واقترحت فلاحة عجوز:

– أوثقونا بالحبال، ثم افعلوا فعلكم . ربما يكون من الأفضل لو تسدوا أفواهنا، أو تضربونا حتى تزرق جلودنا .

– هيي، اننا لن نضربكم!

– اذن، نحن سوف نضرب بعضنا بعضا – أجابت تلك الفلاحة .

يا للمضحكات المبكيات! وما أن تم دفن الألغام حتى أخذ أولئك «الخفراء» يكيل أحدهم الضربة تلو الضربة لصاحبه . ثم أحكم الأنصار وثاقهم وألقوا بهم الى جانب النيران . وسرعان ما ظهر القطار . فنسفت عرباته المشحونة بالأسلحة والذخائر والأشياء العسكرية الأخرى في نجاح تام . وشب القطار «على ذنبه» عاموديا وتحطمت عرباته الستون وقد شبت فيها النيران .

وتلك كانت هديتنا للوطن بمناسبة حلول العام الجديد!

Twitter: @ketab_n

في كانون الثاني (يناير) بلغت درجة الحرارة عشرين تحت الصفر . فغدت أكواخنا – هكذا كنا نسمي خيامنا في الغابة – غير صالحة أبداً للسكن في الشتاء . وغالباً ما صرنا نغير مكان معسكرنا، بيد أننا لم نتمكن من تأمين أكواخ دافئة بل اقتصرنا على بناء أكواخ من الخشب الرقيق وفرشنا سطوحها بطبقة من أغصان أشجار الشوح، ثم بطبقة أخرى من التراب . وعلقنا مشمعات الخيام بمثابة الابواب . وفي مركز سقف كل كوخ جعلنا كوة كبيرة ليمر عبرها الدخان . كنا نوقد النار في الكوخ نفسه، والأنصار يتحلقون حول النار في شكل مروحة: أرجلهم الى النار، ورؤوسهم الى حاشية الكوخ . فكانت الأرجل تحمي قرب النار، بينما الرؤوس في الزمهرير . وكان يحدث أحيانا هكذا: يفيق أحدهم ويهم بالنهوض فلا يقدر أن ينهض برأسه وكأنما تسمر الى الأرض، ذلك لأن الجليد ممسك بشعره . وفي الليل كان ينتفض واحد من هنا وآخر من هناك واقفا من شدة البرد، ويقترب من النار ليتململ الى جانبها، ثم يستجمع أوصاله ليتكور بجسمه وينام من جديد. وكانت ثمة مصيبة أخرى: فحسب قوانين الفيزياء ينبغي للدخان أن يمر عبر الكوة المفتوحة في السقف، لكن الدخان عندنا لم يكن ليصعد الى أعلى، بل يضبب داخل الكوخ لتزعج فيه العيون . فلربما لم نفلح في بناء أكواخنا حسب القواعد الصحيحة والصحية للبناء .

وبكلمة موجزة، كانت ثمة مصائب كثيرة. وقررنا أن نلجأ الى قرية رودنيا – بوبروفسكايا طيلة وقت الزمهرير الشديد . كانت القرية أمينة الجانب، ففيها لنا «منارة» منذ أمد بعيد نظمت قوى الشبيبة المحلية للدفاع ضد الألمان والشرطة .

وفي ١٩ كانون الثاني (يناير) نزحت الكتيبة الى رودنيا – بوبروفسكايا .

واستقبلنا الأهلون هناك استقبال الضيوف الأعزاء .

Twitter: @ketab_n

فقد احتشدت جماهير كبيرة من الفلاحين في ظاهر القرية لاستقبالنا، وشيعونا الى وسطها . وأخذ الأولاد يركضون أمامنا وحملوا هراوات بدلا من البنادق ويسايروننني وستيخوف.

وفي الساحة كان ينتظرنا سكان القرية، صور قادة الحزب والحكومة قد رفعت على بناية مجلس بلدية القرية . فقد كان الشعب ينتظر يوم قدوم الجيش السوفيتي وكله ثقة بذلك اليوم، فظل محافظا على تلك الصور .

ووقف فلاح عجوز الى جانب الطاولة المغطاة بقماش أحمر وقد رفع بين يديه صينية فيها خبز وملح .

وعندما وصل رتلنا وتوقف، خرج ذلك الفلاح لاستقبالنا وقال:

– هاكم خبزنا وملحنا، أيها الضيوف الأعزاء! تفضلوا، وانزلوا عندنا على الرحب والسعة . سنوفر لكم الطعام والدفء . اننا نعرف كتيبتكم جيدا ونقدرها حق قدرها . انكم لن تسيئوا الينا، ولن تسلمونا غنيمة للألمان وللعصابات المجرمة . ايه، اذا أزفت الساعة لقتال أولئك الأعداء الملعونين، فسنقاتل جميعا الى جانبكم .

أنهى الفلاح قوله، وتقدم بالخبز والملح الى ستيخوف، فتناول هذا تلك الصينية بين يديه وأجاب بكلمة بسيطة مختصرة .

انصرف الأنصار من الصفوف بايعاز مني، وبلحظة خاطفة كانوا جميعا قد اختلطوا مع الفلاحين . وبدأت تلك الأحاديث الشيقة المفعمة بالحرارة وكأنما حصل اللقاء مع أصدقاء قدامى!

وعلى سبيل النكتة دعونا قرية رودنيا – بوبروفسكايا «عاصمتنا» . ففيها كان مركز كتيبتنا، بينما كانت «منارتنا» تحيط بها من كل جانب موزعة في القرى الكبيرة التابعة لنواحي سارني وراكيتنويه وبيريزنو وليودوويبول . لقد كنا في الواقع ممثلين للسلطة السوفيتية في ذلك المحيط كله .

وحصرنا في أيدينا كل مراكز انتاج الألبان التي كانت

Twitter: @ketab_n

تعمل للهتلريين، ولم يعد بامكانهم الحصول على أي شيء منها .واستولينا على معمل في ميخالينو لنشر الأخشاب، وعينا مديرا منا هناك، وصرنا نعطي الأخشاب الى من يفتقر اليها من الفلاحين وحدهم . ثم قضينا على استثمارات الألمان الممتدة على الضفتين الغربيتين لنهري سلوتش وغورين. وكنا قد طهرنا جهاتنا من آثارهم، فأصبحت نواحي كثيرة نشرف عليها نحن الأنصار .

وتدفقت الأنباء من روفنو على «العاصمة»، ومن مراكز النواحي ومحطات سكك الحديد، فكنا ننقلها في الحال بدورنا الى موسكو .

وعلى بعد خمسين كيلومترا الى جنوب رودنيا — بوبروفسكايا أقمنا «منارة» للعمليات بقيادة فرولوف، حيث استمر تشكيل الفصائل المحلية المسلحة لتشترك في تنفيذ المهمات مع جماعاتنا .

كانت الحراسة حول «عاصمتنا» شديدة أمينة، فالمخافر تحيط بها من كل الجوانب . وكان الشباب من الأهلين يقومون بنوبات الحراسة جنبا الى جنب مع رفاقنا الأنصار، وبدوريات التفتيش في داخل القرية . وكان هذا مما يبعث على الاطمئنان، لأن الأهلين هناك كان من السهل عليهم أن يتميزوا الأغراب فورا .

وعند القرية بالذات هيأنا كل شيء لاستقبال الطائرات .

كانت موسكو كالأم الرؤوم تبعث الينا بالهدايا كل ليلة تقريبا. تنفتح المظلات الهائلة في الجو، وتتساقط الأمتعة الى جانب النيران في أكياس طرية لينة ملأى بالملابس العسكرية والثياب الدافئة، وبالمآكل وعلب السجائر .

واستعاد الأهلون حيويتهم ونشاطهم اثر قدومنا . وصار الفلاحون يعلمون عن طريقنا كل شيء عن الوضع في الجبهة.

في تلك الأيام كانت الجيوش الفاشية الألمانية محاصرة ضمن نطاق حديدي في ستالينغراد ضربته حولها قواتنا . وكان القضاء المبرم على تلك القوات الألمانية التي تعد ثلاثمائة ألف مقاتل مسألة وقت وحسب. وفي كانون الثاني (يناير) استطاعت قوات جبهة لينينغراد أن تفك جزء

Twitter: @ketab_n

الحصار عن المدينة . وشن الجيش السوفيتي هجوما عنيفا في شمال القفقاس كذلك .

وتكونت وشائج وعلاقات طيبة بين الأنصار والأهلين . وصار كل محارب من الأنصار يساعد رب البيت الذي يأويه اليه في كل الأمور .

وفي بداية عام ١٩٤٣ تمركزت أعداد وفيرة من الأنصار في نواحينا . فوصل فوجان من تشكيلة الأنصار لبطل الاتحاد السوفيتي الجنرال سابوروف . وفي فورونوفكا ، ليس بعيدا عنا، كانت كتيبة العقيد بروكوبيوك . ثم كانت هنالك مجموعات أخرى من مجموعات الاستطلاع والتخريب .

ان تجمعا للأنصار كهذا كان يخيف الألمان . لقد أبلغنا نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف، الذي كان موجودا آنذاك في روفنو، أن ايريخ كوخ نائب هتلر في أوكرانيا أصدر أوامره «لتطهير» غابات سارني من الأنصار . وتنفيذاً لأمر كوخ جمع بيتس رئيس شرطة روفنو ألفي شخص من الاس-اس، وضم اليهم أفراد العصابات القوميين، ووزع حامياته على مراكز النواحي المحيطة بنا.

اتخذنا التدابير المعاكسة، وجعلنا السكان المحليين ينشرون اشاعة فحواها أن الأنصار انما يدبرون هجوماً على مراكز النواحي . وبلغت تلك الاشاعة مسامع الهتلريين، فبدلا من أن يهجموا أخذوا يهيئون أمور الدفاع . وكانت البيوت التي يسكنونها ذات أبواب مصفحة بطبقة سميكة من الحديد . اما النوافذ فقد جعلوا في ستائرها المصفحة كذلك بالحديد فتحات للرشاشات . وسيجوا البيوت بالأسلاك الشائكة، وحفروا حولها الخنادق وخنادق للاتصال أيضا . فانطلت عليهم حيلتنا وشرعنا نكمل اعمالنا .

وفي نهاية كانون الثاني (يناير) ابلغنا كوزنيتسوف من جديد من روفنو أن الهتلريين يهيئون حملة تأديبية هائلة، وأنهم استدعوا قطعات الجيش الموجودة في جيتومير وكييف، وأنهم يعدون هجوماً من عدة جهات .

عندئذ شرعنا نسد الطرق بحواجز من الأشجار بمساعدة

Twitter: @ketab_n

الأهلين لنقطع كل الطرق المحتدة حول القرى التي توجد فيها «مناراتنا» ، وحول رودنيا – بوبروفسكايا .

وتحرك القتلة باتجاه رودنيا – بوبروفسكايا من أربع جهات، لكننا لم ننتظر وصولهم. وقد كان بامكاننا ان نسبب لهم خسائر فادحة لكننا لم نرد أن نجر الأخطار الى الأنصار، وأن نعرض سكان القرية للكوارث .

خرجنا من رودنيا – بوبروفسكايا، وخرج معنا القسم الأكبر من أهاليها بأمتعتهم الى الغابة، وساقوا قطعان مواشيهم الى هناك وكونوا معسكرهم الـ «مدني» .

بدأت الحلقة تضيق حول رودنيا – بوبروفسكايا، وسرعان ما دخلها القتلة، لكننا كنا قد غادرناها جميعاً، فخرجوا منها ليجدوا في أثرنا، وحاولوا أن يحاصرونا في قرى ومزارع أخرى، لكننا كنا نمرق من شباكهم . وهكذا صرنا نلعب مع الألمان لعبة «القط والفأر» . واعترضتهم حواجزنا من الأشجار، فسلطوا عليها نيران أسلحتهم وفي خلدهم أننا كنا نتوارى خلفها . ثم سطوا عليها فوقعوا على الألغام . كنا نميز مكان وجودهم عن طريق دوي رصاصهم والانفجارات، بينما هم كانوا يتخبطون خبط عشواء وكأنهم معصوبو العيون .

وخرج فوجان تابعان لتشكيلة سابوروف مع كتيبة بروكوبيوك الى الشمال حيث الغابات الكثيفة الواسعة . وكنا لا نزال ننتقل من عزبة الى أخرى مستمرين في تلك «اللعبة» لا على سبيل المزاح طبعاً، وانما كان لنا ثمة مآرب أخرى . فقد كان الأصدقاء موزعين في كل مكان من تلك النواحي، وكانت «مناراتنا» موزعة على كل القرى هناك . وغالباً ماكان يفد الينا السعاة من قبل كوزنيتسوف من روفنو . فلم يكن في مقدورنا ترك ما نظمناه من اعمال .

وكان رفاقنا من المستطلعين والسعاة يشتبكون مع أولئك القتلة من حين لآخر، فيتبادلون معهم اطلاق النار بعض الوقت ثم ينسحبون من المعركة . لكن اصطداما كبيرا وقع.

لم يصلنا منذ ثلاثة أيام متتالية أي ساع من «منارة فعالة» لفرولوف . فخلت أن خطرا ما يهدد فرولوف، وأرسلت

Twitter: @ketab_n

لمساعدته قوة قوامها خمسة وستون محارباً . وفي طريقهم اليه صادفوا رجال الحملة التأديبية وفتحوا عليهم النيران . لكن الهتلريين أوقفوا فجأة اطلاق النار منذ بدء المعركة وانسحبوا بسرعة . أدهش هذا الأمر رفاقنا ولم يقرروا اللحاق بهم . ثم علمنا في اليوم التالي أي سر كان يكمن في ذلك الانسحاب السريع . انها لم تكن مجموعة عادية من القتلة وانما كان الجنرال الألماني قائد تلك الحملة في طريقه من فورونوفكا الى رودنيا – بوبروفسكايا يرافقه مائة من رجال حاميته . وقتل كل من الجنرال وياوره منذ اطلاق الرصاصات الأولى . فسيطر عليهم الذهول واوقفوا القتال واسرعوا في نقل جثة قائدهم من ذلك المكان.

وبعد أن أشبع الألمان نزواتهم في «قتال» حواجز الأشجار توجهوا الى جيتومير . وفي أوائل شهر شباط (فبراير) وجدنا أنفسنا مرة أخرى في أحد معسكراتنا القديمة في الغابات الذي لا يبعد كثيرا عن رودنيا – بوبروفسكايا . وفي تلك الأثناء تلقينا باللاسلكي نبأ فاقاً بخطورته كل عادة ويفيد بأن الجيوش الألمانية الممتازة أبيدت في ستالينغراد ابادة تامة!

وسرعان ما بلغتنا أنباء اعلان الألمان للحداد . فقد أصدر المحتلون أمرا يحظرون فيه على الناس، خلال ثلاثة ايام، رؤية كل ما يجلب للنفس المسرة. وكان ينبغي على كل ألماني أن يضع شارة الحداد على كمه الأيسر، بينما كانت النساء الألمانيات يرتدين الملابس السوداء. وأصدر الألمان أوامرهم الى الأهلين جميعا لارتداء الملابس السوداء دون أن يعرفوهم على سبب اعلان ذلك الحداد . وانتشرت الاشاعات قائلة ان هتلر قد مات .

وبدأ الفلاحون يرددون:

– الحمد لك يا رب على تخليصنا من هذا السفاح .

ونحن كذلك لم نكن قد عرفنا سبب اعلان الحداد آنذاك حتى عاد الينا كوزنيتسوف من روفنو وأخبرنا بأن ذلك الحداد كان قد أعلن بعد أن سحقت الجيوش الهتلرية التي كان قوامها ثلاثمائة ألف في ضواحي ستالينغراد.

Twitter: @ketab_n

وتحدث الينا نيقولاي ايفانوفيتش عن أشياء كثيرة ممتعة: لقد نشطت حركة السير في الآونة الاخيرة عبر روفنو وزدولبونوفو نشاطا لم يعهد من قبل . سكك الحديد وطرق السيارات جميعها تغص بالقوات الألمانية . مفوض الرايخ في أوكرانيا ايريخ كوخ أصدر أمراً لاتخاذ «تدابير فوق العادة» بالنسبة للنواحي التي لم تدفع ماعليها من الضرائب العينية والمالية . وكان قد صدر أمر كذلك لابادة الأنصار «بصرامة» .

-

مأثرة

لم يعد المستطلعون الى الظهور في «منارة» جيغادلو . لقد خشينا أن تكون ثرثرة أحد أنصارنا الذي أبعدناه قد أدت بالألمان الى تتبع آثارنا. فأبلغنا جيغادلو نفسه أنه ما من أحد من الأنصار سوف يذهب اليه لحين من الزمن .

لكننا كنا مضطرين الى اقامة «منارة» بين روفنو والمعسكر . لذا قررنا اقامة «منارة» سرية جديدة في عزبة أخرى بالقرب من الغابة كيما يسهل الاختفاء ابان الخطر .

وكانت هذه «المنارة» الجديدة تبعد ثلاثين كيلومترا عن روفنو، وتضم خمسا وعشرين من المحاربين الأشداء ومعهم الجياد بكامل العدد اللازمة للعربات . وجعلنا هناك مركبة جليد مفروشة بالسجاد خاصة بكوزنيتسوف لتقله الى روفنو .

وأثناء وجود كوزنيتسوف في روفنو كان كوليا بريخودكو صلة الوصل بينه وبين «المنارة» . فكان يأتي بكل ما يستلم من كوزنيتسوف الى «المنارة» على عربة أو دراجة أو راجلا في بعض الأحيان . وبينما يأتي به ساع آخر من «المنارة» الى المعسكر ويعود، يكون بريخودكو قد ارتاح من عناء السير واستعاد قوته، فيعود الى روفنو بظرف مني الى كوزنيتسوف . وكان أحيانا يضطر للقيام بتلك المهمة مرتين في اليوم الواحد . وكل شيء كان يتم لنا على أحسن ما يرام . ولم يكن ظهوره في روفنو باعثا على أي

Twitter: @ketab_n

ارتياب . ولقد تحرى خفراء الأعداء هويته عدة مرات، كانوا يعيدونها اليه في كل مرة دون أن يخامرهم الشك فى أمره .

لكننا عرفنا طبع كوليا بريخودكو. فلم يكن يستطيع رؤية هتلري أو شرطي ويدعه في سلام . وبالرغم من أنه كان يخفي عنا تصرفاته فقد علمنا منها شيئا ما .

خرج بريخودكو ذات مرة من روفنو على عربة، فلاحظ شرطيين يسيران خلف عربته، وخيل اليه أنهما يلاحقانه . فبدلا من أن يحث الجوادين على الاسراع ويولى بعيداً عنهما في سلام فقد تعمد السير بطيئاً، والشرطيان لا يزالان في أثره.

ولاح له من الأمام جسر على نهر غورين، وعلى بعد نصف كيلومتر من الجسر توقف بريخودكو وتظاهر باصلاح شؤون الأحزمة بالرغم من أن كل شيء فيها كان على ما يرام . ثم حينما دنا الشرطيان من العربة قال لهما بريخودكو :

– تفضلا، أوصلكما .

فصعدا تلك العربة ، ووضعا بندقيتيهما جانبا . فسألهما بريخودكو:

– ماذا ، أفي الشرطة تخدمان ؟

– نخدم .

– الى أين تقصدان؟

– نجمع الناس لارسالهم الى ألمانيا . هنا، سوف نسوقهم من احدى العزب . انهم لا يذهبون طوعا، – أوضح له الشرطي.

فقال له بريخودكو في شيء من التعاطف :

– شعب غير واع!

وفي تلك اللحظة كانت العربة تعبر فوق الجسر.

فاستطرد الشرطي :

– حقا، انه شعب لا يفقه شيئاً، – وتوجه بالقول الى بريخودكو – فمثلا أنظر اليك، فأجدك ولداً صحيحاً قوياً، وأية جدوى منك هنا؟ هيا تطوع بنفسك للسفر . فهناك، أيها الأخ، سوف تعيش حياة الغناء وستعود ملاكا الى أهلك . أنت متزوج؟

Twitter: @ketab_n

كانت العربة في تلك اللحظة قد عبرت حتى منتصف الجسر .

وقبل ان يحصل على الجواب حتى:

– ارفعا أيديكما ، أيها السافلان ! – صاح بهما بريخودكو وقد أشهر مسدسيه .

فرفعا أيديهما صاغرين وقد استبد بهما الذعر .

فأمرهما بريخودكو :

– انزلا من العربة، أيها الخائنان المباعان!

وحينما نزل الشرطيان من العربة مرفوعي الأيدي تلقيا ايعازاً جديداً:

– الى الماء، أيها السافلان!

وتجب الاشارة الى أن هذا حدث في أوج فصل الخريف عندما كان مستوى مياه النهر مرتفعا الى ارضية الجسر .

وكرر بريخودكو أمره مصراً على التنفيذ :

– اقفزا، أقول لكما، والا سأطلق النار!

واضطر الشرطيان الى القفز تحت التهديد بالنار .

وفي الماء أرادا أن ينجوا بنفسيهما، فتشبث كل منهما بالآخر وغرقا، حتى غطسا معا الى القاع.

وبقيت بندقيتاهما في العربة. وبما أنه كان لا يجوز للنصير اخفاء أي شيء من الغنائم فقد وجد بريخودكو نفسه مضطراً لأن يعترف مفصلا بكل ما حدث.

وأوضحنا له طويلا في مقر القيادة كيف أن مثل هذا العمل محظور، وأنه لا يملك الحق في أن يغامر بمصير المهمة التي تسلم اليه، وأن المعلومات التي يوافينا بها من روفنو والتي نبلغها بدورنا الى موسكو لتهمنا أكثر من الشرطة أنفسهم.

– انني أفهم هذا كله، أيها الرفيق القائد، لكنه اما جد لي حادث كهذا لا أستطيع أن أكبح جماح نفسي. – هكذا صار كوليا يبرر كل شيء، وأعطى كلمة شرف بألا يعود الى مثل فعلته ثانية: – افضل الموت على أن أسيء الى قضيتنا.

Twitter: @ketab_n

– لا، الموت لا يجدي فتيلا، بل حري بك لو تكون أكثر انتباها ويقظة.

وينبغي القول ان كوليا بريخودكو بر بكلمته. لقد تردد بعد ذلك كثيرا ما بين «المنارة» وروفنو، وكان دائما يوافينا بالمعلومات في الوقت المناسب، وظل الاتصال مستمراً. وفي ٢١ شباط (فبراير) سلمت الساعي من «المنارة» ظرفا ليوصله الى كوزنيتسوف:

– أنت سوف تحمل ظرفا على غاية من الأهمية، فاذا ما سقط في أيدي العدو فاننا سوف نخسر أعز رفاقنا الينا. انقل هذا الى بريخودكو.

وفي صباح يوم ٢٢ شباط (فبراير) كان بريخودكو قد تسلم ذلك الظرف، وانطلق به الى روفنو.

ظل كوزنيتسوف ينتظر النهار كله دون أن يصل بريخودكو. ثم انتظر حتى صباح اليوم التالي ولم يبد لبريخودكو أثر. وقبل أن تبلغ الساعة الثانية عشرة من ظهر ذلك اليوم كانت قد انتشرت في المدينة أقوال كثيرة. فبعض الناس يقولون ان رجلا أوكرانيا قضى على كثير من الألمان عند قرية فيليكي جيتين، ثم قضى قتيلا. وكان ثمة آخرون يرددون بأن نصيرا من الغابة اشتبك في معركة مع المنكلين الليل كله، وتمكن من القضاء على كثيرين منهم. وكانوا جميعا يؤكدون بأن شخصا ما لوحده كان يدير تلك المعركة ضد الألمان.

وفهم كوزنيتسوف لتوه أن تلك الاشاعات انما هي عن بريخودكو. فقد كان عليه أن يمر في ذلك المكان ذاته وفي الوقت نفسه. ومن غير بطلنا الأسطوري بريخودكو يستطيع أن يخوض بمفرده معركة ضد جماعة كاملة من الألمان!

كان نيقولاي ايفانوفيتش يعرف بريخودكو جيداً. لقد توطدت صداقتهما عندما كانا لا يزالان في موسكو. وقدما بالطائرة الى الكتيبة معا، وكانا يشاركان في عمليات القتال جنباً الى جنب. ولم يخامر كوزنيتسوف الشك لحظة واحدة في أنه ان كان بريخودكو قد وقع في أيدي الأعداء، فهو سوف لن يشي برفاقه ولو تعرض لأشد ضروب التعذيب

Twitter: @ketab_n

والاهانة. لكنه ثمة سؤال: ان كان بريخودكو قد قتل فعلا فهل تمكن يا ترى من اتلاف ذلك الظرف الذي ينتظره كوزنيتسوف كثيرا؟

اتخذ نيقولاي ايفانوفيتش كل وسائل الحيطة والحذر، وأرسل الى قرية فيليكي جيتين كازيمير دومبروفسكي الذي له بعض الأقارب هناك .

ثم تحدث الينا دومبروفسكي نقلا عن شهود العيان عن تفاصيل مقتل بريخودكو .

لقد كان نيقولاي يركب عربة كعادته، وعند قرية فيليكي جيتين أوقفه نفر من رجال الدرك والشرطة لا يقلون عن العشرين شخصا .

فتوقف بريخودكو وأبرز هويته التي تؤكد أنه من السكان المحليين . وكانت تلك الهوية قد شهدت كثيرا من التحريات دون أن تثير أي لبس في صحتها . ويبدو أنها لم تبعث على الشك تلك المرة أيضاً، لكن الهتلريين قرروا تفتيش العربة .

ولم يكن في استطاعة بريخودكو ان يأذن لهم بذلك: ففي العربة، كما كانت هي العادة دائما، كان يخبىء تحت القش رشيشاً وبعض القنابل المضادة للدرع .

— وعما يمكنكم أن تبحثوا هنا؟ — حاول نيقولاي الاعتراض .

— ليس هذا شأنك . يجب أن نفتش .

عندئذ أخرج بريخودكو رشيشه من العربة ورش رجال الدرك رشة كبيرة، فأردى بعضهم في مكانهم، وهرب الباقي ليلوذوا بركن أحد البيوت، ثم فتحوا عليه النيران .

قفز بريخودكو الى ظهر عربته وهو يبادلهم اطلاق النار، وحث الجياد سريعا . وهناك أصيب برصاصة سببت له جرحا بالغا في الصدر، لكنه تابع طريقه قاصدا مدينة روفنو .

وعند تخوم القرية فوجىء بسيارة شحن تقل الهتلريين . ففطنوا لأمره، على ما يبدو، وفتحوا نيران رشيشاتهم ورشاشاتهم . وجرح بريخودكو للمرة الثانية، ولم يفكر

Twitter: @ketab_n

بالاستسلام، بل قفز من العربة الى خندق بجانب الطريق، واستمر في اطلاق النار .

دامت تلك المعركة غير المتكافئة زمناً طويلا.

وأصيب بريخودكو للمرة الثالثة . وبينما كان مضرجا بدمائه بدأ يشعر أن قواه تتلاشى شيئاً فشيئاً، فربط ذلك الظرف الى رمانة، وقذفها بيد شل عزمها على الأعداء .

عندما أحاط أولئك الهتلريون الذين بقوا على قيد الحياة نيقولاي ألفوه ميتاً. لكنه لم يمت برصاص العدو، بل أطلق رصاصة في صدغه فكانت آخر رصاصة أطلقها نصيرنا البطل .

ولا داعي للتحدث عن كيفية استقبال الأنصار لنبأ استشهاد كوليا بريخودكو . فقد كان في حياته محاطا بالعطف والحب الأخوي، وكان الأنصار يقصون الأساطير عن بطولته .

لقد قدرت الحكومة السوفيتية مأثرة رفيقنا الوطنية غاية التقدير . ومنحته بعد موته اللقب الرفيع بطل الاتحاد السوفيتي . وصارت وحدة الاستطلاع التي كان بريخودكو أحد أفرادها تحمل اسم بطل الاتحاد السوفيتي نيقولاي تاراسوفيتش بريخودكو .

في محطة زدولبونوفو

لقد كان لنبأ استشهاد نيقولاي بريخودكو أثره العميق ليس لدى أنصار كتيبتنا وحسب. فقد كانت مجموعة الاعمال التخريبية في محطة زدولبونوفو تضم رفاقا عرفوا بريخودكو منذ نعومة أظفاره. فقد ولد وعاش حتى بداية الحرب في تلك المحطة . فكان موته خطبا جللا بالنسبة لسكان زدولبونوفو .

بريخودكو في ذهابه أول مرة الى روفنو عرج على محطة زدولبونوفو وقابل معارفه القدامى دميترى ميخائيلوفيتش كراسنوغولوفيتس واخوي شميريغ . فتبادل نيقولاي معهم الحديث، وأجمعوا على مساعدتنا بكل طيبة خاطر . وعرف بريخودكو صديقه كراسنوغولوفيتس على كل من

Twitter: @ketab_n

كوزنيتسوف وستروتينسكي . وبعد ذلك صار مستطلعانا شيفتشوك وغنيديوك يترددان على تلك المحطة .

وقبيل مقتل بريخودكو، وبتحديد أدق، في نهاية شهر كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٤٢ كانت قد شكلت منظمة تخريبية استطلاعية في زدولبونوفو . وكان يرأسها دميتري ميخائيلوفيتش كراسنوغولوفيتس.

ان محطة زدولبونوفو تشكل عقدة ضخمة لسكك الحديد . فقد كانت تربط ألمانيا بالجبهة الشرقية، تمر بها القطارات العسكرية القادمة من تشيكوسلوفاكيا وألمانيا وبولونيا الى الجبهة وبالعكس و أعداد هائلة من القطارات كل يوم.

ويمكننا أن نتصور مدى أهمية الاعمال التخريبية الاستطلاعية في مثل هذه المحطة، فأخذنا كل التدابير اللازمة لجعل مجموعة كراسنوغولوفيتس التخريبية في غاية السرية . ولم يأت آذار – نيسان (مارس – ابريل) من عام ١٩٤٣ حتى بلغ عدد أفرادها زهاء العشرين شخصا تمكنوا من الاحاطة بأجل الأعمال شأنا في عقدة سكك الحديد .

وكانت تلك المجموعة تضم عمال المحطة وحظيرة القطارات ومحولي خط الحديد، والمفتشين وسائقي القطارات والمراقبين الآخرين .

وقد فرزوا من بين مجموعتهم سعاة خصوصيين للاتصال بكتيبتنا . ومن بين أولئك السعاة ايفانوف المعلم في السابق، ثم صار يعمل عند الألمان في المحطة عاملا بسيطا، واذ كان يستعمل هويته او كما يسمونها «وثيقة التموين» التي منحته الحق في ان يستقل القطارات بكامل الحرية صار يتردد على معسكرنا في انتظام .

وكان ايفانوف يقوم بتنفيذ مهمته البسيطة – لكنها في غاية الخطورة بالنسبة الينا – في دقة لا مثيل لها. وأذكر على سبيل المثال حادثة من بين حوادث كثيرة . ففي أحد أيام الشتاء القارسة لمحت ايفانوف لدى وصوله الى المعسكر يتمسح بأذيال النار وقد ارتعدت فرائصه من البرد . دنوت منه ورأيت أنه كان يرتدي سترته على جسده العاري تماما . ان ذلك الانسان المتو اضع الهادىء لم يرفق

Twitter: @ketab_n

بصحته من أجل تنفيذ المهمة . وبالطبع ، بعد تلك الحادثة أخذنا نهتم بتوفير الملابس لسعاتنا من زدولبونوفو .

لقد كانت كل المعلومات التي توافينا بها منظمة زدولبونوفو على غاية من الأهمية . لقد كانت تعكس واقع المعمل كاملا على عقدة الخطوط: من أين تأتي القطارات والى أين تقصد، ونوع شحناتها . واذا ما مرت القوات كانوا يوافوننا بعددها وصنفها، وأحيانا بأسماء وحداتها، واذا ما كانت تمر معدات من هناك كانوا يبلغوننا عن كيفيتها وكميتها .

وعن طريق معلومات مجموعة زدولبونوفو علمنا في الوقت المناسب بأن القيادة الألمانية التي كان يقلقها الوضع في الجبهة بدأت تنظم الدفاع في منطقتي بيلايا تسيركوف وفينيتسا حيث كان يوجد مقر لقيادة هتلر . والى هاتين المنطقتين بالذات أخذت تفد الوحدات الألمانية العسكرية من ضواحي لينينغراد .

وفي محطة زدولبونوفو كان يمر يوميا ما يقرب من خمس عشرة عربة الى منطقة بيلايا تسيركوف محملة بالأسمنت وبأغطية ذات الكوات للرشاشات المصنوعة من الخرسانة المسلحة وبالأسلحة .

وكنا ننقل تلك المعلومات بانتظام الى موسكو بواسطة الراديو كل خمسة أيام .

لقد كانت منظمة زدولبونوفو تقوم بالأعمال التخريبية الى جانب شؤون الاستطلاع . لقد بدأ أفرادها بالأمور البسيطة: كان رجالها السريون يفكون قضبان سكة الحديد، ويقطعون خراطيم الفرامل من العربات والقاطرات . ثم أتقنوا صنع الألغام من المادة الترينيتروتولويين التي كنا نرسلها اليهم. كانوا يأخذون قطعة من ت.ن.ت ويضعون بها مفجرا . ثم يطلون تلك الكتلة بصمغ أو قار، ويعفرونها بغبار الفحم . وعندئذ تخرج قطعة شبيهة بالفحم ، فيلقون بها في مستودع الفحم للقاطرة . وبينما القاطرة تسير كانت تلك «الفحمة» تقع في النار وتنفجر ، فتحول مرجل القاطرة الى شظايا متناثرة .

Twitter: @ketab_n

وأرسلنا الى زدولبونوفو عن طريق ايفانوف خمسين لغما مغناطيسيا بطيء الانفجار . وكانت تلك الألغام الصغيرة المتنقلة التي يسهل نقلها من مكان لآخر تنجذب الى كل ما يمت الى الحديد بصلة . وكان يوضع في اللغم مفجر مع آلية توقيت خاصة يمكن توقيتها على ثلاث أو ست أو اثنتي عشرة ساعة أو على أكثر من ذلك أيضا .

وكانت تلك الألغام المغناطيسية تستخدم بفعالية كبيرة . فقد كان يوضع اللغم مثلا تحت مرجل القاطرة ويوقت الجهاز ، ثم ينطلق القطار . وفي الطريق، وبعد أن يكون قد قطع القطار ثلاثمائة أو أربعمائة كيلومتر الى الشرق من زدولبونوفو تنفجر القاطرة . وأنى لهم آنذاك البحث عن الفاعل!

ثم توصلوا بعد ذلك الى وضع الألغام المغناطيسية تحت صهاريج الوقود . وعند الانفجار صارت النيران تلتهم العربات جميعا.

لقد سببت مجموعة زدولبونوفو للألمان خسائر فادحة يصعب حسابها . ولسنا الآن في معرض الطلب من الألمان كي يحسبوا الأضرار التي لحقت بهم في عقدة سكك الحديد، والتي كانت من فعل أيدي أبطالنا السريين الأشاوش .

وقد تمكن اولئك الرجال السريون خلال ثلاثة أشهر في حظيرة القاطرات في محطة زدولبونوفو من أن يمنعوا سبعين قاطرة من الخروج الى سكة الحديد لسبب او لآخر : فقد كانوا يصلحون شيئا ويفسدون غيره . لقد كانت تلك الأعمال لوحدها بمثابة الأعمال التخريبية الكبيرة . وكان اجل عمل قامت به تلك المجموعة السرية نسف جسر كبير تعبر عليه سكتان متوازيتان على سكة حديد زدولبونوفو — كييف والقائم على نهر غورين . فقد كانت تعبر على ذلك الجسر القطارات بين كل عشر وخمس عشرة دقيقة الى الجبهة ومنها . فاذا كانت القطارات ترد الى محطة زدولبونوفو من جهات أربع، فقد كانت تذهب الى الشرق عن طريق ذلك الجسر وحده . وكانت الحراسة القائمة على ذلك الجسر جد شديدة . فقد كان الخفراء يقفون عند نهايتيه من الجانبين .

Twitter: @ketab_n

وفي أركان الجسر كانت قد ركزت الرشاشات، وكان كل ما يحيط بذلك الجسر خاضعا للمراقبة الشديدة .

لقد علمنا أن بعض الجماعات من الأنصار حاولوا نسف ذلك الجسر، لكن محاولاتهم باءت بالفشل وخسروا عددا من الضحايا . فقررت قيادة كتيبتنا القيام بذلك العمل التخريبي .

كان مستطلعنا كوليا غنيديوك قد اقام بمحطة زدولبونوفو وتعرف عليها وثيقا . وهو نفسه الذي وضع خطة عملية نسف الجسر القائم على نهر غورين .

وبعد بحث طويل تم العثور على مفتش القطارات البولوني الذي كان يعمل ضابطا للفرامل في القطارات الحربية . فقد كان يكبح من سرعة القطار بالفرامل أثناء هبوطه من الجبل ، وعلى العكس يحرره من الفرامل أثناء الصعود . وكانت مهمته أن يعطي الاشارات الى سائق القطار أبان الخطر . لقد كان ذلك المفتش موضع ثقة خالصة للألمان . وكانوا يكتبون على هويته «فولكسديتش» — أي أنه ألماني الأصل .

وكان قد تم تجهيز لغم كبير لعملية التفجير، يوضع في حقيبة مع مفجر من رمانات «ف — ١».

ففي احدى السفريات الدورية اتخذ المفتش مكانه عند الفرامل وبجانبه حقيبتنا. وعندما بدأ القطار في عبور الجسر، نزع المفتش مسمار الأمان من اللغم وقذف بالحقيبة في وسط الجسر الذي تمر عليه القطارات الى الجبهة. وبعد ثوان معدودة دوى الانفجار، وانهدّت حمالة الجسر الوسطى وتطايرت العربات.

وقد شهد المستطلعون القابعون في كمينهم على بعد كيلومتر واحد من الجسر ذلك الانفجار.

ثم أمضى الألمان ثلاثة أسابيع في ترميم جسر غورين من جديد.

لقد تمت العملية بمهارة فائقة حتى أن الألمان لم يتمكنوا من أن يكشفوا احدا من رجال مجموعة زدولبونوفو السريين.

Twitter: @ketab_n

لقد كثرت مهام اللاسلكيين نتيجة لاتساع مجال نشاطاتنا. فقد كان آنفا يقوم بالاتصال مع موسكو عامل لاسلكي واحد ، ويجري الاتصال مرة واحدة كل يوم . أما الآن، وبعد أن ازدحمت لدينا الأنباء الواردة من روفنو، سارني، زدولبونوفو، والمناطق الأخرى، فقد صار من الضروري أن يقوم بالاتصال مع موسكو عاملان لاسلكيان أو ثلاثة في وقت واحد.

لقد كانت من الممكن تعمل لدينا في المعسكر محطة الراديو وحدها. وكيلا يعرقل عملها على اللاسلكيين الآخرين كان عليهم أن يبتعدوا عنها مسافة لا تقل عن خمسة كيلومترات.

لم يكن عدد اللاسلكيين لدينا وفيرا ، لكنهم كانوا يؤلفون جماعة متماسكة متراصة، تشدهم روابط صداقة متينة. وقد كانت لديهم قوانينهم الخاصة بهم: المحافظة على الأجهزة في وضع مهيأ دائما؛ الاستعداد في كل لحظة لرفع الجهاز اللاسلكي وحمله فوق الكتفين والسير به الى حيث يقتضي الأمر؛ الحفاظ على الشيفرات السرية كما لو كانت أشياء مقدسة؛ التدريب يوميا على المفتاح، والاستقبال بالسمع.

وحدث ذات مرة ما يلي: فبينما كان العاملون اللاسلكيون ينقلون أخبار مجموعة زدولبونوفو أرسل الينا نيقولاي ايفانوفيتش من روفنو أخبارا سيئة باعثة على القلق. ومفادها أن الغستابو أرسل الى منطقة غابات سارني ثلاث سيارات مع أجهزة الترصد اللاسلكي وأرسل كذلك الى كل من بيريزنو وسارني وراكتنويه حملات تأديبية .

وقد تمكن الألمان بواسطة الترصد اللاسلكي تحديد أماكن وجود أجهزتنا اللاسلكية بالضبط، وبالتالي مكان وجود كتيبتنا . لقد كانت غايتهم من ارسال أجهزة الترصد اللاسلكي وحملات التنكيل الى نواحينا بينة واضحة: تحديد مكان أجهزة لاسلكية، وتطويق كتيبتنا وابادتها تماما.

ثم تأكدت لدينا صحة ما وافانا به نيقولاي ايفانوفيتش. ففي اليوم التالي لاستلامنا رسالته أبلغنا المستطلعون أن

Twitter: @ketab_n

سيارة ما وصلت الى قرية ميخالين تحت حراسة مشددة من الألمان. ومع الفجر خرجت الى ضواحي القرية دون أن يسمح لأحد بالاقتراب منها مسافة كيلومترين. وعلاوة على ذلك فقد كان الألمان يسيرون في مجموعات عبر الدروب في الغابات مع أجهزتهم وسماعات اللاسلكي.

وما العمل؟ مستحيل أن نقطع الاتصال مع موسكو، والاستمرار في الاتصال كان يعني فضح مكان المعسكر. وتفتقت حيل اللاسلكيين أنفسهم عن مخرج من ذلك المأزق.

فقالت لي ليدا شيرستنيفا:

– أيها الرفيق القائد! لقد فكرت مع الجماعة، واليك ما توصلنا اليه. يمكننا أن نخرج في ليلة هذا اليوم الى مسافة تبعد من عشرين الى خمسة وعشرين كيلومترا عن المعسكر، وكل منا سوف يذهب في اتجاه مغاير للآخر. فنقوم بالاتصالات اللازمة ثم نرفع الأجهزة ونعود بها أدراجنا الى المعسكر. وغدا سوف نعمل في أماكن أخرى. فليحاول الهتلريون ضبطنا!

وهكذا كان.

فقد كان اللاسلكيون يخرجون في غضون عدة ايام متتالية بحماية بعض الأنصار الى اتجاهات مختلفة، وكانوا يتنقلون من مكان الى آخر، ولم تنحصر أعمالهم في تنفيذ مهمة الاتصال مع موسكو وحسب، وانما كانوا يحددون مواعيد أخرى للاتصال.

لقد أنقذتنا الأجهزة اللاسلكية «المتنقلة»، وأصيب عاملو الترصد اللاسلكي الألمان بخيبة ذريعة . فحينا يحددون اتصال محطات الأنصار في مكان، وحينا آخر في مكان آخر مغاير للأول تماما . فأخذ المنكلون يحيطون بالأماكن الخالية ويضبون عليها حممهم.

ثم قررنا أن نضع لتلك الحيلة حدا، ونصبنا كمينا لعاملي الترصد اللاسلكي الفاشيين ، لكنه في الحقيقة لم يتم الاستيلاء على أجهزة الرصد اللاسلكي ، بل أصيبوا بالذعر لدى رؤيتهم أنصارنا وكفوا عن تصيد محطاتنا اللاسلكية مرة أخرى.

Twitter: @ketab_n

مارفا ايلينيتشنا ستروتينسكايا جاءت الى كوخ القيادة. لقد أذهلني هذا الأمر. أي شيء جعلها تودع حياءها لتقف أمامي؟ لقد كان فلاديمير ستيبانوفيتش يقوم بايصال مطالبها الي حتى هذه اللحظة.

كانت النار تستعر داخل الكوخ، وتستلقي حولها جذوع الأشجار التي نستخدمها بمثابة المقاعد. فأشرت الى أحد الجذوع وقلت:

– اجلسي يا مارفا ايلينيتشنا!

فجلست متباطئة وقالت:

– لن أطيل عليك، جئت في حاجة، أود أن أرجو ارسالي الى لوتسك.

وكنا في ذلك الحين نقوم بتجهيز جماعة كبيرة من الأنصار لارسالها الى منطقة لوتسك. كان ينبغي أن نتعرف على الوضع في تلك المدينة، وأية مؤسسات للألمان فيها، وأية حامية، وأية قيادات. ثم كان ينبغي أيضا أن نستطلع الغابات في تلك الناحية لتكون كتيبتنا على بينة من الأمر عند تحركها الى تلك المنطقة.

كانت المسألة شديدة التعقيد . فقد كانت تفصلنا عن لوتسك مائتا كيلومتر، والطريق الى هناك يستغرق منا ما لا يقل عن خمسة أيام . لكن الصعوبة في الأمر لم تنحصر في الزمان والبعد وحسب ، وانما كان من الممكن أن نقع على الألمان بين كل خطوة وأخرى .

لقد تم اختيارنا لرجال تلك الجماعة في دقة وحذر شديدين . وآثرنا أولئك الذين كانوا على علم كامل بالمدينة، وكان من أوائل المتطوعين كل من يادزيا قريبة آل ستروتينسكي، وروستيسلاف ستروتينسكي وعن طريقهما، على ما يبدو، عرفت مارفا ايلينيتشنا كل شيء.

قلت لمارفا ايلينيتشنا:

– مارفا ايلينيتشنا، لا داعي لا رسالك الى لوتسك، فأنت أضعف من ذلك، وتقدمين هنا فوائد جلى.

Twitter: @ketab_n

– وأية فوائد فيما أقوم به هنا! كل انسان يستطيع أن يطبخ ويغسل ، وأما فيما يتعلق بقواي ، أرجوك أن تطمئن اليها ، فأنا قوية ويمكنني أن أفيد أكثر من الشاب نفسه . ان لي أقارب في لوتسك وأصدقاء ، فيمكنني أن أتعرف على كل شيء بواسطتهم ، وأن أتفق مع أي انسان ترومون .

– وما العمل مع الصغار ؟ – كنت أعني طفليها الصغيرين فاسيا وسلافا .

– ستهتم بأمرهما كاتيا .

– لكنه أمر في غاية الخطورة .

– الله رحيم . ومن سيظن بانني نصيرة!

ونظرت الى مارفا ايلينيتشنا نظرة يفعمها اعجاب وتقدير . نظرت الى وجهها الطيب وصرت أفكر بصورة لاشعورية: «كم من القوة والشهامة تكمنان في هذه المرأة السوفيتية!»

وقلت لها:

– حسنا ، سأستشير الرفاق .

وخشيت مارفا ايلينيتشنا أن نرفض ارسالها فارسلت الي زوجها فلاديمير ستيبانوفيتش ، ولم أكن قد قررت شيئا ما جازما بعد .

وبعد أيام قلائل أبلغني تسيسارسكي أن مارفا ايلينيتشنا أصيبت بالزكام وأن حالتها الصحية سيئة ، فقررت اغتنام تلك الفرصة وأرسلت فرولوف الذي عيناه آمراً لتلك الجماعة ليبلغها بأننا سوف لن نرسلها الى لوتسك .

ولم يكد فرولوف يعود حتى كانت مارفا ايلينيتشنا نفسها تهرع الي والدموع تملأ مأقتيها:

–أنا عندي زكام بسيط ، وغدا سوف يزول .

وأخذت تلح علي وتلحف في الطلب حتى اضطررت أخيرا الى الموافقة .

وفي أواسط شهر شباط (فبراير) توجه خمسة وستون رجلا من أنصارنا الى لوتسك .

Twitter: @ketab_n

وقد رافق فلاديمير ستيبانوفيتش زوجته مشيعاً ومعه أطفاله الصغار الى مسافة بعيدة عن المعسكر .

ومر أسبوعان، فتلقينا أنباء تفيد بأن الجماعة مرت بسلام الى منطقة لوتسك وهي تقوم بأعمالها هناك في نجاح تام . لقد عسكروا جميعا في غابة تبعد خمسة وعشرين كيلومترا عن لوتسك ، وصاروا يرسلون المستطلعين الى المدينة نفسها .

وفي تلك الأثناء كان الغستابو قد بدأ حملة كبيرة ضد الأنصار . وظهرت حملات تأديبية في كل النواحي ، وتجهز الشرطة بالسلاح .

انتابني القلق ، وخشيت أن تكون كل الطرق قد سدت حول أنصارنا هناك ، فأوعزت الى فرولوف أن يعود فوراً بالأنصار جميعا الى المعسكر . وعاد فرولوف وبجعبته أنباء لا تبعث على الارتياح .

فعند تخوم احدى الغابات التي لا تبعد كثيرا عن معبر نهر سلوتش فوجئوا بكمين . ولم يستمر القتال أكثر من دقائق معدودة لاذ الهتلريون بعدها بالفرار، ذلك أنهم لم يكونوا ينتظرون صدا لهم . فتبعثروا في شتى الجهات مخلفين من ورائهم القتلى والجرحى . لكن جماعة فرولوف فقدت أيضا ستة أنصار .

ثم ان نبأ آخر جعل القلق ينتابني أكثر من ذي قبل : فقد تبين أن كلا من مارفا ايلينيتشنا ويادزيا وروستيسلاف وخمسة أنصار آخرين قد بقوا جميعا في ضواحي مدينة لوتسك .

لقد ترددت مارفا ايلينيتشنا الى المدينة مرتين وبرفقتها يادزيا ، واتصلتا برجال يمكن أن يساعدونا ، وعرفتاهم على فرولوف . كان من بينهم مهندس من محطة لوتسك وافانا بمعلومات قيمة جدا، وأذكر من بينها على الأخص أن الألمان فرغوا في المحطة عدة عربات قطار من القذائف الكيميائية وقنابل الطائرات ، وقد عقدوا النية على تجريبها على الأنصار والسكان الآمنين . وقد وعدنا ذلك المهندس بالحصول على مخطط مفصل للمدينة يتضمن كل

Twitter: @ketab_n

مواقع الألمان من قيادات ومؤسسات ومستودعات للذخيرة والقذائف الكيميائية . وكان ينبغي على مارفا ايلينيتشنا بعد عدة أيام أن تذهب الى لوتسك مرة أخرى لاستلام ذلك المخطط .لكنه حدث أن جاءهم ايعازي للعودة في ذلك الوقت بالذات .

لكن مارفا ايلينيتشنا قررت ألا تعود من دون ذلك المخطط :

– وكيف يمكنني أن أترك مثل هذا الأمر! وحق السماء سوف أجعلهم يرسلون ذلك المخطط الى موسكو... خلوا معي كلا من يادزيا وروستيسلاف ، وسأعود معهما ...

ومن جديد كانت عنيدة في موقفها ، واضطر فرولوف الى أن يتركها ويادزيا برفقة ستة من الأنصار الآخرين ، الذين كان روستيسلاف أحدهم ، ليدافعوا عنها في طريق العودة .

وما أن أنهى فرولوف حديثه حتى ذهبت الى العجوز ستروتينسكي الذي كان قد علم بكل شيء وجلس وحيدا في الكوخ تعلو وجهه الكآبة والعبوس . فسألته:

– ايه ، كيف حالك يا فلاديمير ستيبانوفيتش ؟

– لا بأس بها . – أجابني بصوت المغلوب على أمره .وصمت قليلا ثم أردف قائلا: – وماذا لدي، لقد أوحشني غياب عجوزي !

وحاولت أن أهدىء روحه قليلا :

– فلاديمير ستيبانوفيتش، سوف تعود مارفا ايلينيتشنا . لقد بقي معها روستيسلاف، وهو لن يسمح أن تمس أمه بسوء .

– انه لا يسمح لأحد أن يمسها بسوء ، لكن من الممكن أن يحدث شيء آخر ، من الممكن أن يمس هو نفسه بالسوء ... ايه ، ليس في وسع المرء أن يصنع شيئا ، انها الحرب .

وبعد أيام قلائل عاد الى المعسكر كل من يادزيا وروستيسلاف ومعهما اثنان من الأنصار .

Twitter: @ketab_n

وتلقفهم العجوز قبل أي انسان منا . سمع الى كل ما قاله له روستيسلاف ويادزيا ثم انزوى واجما في كوخه دون أن ينبس بكلمة .

ثم جاءتني يادزيا في الحال ، وأخرجت من جيبها السري ظرفا ، تقدمت به الي وقالت:

– هاكه، طلبت عمتي مارفا أن أوصله اليك. – ثم حدثتني عن كل شيء والدموع تبلل خديها .

لقد ذهبت مع مارفا ايلينيتشنا الى مدينة لوتسك للمقابلة المتفق عليها . تسلمتا الظرف من المهندس وعادتا أدراجهما الى الغابة حيث كان الأنصار في انتظارهما . فخاطت مارفا ايلينيتشنا الظرف في ياقة معطفها، ثم عادوا جميعا في طريقهم الى الكتيبة.

كانوا يرتاحون أثناء النهار في القرى والعزب ثم يستأنفون السير في الليل . وفي عزبة فيروك حيث كانوا يرتاحون حاصرهم في البيت ما لا يقل عن أربعين رجلا من الشرطة .

فاقترح روستيسلاف ورفاقه أن تهرع أمه ويادزيا عبر الحوش لتلوذا بالغابة ، أما هم فقد خرجوا بسرعة من البيت . وسرعان ما فتقت مارفا ايلينيتشنا ياقة معطفها وأخرجت الظرف .

– هاك الظرف يا يادزيا ، فأنت شابة وبامكانك أن تجري بسرعة ، سلميه للقائد ...

وجرى القتال قرب البيت ، لم يتمكن الأنصار الستة من الصمود في وجه أربعين من رجال الشرطة ، فسقط ثلاثة من رفاقنا ، أما روستيسلاف فقد بدأ يتراجع مع رفيقيه الباقيين الى الغابة . وفي حسبانه أن أمه ويادزيا قد اختفتا عن الأنظار .

– لكن روستيسلاف لم ير كيف أن رجال الشرطة اقتحموا البيت ، – قالت يادزيا وهي تنحب ، – لقد جرحوا عمتي ،وأمسكوا بي من يدي ... ثم لم أعد أرى شيئا ... خلصت يدي ، أمسكت المسدس ، أطلقت النار وقفزت من النافذة وجريت . وفي اليوم التالي التقيت بروستيسلاف

Twitter: @ketab_n

ورفيقيه في الغابة . ولم يكن روستيسلاف يدري بأن أمه بقيت في قبضة الألمان .

– ايه، ثم ماذا جرى بعد ذلك؟

– وبعد ذلك كنا نسير في تلك الغابة غير بعيدين عن فيروك . وعند المساء وقعت أنظارنا على امرأة . فانتظرناها ، وسألناها عن كل شيء . فحدثتنا كيف أنهم انهالوا على عمتي ضربا وتعذيبا دون أن تعترف لهم بشيء . ثم جاءها الغستابو وأعدموها رميا بالرصاص خارج القرية .

وفي الليل اختلست الفلاحات جثتها ودفنها في الغابة . ثم أرشدتنا تلك المرأة الى القبر الطري الجديد . فهي ، كما اتضح ، اشتركت أيضا في دفنها وأخذت ترود أرجاء تلك الغابة علها تجد أحدا منا . فقد قالت لنا: «لم يخامرني الشك في أنكم تجولون هنا » .

لقد كنا نعيش في اثناء الحرب ، ولم نر الموت بأعيننا مرة واحدة ، ولم ندفن رفاقنا بأنفسنا مرة واحدة . لكننا كنا نثأر لهم دون أن تأخذنا رأفة بالعدو . اننا، على ما يبدو، اعتدنا على قسوة الكفاح . لكن موت مارفا ايلينيتشنا هزنا جميعا الى الأعماق . وانتشر خبر موتها في المعسكر بسرعة البرق، وهكذا فقد كان الهدوء يرين كل شيء في الغابة عندما ذهبت الى فلاديمير ستيبانوفيتش في كوخه .

كان من المستحيل التحدث اليه آنذاك . لقد خنقته الغصة ، فسرعان ما خرجت وقد شعرت بالذنب أمامه .

والآن ، وأنا أتذكر مصرع مارفا ايلينيتشنا ، عثرت على أحد أعداد جريدتنا ،وفيه رثاء كتبه الأنصار أنفسهم الذين كانوا جميعا يعرفون أمنا النصيرة مارفا حق المعرفة . وهاكم ذلك الرثاء :

«لقد عاد الينا الرفاق من آخر عملية قاموا بها بنبأ كله أسى: لقد قتلت أيدي الوحوش الفاشيين مارفا ايلينيتشنا ستروتينسكايا .

لقد عرفناها جيداً خلال تلك الأشهر القليلة التي قضتها

Twitter: @ketab_n

معنا في الكتيبة ، عرفناها أما لأسرة الأنصار ، لسبعة ابطال ، وهي نفسها أم بطلة ووطنية مقدامة .

كانت في الكتيبة أما للجميع ، دؤوبة لا تكل ولا تفل لها عزيمة ، كانت تعمل الليل والنهار . لقد تطوعت مارفا ايلينيتشنا من تلقاء نفسها للمساهمة في تنفيذ مهمة عملية خطيرة . وفي طريق العودة اختطف الفاشيون الأوغاد منها الحياة بالرصاص .

لقد توقف قلب امرأة رائعة عن الخفقان . لكننا سوف نثأر لقتلها .

ان لها من سيثأر من قاتليها ! وسيدفع الفاشيون دماءهم السوداء دية لحياة مارفا ايلينيتشنا ستروتينسكايا الغالية .

وان الوطن لن ينساها أبداً !»

ولم يكن كل من نيقولاي وجورج ستروتينسكي موجودا في المعسكر لدى معرفتنا بذلك النبأ . لقد كانا آنذاك في روفنو ، وهذا ما زاد من وطأة المصاب بالنسبة لفلاديمير ستيبانوفيتش . وكيما نواسيه ونذهب عنه تلك الأحزان فقد ارتأينا أن نرسله في مهمة تجوالية ، فذهب ثم عاد الي وقال انه نفذ المهمة . وذهلت حين رأيت كيف أن ذلك العجوز شد ما تغير خلال أيام معدودات : لقد ظهرت عليه آمارات الشيخوخة ووهن.

— اجلس يا فلاديمير ستيبانوفيتش . — وارتمى على الجذع متثاقلا ، سكبت له قدحا من الخمر ، لكنه دفعه بعيدا وقال :

— لا أقدر .

وران علينا وجوم طويل لا نهاية له ،ولم أقدر أن أنتهك حرمة ذلك الاعتراف الصامت : فالعجوز لم يكن في حاجة الى المواساة . وأخيرا بدأ يتكلم ،وبالأحرى بدأ يروح عن نفسه باظهار تلك الفكرة التي طالما كانت تراوده وتعذبه :

— آه ، لو أن نيقولاي كان معها... أو جورج فهو

Twitter: @ketab_n

أيضا قوي وشهم . لكن ما جدوى الحسرة الآن ، فلن تعيد ما مضى وما فات مات . انها الحرب ...

وصار فلاديمير ستيبانوفيتش غالباً ما يسأل عن أولاده عندما لا يكونون الى جانبه :

– ماذا حل بجورج؟ ومتى يعود نيقولاي ؟

وبعد موت مارفا ايلينيتشنا أخذت نصيراتنا من الفتيات يقمن برعاية الصغيرين فاسيا وسلافا . لكنهن لم يقدرن على أن يعوضنهما أمهما . ثم ان الأخطار كانت تحدق بنا في ذلك المكان فأرسلنا كلا من فاسيا وسلافا في شهر نيسان (ابريل) على متن طائرة الى موسكو ، وطارت معهما كاتيا كذلك . وأوصاها أبوها بأن تهتم بأمر أخويها وتعنى بهما الى أبعد حدود العناية .

في اليوم الثامن من أذار (مارس)، يوم المرأة العالمي ، أرسلت زهاء مائة نصير بقيادة الآمر المجرب بازانوف الى قرية بوغوشي . لقد علمنا أن فوجا كاملا للعدو قد تمركز هناك ، وكانت احدى مجموعاته هي التي قامت بالهجوم على فرولوف سابقا .

وبالقرب من تلك القرية ، وعلى طول الضفة الغربية لنهر سلوتش امتد خط دفاعي قديم منذ عهد بولونيا الاقطاعية . وبقيت حتى وقتنا هذا الخنادق والاستحكامات الخرسانية . كان النهر في أوج أيام فيضانه آنذاك فغمر تلك الاستحكامات الخرسانية جميعا بالمياه .

لقد استطلع بازانوف تلك البقاع بمهارة ، وقدر القوى جيدا. وعند مطلع الفجر قام بالهجوم على بوغوشي. وتفرق الهتلريون وهم نصف نائمين كوحوش هلعة مذعورة وتشتتوا في أرجاء القرية فتفاجأتهم نيران الأنصار من كل مكان . ولجأ كثيرون منهم الى الاستحكامات الخرسانية والخنادق ، لكن هذا لم يسعفهم في شيء. فقد كانت رصاصات الأنصار تلاحقهم حتى غرقوا في تلك الخنادق المغمورة بالمياه وفي النهر.

Twitter: @ketab_n

وعاد بازانوف الى المعسكر بغنائم كثيرة من أسلحة وذخيرة.

وهكذا ثأرنا لاستشهاد رفاقنا، ولمصرع مارفا ايلينيتشنا ستروتينسكايا.

عمليتان حربيتان

لقد سد علينا الألمان كل المعابر على الأنهر في الطريق من معسكرنا الى روفنو. وصار علينا أن نعتمد لا على ساع واحد أو ساعيين لتأمين الاتصال مع روفنو وانما على جماعة من المحاربين لا يقل عددهم عن العشرين أو الثلاثين شخصا. واصبحت الاشتباكات المسلحة أمراً اعتيادياً لا غرابة فيه. وكان الألمان والعصابات من الخونة يتكبدون خسائر فادحة . وتضاعف عدد الضحايا من بيننا كذلك.

وكيما نتابع أعمالنا في روفنو باطمئنان فقد قررت أن أعبر بقسم من الكتيبة الى غابات تسومان الواقعة في الجهة الغربية من المدينة. وكان رفاقنا قد استطلعوا تلك الغابات أثناء ذهابهم الى لوتسك بقيادة فرولوف.

واخترت مائة وخمسة عشر شخصا للعبور معي الى هناك بعد أن أبقيت سيرجي تروفيموفيتش ستيخوف قائداً للمعسكر السابق.

وعلاوة على المستطلعين الذين سبق لهم ان عملوا في روفنو فقد اصطحبت معي كذلك كل الأنصار الذين يعرفون تلك المدينة جيداً. وكان برفقتي أيضاً الكسندر الكسندروفيتش لوكين الذي عاد منذ وقت قريب من موسكو بعد أن قدم تقريراً عن الوضع في مؤخرة العدو. وقد هبط لوكين بالمظلة من الطائرة التي جاءت الينا كذلك بكثير من الهدايا: رسائل الأهل والأصدقاء، وبعديد من المجلات والصحف والرشيشات والذخيرة ومواد الغذاء.

قدم الينا لوكين في اجتماع أفراد القيادة التعليمات الأخيرة لقيادة موسكو والمتعلقة باتجاه نشاط الكتيبة وبالمهام الخطيرة التي كلفنا بتنفيذها.

Twitter: @ketab_n

وقد وصل الينا مع لوكين أربعة من الأنصار الجدد. كان من بينهم غريشا شمويلوفسكي الذي ظهر أنه رفيق قديم لكل من تسيسارسكي وماتشيريت. كان شمويلوفسكي يتلقى تعليمه في معهد الآداب بموسكو، والح طويلا على ارساله الى كتيبتنا.

فسألته:

– ايه، وماذا مع المعهد؟

– المعهد؟ سأنهيه بعد النصر...

وكان من بينهم أيضا ماكس سيليسكيريدي الطالب في معهد التمثيل لدى مسرح فاختانغوف حيث كان يدرس الكوميديا، وها هو ذا يريد أن يصبح نسافاً عندنا. لقد كان أمره يدهشني كثيراً: أي كوميدي يمكن ان يكون ماكس؟ فلم ألحظ مرة من المرات البسمة على وجهه.

وقدمت الينا مع هؤلاء كذلك لاسلكيتان. لفتت احداهما أنظارنا بصورة خاصة وتدعى مارينا كيخ تعود في أصلها الى قرية نوفوسيلكي – كارديناسكيه في مقاطعة لفوف.

ففي عام ١٩٣٢ انتسبت مارينا الى المنظمة السرية لاتحاد الشبيبة الشيوعي في أوكرانيا الغربية. وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ انتسبت الى الحزب الشيوعي في أوكرانيا الغربية نفسها. وقد اعتقلت مرتين في عام ١٩٣٦ وعام ١٩٣٧ من قبل رجال الدرك البولونيين لنشاطها الثوري الفعال. وبعد تحرير أوكرانيا الغربية انتخبت مارينا مندوبة للمجلس الشعبي في أوكرانيا الغربية. وقد سافرت الى موسكو مع وفد من المجلس الشعبي لحضور جلسة فوق العادة للمجلس الأعلى هناك. ثم سافرت بعد ذلك الى كييف لتبلغ الحكومة السوفيتية مطلب السكان في انضمام مقاطعة لفوف الى جمهورية أوكرانيا الاشتراكية السوفيتية، وفي أن تعطى الجنسية السوفيتية لأولئك السكان.

وعندما بدأت الحرب التحقت مارينا بدورة اللاسلكيين وبعد انتهائها أرسلت الى كتيبتنا.

لقد سررت لتلك الوجوه الجديدة، وبينما كنت أستعد لعبور غابات تسومان قررت أن أضمهم جميعا الى مجموعتي.

Twitter: @ketab_n

كان العبور بحد ذاته عملية حربية معقدة بالنسبة الينا. لقد دخلنا المعركة الأولى مع الهتلريين بالقرب من قرية كاراتشون التي لا تبعد كثيرا عن معبر خط حديد روفنو – سارني. لقد عرف الألمان، على ما يبدو، بتحركاتنا، ونصبوا لنا كمينا هنالك. وبعد تبادل قصير لاطلاق النار قررت الانسحاب الى الغابة الصغيرة لاتبين جيدا قوة العدو التي كنا نشتبك معها في المعركة. وما أن بلغنا مكان الكمين حتى وصل قطار يغص بالمنكلين. فمن الممكن جدا أن تكون تلك التعزيزات قد وصلت بمخابرة هاتفية.

كان ينبغي علينا أن نعبر سكة الحديد مهما كلفنا الأمر. فقررت أن نكون بادئين في الهجوم.

وما كاد المنكلون يغادرون عرباتهم ويبتعد القطار حتى دوت صيحة الأنصار «هورا». ولم يكن الألمان ينتظرون مثل هذا الاندفاع. ففي فن الحرب دائماً يكون لمثل هذا الاندفاع المفاجىء السريع فعله في التفوق على العدو. فقضينا على عشرين هتلرياً وأسرنا خمسة آخرين.

واستجوب كوزنيتسوف الأسرى، فاعترفوا بأن أعداداً هائلة من الاس – اس توجهوا من روفنو وكاستوبول الى منطقة رودنيا – بوبروفسكايا. وقد أكد لنا السكان هناك صحة تلك الأقوال.

اذ قال الفلاحون:

– ان ما لا يقل عن مائتي سيارة شحن محملة بالألمان مرت في ذلك الاتجاه، وكانت المدافع مسحوبة خلفها.

حاولت أن أقوم بتنبيه ستيخوف لاسلكيا، لكننا لم نفلح في الاتصال. عندئذ أرسلت له برقية باللاسلكي عن طريق موسكو وأنا أعلم أن ذلك التنبيه سوف يصله متأخراً.

لقد قتل في معركتنا مع الألمان بالقرب من معبر سكة الحديد نصير واحد وجرح اثنان. وكان المهندس النساف ماليكوف أحد الجريحين: فقد حطمت الرصاصة المتفجرة اصبعين من اصابع يده اليمنى. فقام تسيسارسكي ببتر الاصبعين المحطمتين في الحال ثم ضمد الجرح.

وكان الجريح الثاني غروس الأسباني الخبير الموهوب

Twitter: @ketab_n

في زرع الألغام، وأبرع صاحب حيلة بين الأنصار. فهو نفسه الذي سبق أن اهتدى الى طريقة نسف جسر سكة الحديد والقطار الكامل بلغم واحد. وكما كان يشتهر بالشجاعة أثناء المعارك في وطنه وكذلك عندنا في الكتيبة. ويندر ان تجري العمليات على سكك الحديد بدون مساهمته.

لقد اتضح أن جرحه بالغ، فقد أصابت الرصاصة المتفجرة عظم الكتف وحطمت قسما منه.

-- لن يعود الى القتال سريعاً – أخبرني تسيسارسكي – ان جرحه ليس خطيرا، لكنه يحتاج الى زمن طويل لكي يندمل.

وقبيل مساء اليوم التالي اشتبكنا في معركة أخرى. فقد فوجئت حراستنا الأمامية التي كانت تسير على طريق مستقيم كالسهم في اتجاه قرية بيريستياني، بنيران البنادق والرشاشات. كان الأعداء يعسكرون في الغابة على بعد مائة متر من الطريق، وقد نصبوا كمينا الى جانب الطريق.

وفي تلك المرة قاوم أفراد العصابات بعناد، واستمر القتال حوالي ساعتين ونصف الساعة. واستطعنا أن نشق طريقنا بعد جهد جهيد. لكننا، في الحقيقة، انتظرنا حتى ظهور «الأسنان الثلاث»: فمنهم من تمدد على الطريق الى الأبد، ومنهم من وقع في الأسر.

والى جانب ما غنمناه من الأسلحة من العصابات كان عشرون خنزيراً. لقد جاءت في وقتها تماماً. فجماعتنا قد أمضت في طريقها خمسة أيام بلياليها دون أن تنال شيئا من الطعام الساخن. ولحسن حظنا كان من بين الغنائم مطبخ عسكري متنقل. وأخيراً حضرنا غداء دسماً شهياً!

جرح من بيننا في هذه المعركة كوليا فاديف قائد الحضيرة، اذ شجت رصاصة عظم ساقه تحت الركبة.

وعند بلوغنا المكان بدأ عظم كوليا يصاب بالغانغرين.

– من الضروري أن نجري له عملية، – قال تسيسارسكي – والا فهو هالك لا محال.

وما العمل؟

لقد كانت اقامتنا من جديد في الغابة. وكانت الغابة

Twitter: @ketab_n

كثيفة خالية من أي مسكن. وان كل عملية جراحية تتطلب مكانا مغلقا نظيفا وقسطا وافرا من النور وأدوات جراحة حقيقية. لم يكن لدينا شيء منها وكان تسيسارسكي قد ترك كل ما لديه من الادوات في المعسكر القديم ، واكتفى بأن حمل معه بعض الادوية والادوات البسيطة اللازمة لتقديم الاسعاف الاول وحسب.

فسألته:

– ما العمل؟

– ان تأذن لي سأبتر ساق فادييف بمنشار عادي.

– وما أنت، يا ألبرت فينيامينوفيتش! أيجوز هذا يا تري؟

– الخطر بالطبع كبير، لكنني سأتخذ كل تدابير الحذر. فبدون عملية البتر هذه سيموت.

ووجدتني مضطرا الى الموافقة.

وهكذا، كانت في هذه المرة عملية جراحية طبية لا عملية حربية، وهي غير عادية أبدا. وتذكرت حالا «ايه، لم يكن تسيسارسكي يرجو عبثا كلا من كوزنيتسوف والمستطلعين الآخرين الذين يذهبون الى روفنو ليأتوا اليه بالادوات الطبية والادوية!»

وازدحمت الأفكار في رأسي متقلبة مختلفة، وصرت عصبيا فوق الحد الى أن تم الاعداد للعملية. كانت المسألة مسألة حياة رفيقنا الشاب. فكوليا فادييف قد أتم الواحد والعشرين من العمر منذ وقت قريب.

وفي تلك الاثناء كان جراحنا يبدو في غاية الهدوء، أو هكذا كان يحكي منظره الخارجي على الأقل. فقد دعا اليه سائقي بيوتر بيتروفيتش. أمسك المنشار العادي بيده وقال له:

– هيا يا بيوتر بيتروفيتش، امسح أسنان المنشار هذه تماما، واصنع أسنانا أخرى صغيرة ودقيقة في مكانها.

وأخذ يوضح له كيف ينبغي أن تكون الأسنان وبأي قياس.

وخلال ساعتين كان المنشار ذو الأسنان الصغيرة

Twitter: @ketab_n

جاهزاً، وشرع تسيسارسكي بتطهيره. فدلكه بالسبيرتو ثم أخذ يحميه على النار ويمسحه من جديد. وفي تلك الاثناء حضروا كل شيء في قسم الاسعاف حسب تعليمات تسيسارسكي نفسه: فقد نصبوا ما يشبه الخيمة، وعلى الأصح، شيدوا حظيرة متسعة بأربعة جدران من أغصان شجرة شوح. وكان سقفها مكشوفاً ليوفر أكبر كمية من النور، وغلوا الأدوات وهيأوا الضمادات. وقبيل العملية بعشرين دقيقة دعاني كوليا فادييف فرحت اليه. كان منذ مدة وجيزة مرحاً قوياً، أما في تلك الأثناء فقد وجدته مستلقياً على العشب هزيلا شاحب الوجه بلون التراب.

– أيها الرفيق القائد، اذا ما تم كل شيء بنجاح فأرجو أن أحصل منكم على توصية بترشيحي لعضوية الحزب.

لقد هزتني كلماته حتى استعبرتني.

– بالطبع، سوف أعطيك، فأنت رائع يا كوليا. وكن مطمئناً الى نجاح العملية، فان كل شيء يتم بنجاح على يد طبيبنا.

ولم يكن فادييف بالطبع يعرف شيئا عن المنشار الذي سوف يبترون ساقه بواسطته، حتى أنه لم يعرف كذلك عن قلقنا عليه. لكنه كان يفهم أن العملية في مثل تلك الظروف مخاطرة كبيرة.

ثم ابتعدنا جميعاً عن «غرفة العمليات» الا تسيسارسكي ومساعده.

وبعد دقائق معدودة تناهت الى أسماعنا شتائم وسباب عالية. كان التلفظ بالسباب ممنوعاً في كتيبتنا منعاً باتاً. وكان الانصار يعتبرون أن الشتائم ليست من أخلاق النصير السوفيتي. لكن كوليا أمعن في الشتائم تحت الكلوروفورم.

التفت الي لوكين الواقف بجانبي وقال محاولا أن يستر قلقه واضطرابه بهذه النكتة:

– أما هذا الانسان فسوف يهدىء نفسه بالشتائم دون أن ينال أي عقاب!

واستمرت العملية ساعة ونيفاً.

ولحسن الحظ فقد كان في حوزة تسيسارسكي الكثير

Twitter: @ketab_n

من الكلوروفورم: فان الكلوروفورم سرعان ما يتبخر ويتطاير في الهواء.

وجاءني تسيسارسكي بعد أن فرغ من العملية شاحباً منهوكاً، تتدحرج على وجهه قطرات من العرق وقال:

– ثمة خطر جسيم في الأمر، لكن لن أفقد الأمل في النجاح.

ولم يكن خاطئاً فيما يقول. ففي اليوم التالي انخفضت حرارة فادييف وتم كل شيء على ما يرام كما لو أن العملية أجريت في مستشفى من الدرجة الأولى. وأخذ فادييف يستعيد صحته بسرعة مذهلة.

وبعد عدة ايام استدعاني كوليا ثانية لزيارته وخاطبني قائلا:

– أيها الرفيق القائد! أصحيح أنني كنت أسب وأشتم أثناء العملية؟ أم أن الرفاق يمزحون؟

فلم أزد على أن ابتسمت.

– يعني هذا صحيح؟ أرجو أن تسامحوني.

– لا شيء يا كوليا، لا بد من السماح هذه المرة.

– شكرا جزيلا أيها الرفيق القائد ... ولي عندك سؤال آخر: ماذا سأفعل الآن بدون ساقي؟ لا اريد الذهاب الى المؤخرة.

– انتظر، سوف نجد لك عملا. سوف تكون أكثر فائدة من الآخرين.

– وشكرا جزيلا من أجل هذا أيضا.

ولما أبل فادييف عيناه رئيساً لتدريب جماعة النسافين. وقد أوليته مهمة الحراسة والاشراف على كل ما يتعلق بالمواد المتفجرة. وكان يقوم بواجباته على خير وجه. وبالطبع، فقد أعطيته توصية للترشيح الى عضوية الحزب.

ان هذا الحادث مع كوليا فادييف لم يكن وحيداً من نوعه، فقد كان الأنصار جميعاً يمحضون أغلى وأخلص مشاعرهم للحزب البلشفي. ويعز علي تقدير أهمية ودور منظمة الأنصار الشيوعية حق قدرها. فقد جاء من موسكو خمسة عشر حزبياً وحسب من بين القادة والمحاربين جميعاً.

Twitter: @ketab_n

وكان عدد اعضاء الحزب بين الانصار الذين انضموا اخيراً الى الكتيبة غير كثير. لكن تلك المنظمة الصغيرة من حيث عدد أفرادها كانت تتمتع بشخصيتها المرموقة في كتيبتنا. ويفسر هذا بأن كلا من الأعضاء في الحزب كان مثلا يقتدى به في القتال والحياة اليومية العادية على السواء. وكان الأنصار يقولون عن الشيوعي انه «بلشفي جدير».

وكانت حياة المعارك والتنقلات وحياة الأخطار والمصاعب المستمرة المتتالية أفضل اختبار يكشف خصال الانسان البلشفي. لهذا فلم يكن ليدهشنا كيف أن كثيراً من الأنصار صاروا يتقدمون بطلباتهم للانتساب الى عضوية الحزب منذ وصولنا الى مؤخرة العدو. ولم نستطع في ظروفنا الشاذة هناك أن نطبق أحكام نظام الانتساب كما ينبغي ذلك. فلم يكن لدينا استمارات، ولم نكتب أيضا التوصيات. كان كل شيء يتم بصورة شفهية في اجتماع مكتب الحزب أولا، ثم في الاجتماع الحزبي. الا أن أمين السر وحده كان يسجل لنفسه بعض الملاحظات الضرورية التي سوف تعوزه في موسكو بعد العودة لتسجيل الرفاق الجدد وتاريخ دخولهم الحزب منذ أن قبلوا أعضاء في اجتماعنا الحزبي.

وكنا نقبل المرشحين ونتخذ الأعضاء من أولئك الذين كانت أعمالهم وحدها تجعلهم جديرين ببلاشفة حقيقيين. واني لأذكر أن من بين أوائل من قبلوا أعضاء في الحزب كان الدكتور تسيسارسكي وفاليا سيميونوف أمين سر منظمة الكومسومول وداربيك عبد الرحيموف. وصارت منظمتنا الحزبية تنمو يوما بعد يوم على حساب أفضل الرفاق.

المساعدون

ان عملية العبور الى غابات تسومان أنستنا روفنو بعض الوقت. فقررنا تعويض ما فات. لقد اختار المستطلعون أقرب الطرق المؤدية الى المدينة وأقلها خطراً. وفي اوائل شهر نيسان (ابريل) ذهب الى روفنو عشرة أشخاص آخرين ممن يعرفونها جيداً علاوة على أولئك الذين كانوا يعملون

Twitter: @ketab_n

فيها. ولم يذهب نيقولاي ستروتينسكي الى روفنو، فقد أرسلناه مع كل من جورج ويادزيا الى لوتسك ليقوموا هنالك بتنظيم جماعة استطلاعية من أولئك الذين اقامت لنا معهم صلة مارفا ايلينيتشنا.

كان مكان معسكرنا الجديد أفضل بكثير من المكان القديم. لقد اختزل لنا المسافة الى روفنو الى النصف تقريبا. وصار الطريق اليها أفضل وأسهل بكثير. فقد كان على المستطلعين سابقا أن يعبروا نهرين في طريقهم الى روفنو. أما الآن فليس في الطريق أمامنا اليها سوى ساقية صغيرة يسهل عبورها على قطع الأخشاب الصغيرة.

ونصبنا «منارة» في منتصف الطريق الى روفنو تتميز عن سابقاتها بأنها لم تكن في عزبة بل وسط الغابة بالذات وعلى بعد نصف كيلومتر من طريق روفنو – لوتسك، ذلك ما جعلنا ندعوها «بالمنارة الخضراء».

ان شهر نيسان (ابريل) في أوكرانيا الغربية شهر رائع وجميل. فلم يعد هنالك ثمة ثلج، وبدأت الأعشاب تلون الأرض بالخضرة هنا وهناك، والبراعم على أغصان الأشجار حبلى تكاد تتفتق. لكن الليالي كانت لا تزال رطبة وباردة وخاصة في الغابات. ولهذا فقد كان نيسان (ابريل) في «المنارة الخضراء» قاسياً بعض الشيء. وكان المستطلعون شد ما يقاسون من البرد في الليل، كانوا ينامون على الأرض الرطبة الباردة، وما من مكان يتدفؤون فيه لأنهم كانوا يتجنبون اشعال النار لئلا يفضحوا مكان وجودهم.

والى جانب «المنارة الخضراء» كان قد حدد لكل مستطلع يذهب الى روفنو مكان معين «للبريد الأخضر». ففي أنحاء شتى من الغابة غير بعيدة عن «المنارة» حددنا أمكنة ملائمة– اما شجرة مجوفة أو جذع أو حجر كبير يخبىء فيه المستطلع تقريره، ويستلم من المكان ذاته بريد المعسكر.

وقد أبقينا على أمكنة «البريد الاخضر» في سرية تامة، فقد كانت بالنسبة لنا بمثابة العقد المركزية للاتصال. وكنا قد عينا أولئك الذين يقدمون الى «المنارة» والذين يقومون بنوبة الحراسة فيها والذين يجمعون الرسائل ويوزعونها على

Twitter: @ketab_n

أماكن «البريد الأخضر» من المستطلعين المتميزين بالحيطة والحنكة والحذر. وكان يشرف على كل هذه الأعمال فاليا سيميونوف.

وفي ذلك الوقت كان كوليا الصغير قد بدأ يعمل مثله مثل الكبار، فعيناه ساعياً للاتصال مع نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف.

وعندما قدمت الينا مارينا كيخ انجذب اليها كوليا بكليته، وقد أحبته مارينا على ما بدا، وأخذت تعنى به وتغسل ثيابه وترتقها وكثيرا ما كانت تجلس اليه وتحدثه عن موسكو وعن الميترو والمدرسة.

ولما عينا كوليا ساعياً خاطت له مارينا بدلتين خاصتين. كانت احداهما فلاحية: قميص وسروال طويل من قماش صنعه الفلاحون محلياً. ثم سرج له كورولیوف حذاء صغيراً من قشرة الشجر. وخاطت مارينا له بدلة مدنية كذلك: قميص ذو ياقة مردودة، وبنطلون قصير، وحذاء ملائم.

وكان كوليا يبدل ملابسه في الغابة بالقرب من روفنو. فاما اذا ذهب الى روفنو كان يرتدي بدلته المدنية ويخبىء بدلته القروية في مكان معين، ولما يعود الى «المنارة الخضراء» كان يرتدي السروال الطويل والحذاء من القشرة.

انتظر فاليا سيميونوف رجوع كوليا من روفنو بفارغ الصبر عندما ذهب اليها لأول مرة من «المنارة». وعاد كوليا بسلام، ومعه ظرف من كوزنيتسوف.

— ايه، قل لي كيف ذهبت؟ هل أوقفوك؟

— أوقفوني عدة مرات، وكنت أقول لهم كما علمتموني: قتل أبي وأمي، وأنا أستجدي الاحسان. وفي أحد الأيام الرائعة...

فسأله سيميونوف مبتسما:

— ومتى كان ذلك؟

كان كوليا يحب دائما أن يقول «في أحد الأيام الرائعة»، عندما يتحدث اليك عن شيء ما حدث منذ زمان بعيد أو منذ يوم أمس فالأمر سواء بالنسبة اليه ويقول: «في أحد الأيام الرائعة».

Twitter: @ketab_n

– صباح يوم أمس عندما غادرتكم أوقفني ثلاثة من الشرطة في القرية وسألوني: «الى أين أنت ذاهب؟» فبدأت البكاء فوراً وقلت: «يا أخوالي، يا أعزائي، أنا ذاهب لأرى أمي، فهي في المستشفى». أيه وهكذا خلوا سبيلي. لقد بكيت بالفعل لكنني في الحقيقة لم أخف مثقال ذرة.

وظهر مساعد آخر لدى كوزنيتسوف في روفنو، انها فاليا دوفغير.

فقدنا أبا فاليا قسطنطين ايفيموفيتش دوفغير في أوائل شهر آذار (مارس). كنا قد أرسلناه في مهمة الى محطة سارني مع بيتروفسكي، أحد سكان ذلك المكان. وفاجأتهما العصابات في الطريق، فانهال أفرادها عليهما ضربا وتعذيبا للحصول على بعض المعلومات منهما عن الأنصار.

ولما لم يحصلوا منهما على شيء فقد أوثقوا أيديهما بالأسلاك الشائكة وساقوهما الى النهر. وكان النهر آنذاك متجمدا مغطيا بطبقة سميكة من الجليد. عندئذ لجأ أولئك الخونة الى تغطيسهما في حفرة داخل الجليد. وصرخ بيتروفسكي: «من الأفضل أن أموت برصاصة!» وانطلق يعدو. فلاحقته العصابات بوابل من الرصاص، لكن الليل كان حالك الظلام، فتمكن بيتروفسكي من الوصول الى المعسكر في سلام. وعرفنا منه كيف هلك قسطنطين ايفيموفيتش.

واستطعنا، بعد جهد جهيد، أن نعثر على جثة الرفيق الذي عانى أشد ضروب التعذيب ودفناها مع تأدية التحية العسكرية.

ثم جاءت فاليا الى كتيبتنا بعد دفن جثة أبيها وقالت:

– انني وأمي سوف نعوض أبي.

وتعرفت فاليا على كوزنيتسوف. ومنذ أول حديث بينهما قال لي كوزنيتسوف ان فاليا تستطيع أن تساعده في أشياء كثيرة اذا ما عاشت في روفنو. وهكذا كان، فقد توجهت فاليا الى روفنو وأخذت تبحث هناك عن شقة تسكنها. وتمكنت من الاقامة هناك في شهر نيسان (ابريل) حتى أنها

Twitter: @ketab_n

حصلت على قيد لنفسها في المكان الجديد بالرغم من أن هذا كان دونه كثير من الأهوال والعقبات في تلك الأثناء. فقد كان الغستابو وحده الذي يعطي سماحاً بالسكن الدائم في مدينة روفنو. فتعرفت فاليا عن طريق صديقة لها على احد رجال الغستابو ليو ميتكو الذي كان يعمل مترجما مرافقا لقائد الشرطة في اوكرانيا. وقد وثق ليو ميتكو بما قالته له فاليا من أن أباها كان يخدم الى جانب الألمان، ولقاء هذا فقد قتل على أيدي الأنصار السوفيت. وليس هذا وحسب، وانما قام نفسه بمساعدتها في الحصول على وثيقة رسمية تؤكد صحة قولها ذاك. وبمساعدته كذلك فقد استطاعت فاليا أن تحصل على قيد لنفسها، وأن تستلم عملا كبائعة في أحد المخازن.

فأصبحت عند فاليا غرفة خاصة بها، ذات مدخل منعزل. فضمت اليها كلا من أمها وأخواتها الصغيرات.

وعندما تم لها كل شيء عرفت ميتكو على «خطيبها» الضابط الألماني باول زيبرت. وهكذا فان نيقولاي ايفانوفيتش كان يدخل أجواء التعارف الجديدة بمثابة ضابط ألماني. وعن طريق ميتكو نفسه تمكن كوزنيتسوف بدوره من التعرف على بعض العاملين في مفوضية الرايخ والغستابو.

وصار الملازم أول زيبرت يحوز على اعجاب الجميع. كان ذكيا مرحا وكريما لا يبخل الماركات الألمانية ليقوم بواجبات الضيافة للأصدقاء. لقد كان لدينا الكثير من تلك الماركات التي استولينا شحنات كاملة منها من الألمان. وقد أصبح الأصدقاء جميعا يعرفون بأن باول زيبرت انما هو ابن لملاك في بروسيا الشرقية. وقد وعدوه بأن يزوروا أملاكه الغنية الشاسعة عقب نهاية الحرب.

ونجح كوزنيتسوف أيضا في التعرف على أحد السكان هناك يان كامينسكي البولوني الأصل. كان كامينسكي عضوا في المنظمة السرية البولونية واراد ان يقوم بدوره الفعال. فقد رضي أن يعمل مع كوزنيتسوف بكل طيبة خاطر، وأكد ذلك بتعهد مكتوب.

Twitter: @ketab_n

وصرنا نتلقى من يوم الى آخر معلومات في غاية الأهمية من كوزنيتسوف. لقد تعرفنا على مختلف اجراءات الألمان في أوكرانيا وعلى خطط القيادة الألمانية. وأرسل الينا نيقولاي ايفانوفيتش أسماء وعناوين السوفيتيين الذين يقفون على أتم الاستعداد لقتال الهتلريين. ونجح أيضا في الحصول على أسماء وأوصاف العملاء السريين الذين قذف بهم الغستابو الى المؤخرة السوفيتية بقصد القيام بالأعمال التخريبية والارهابية.

وقد تعرف باول زيبرت في أحد المطاعم على شميدت العريف أول في الجيش الألماني الذي كان يعمل مدربا للكلاب القائمة على حراسة كوخ مفوض الرايخ. وقد اعتز كثيرا شميدت – ذلك الرجل الأصهب النمش – بتعرفه على الضابط اللامع زيبرت.

– سعيد جدا، جدا! – قال لكوزنيتسوف وهو يشد على يده.

– وأنا كذلك سعيد بمعرفتك. وشد ما أحب الكلاب وأعنى بتدزيبها. ففي أملاك أبي حظيرة كاملة للكلاب... حل علي ضيفاً اذا ما وجدت الفراغ، أيها السيد شميدت .

ثم سلمه كوزنيتسوف عنوان منزله «الرسمى» ولم ينتظر شميدت بعد ذلك طويلا حتى جاء الى الملازم أول باول زيبرت ومعه كلب بوليسي يدربه لحراسة كوخ.

– هذا هو الكلب الثامن. لقد أعطيت السيد الهاولايتر سبعة، أما هذا فأجودها جميعا، فهو يحس بغير الألماني فورا ويتعرف على النصير عن بعد كيلومتر منه. لقد اصطفيته من بين حظيرة كلاب اس – اس.

– وماذا تقول! يا له من ذكي! – قال كوزنيتسوف مبديا اعجابه بالكلب وقد رمى له قطعة من السجق.

– كلب عجيب! – قال شميدت متباهيا وهو يرمق كلبه وربيبه بنظرات الحب، وكان الكلب يلعق شفتيه بلسانه ويهز ذنبه متوددا، وينظر الى كوزنيتسوف شاكرا.

Twitter: @ketab_n

وبعد مدة وجيزة من الزمن وقع شميدت بكليته تحت تأثير كوزنيتسوف.

فقد قدم له زيبرت «قرضا» من المال، وكان يقريه جيدا وينفق عليه في المطاعم. وكان يسمع الى شكاويه وتذمراته بكل ارتياح وسعة صدر.

قال شميدت:

– بعض من الناس يجمعون في أيام الحرب من الثروات ما يكفيهم لقضاء حياة كاملة في اللهو والبذخ. أما أنا فلست أملك أي شيء، جئت خالي الوفاض وهكذا سأعود بعد الحرب.

فقال له الملازم معزيا:

– سأعيّنك يا عزيزي مديرا لأملاك أبي بعد الحرب، وسوف تعيش بأوسع حال، وسأكتب حالا الى البيت عنك.

وقد وثق زيبرت بدوره في شميدت، وعرفه على «خطيبته» فاليا دوفغير.

– انها فتاة رائعة، – قال زيبرت مؤكدا له ثقته به، – لكن الحياة دائما تعرض عنها. لقد قتل الأنصار أباها، وسقطت أوراق قيدها التي تؤكد بأنها ألمانية الأصل، في أيدي أفراد العصابات، وهكذا فهي الآن لا تستطيع الحصول على قيد للنفوس.

– ايه، يا الهي، وماذا تقول!.. ان لدي أصدقاء وسأساعد الآنسة فالنتينا في هذا الأمر بواسطتهم.

– سأكون من الشاكرين لك جدا يا شميدت، – قال له كوزنيتسوف بسرور صادق، – فاذا ما تطلب الأمر مصاريف لا تبخل بشيء. تفضل! – وسلم شميدت خمسمائة مارك.

وبعد عدة أيام تسلمت فاليا وثيقة تؤكد انحدارها من أصل ألماني، وبطاقات للحصول على كمية معينة من المأكولات.

وكان يبدو أن كل شيء قد تم لها على ما يرام. لكن فاليا دعيت فجأة الى قسم الشرطة، وهناك قيل لها بأنه يجب عليها أن تسافر فورا الى ألمانيا. وبالطبع، فاننا لم

Twitter: @ketab_n

نكن لنتركها تسافر الى هناك بأية حال من الأحوال، وتسهل علينا اعادتها الى الكتيبة في أية لحظة، لكن هذا أفسد علينا خططنا. كان ينبغي الحصول على حق لها شرعي يخولها السكن الدائم في المدينة. وتولى هذه القضية شميدت نفسه من جديد.

– انها مسألة معقدة لا يمكن لأحد أن يحلها الا مفوض الرايخ السيد كوخ نفسه، – أوضح لها شميدت، – وهو الآن موجود في برلين، لكنه سيكون في روفنو في أوائل شهر أيار (مايو). أيتها الآنسة فالنتينا، اكتبي طلبا وأنا سوف أتقدم به الى ياور مفوض الرايخ النقيب باباخ، وهو بدوره سوف يرفعه الى الهاولايتر.

وكتب الطلب، فأخذه شميدت بعد أن قبض من كوزنيتسوف ألف مارك من أجل «مصاريف القضية». ووعد شميدت فاليا القلقة قائلا:

– لن يتعرض لك أحد حتى تحل هذه القضية.

ولم يكد شميدت يخرج حتى تنفس نيقولاي ايفانوفيتش الصعداء:

– ايه، هذه القضية سوف تحل، لكن القضية الأخرى تتطلب سرعة في الحل. هل جاء كوليا الصغير؟

– نعم، ربما يجلس في الحوش.

– ادعيه الي.

كان كوليا يقف في جوار البيت وينتظر خروج شميدت.

– وكيف، كل شيء على ما يرام؟ – سأله كوزنيتسوف وهو يعانقه.

فأجابه كوليا في رصانة:

– وصلت في سلام.

– اذن، ارتح قليلا وتناول طعامك، فينبغي أن تسرع من جديد الى «المنارة».

وبالرغم من أن كوليا كان جلودا وخفيفا ونشيطا فقد كان السير الى «المنارة» ينهكه. فقد كان يفصل روفنو عن «المنارة» خمسة وعشرون كيلومترا. أي انه كان يقطع في اليوم الواحد جيئة وذهابا مسافة خمسين كيلومترا، وهذا

Twitter: @ketab_n

أمر ليس بالهين. فبينما ارتاح كوليا، هيأ كوزنيتسوف تقريرا الى المعسكر. وبعد ساعة أيقظت فاليا كوليا وقد خارت ساقاه من التعب، لكن شعوره بالمسؤولية جعله يهب واقفا، وأصلح من شأن بدلته.

– كن حذرا، انني أئتمنك على ظرف خطير. وقل لهم في «المنارة» أن يبلغوه فورا الى القائد. وانتظر الجواب بنفسك ثم أسرع به الي.

تناول كوليا الظرف، خبأه في جيبه السري، ثم ودعهما وانصرف.

– يا الهي، – قالت فاليا وهي تلاحقه بنظراتها، – انه لا يزال طفلا! ينبغي له ألا يفارق أمه بعد.

– نعم، انه كوليا الصغير، لكن ما أكبر الأعمال التي يقوم بها، – أجابها نيقولاي ايفانوفيتش ساهما.

وفي تلك المرة لم تكن طريق ذلك الصبي خالية من العثرات. فعلى بعد خمسة كيلومترات من روفنو سمع صرخة مفاجئة «هالت!» والتفت فاذا باثنين من الهتلريين من ورائه. لم يكن قد رآهما في الطريق، فمن البديهي أنهما كانا يختبآن في كمين ما الى جانب الطريق. وأدرك كوليا ببداهة ما ينبغي فعله، فانطلق يعدو الى الغابة كالسهم. وفتح الألمان عليه النار، وأز الرصاص، لكنه لم يتوقف عن الجري حتى توارى بين أشجار الغابة.

وسلم ظرف نيقولاي ايفانوفيتش في «المنارة» ومن هناك جيىء به الي.

الاصحاب المزيفون والاصحاب الحقيقيون

كان التقرير الذي جاء به كوليا الصغير على غاية من الخطورة. لقد أخبرنا فيه كوزنيتسوف أن الاستعدادات تجري في روفنو لاحياء يوم ميلاد هتلر، وأن الهتلريين سوف يقومون بعرض عسكري على شرف الفوهرر في ٢٠ نيسان (ابريل).

وكتب كوزنيتسوف في التقرير يقول: «أرجو السماح

Twitter: @ketab_n

لي «بقيادة» دلك العرض». وبعد وصول ذلك التقرير بأيام جاءتني من المستطلعين الآخرين في روفنو أنباء بهذا الصدد، فقد كتب الي شيفتشوك يقول: «ائذن لي بالانتقام من رؤساء المحتلين في ساحة المدينة» .

وكان جوابي لهم واحدا : «أمنع اطلاقا، فبهذا يمكن أن نقضي على أعمالنا الاستطلاعية. سيأتي الوقت الذي سوف نتحاسب فيه مع أولئك الجلادين . آذن بالاشتراك في العرض مع الجمهور . واذا ما حدث أن حاول أحد ما غيركم القيام بشيء ما اسندوه بسلاحكم» .

كانت الاستعدادات لعيد هتلر تقوم بصورة فريدة من نوعها . فقد كانت عصابات الاس – اس وجماعة الدرك يذهبون الى القرى وينتزعون من الفلاحين كل ما تقع عليه ايديهم من اغذية وامتعة . وكانت كل الخيرات المستولى عليها تسلم في المكاتب الخاصة للشركة التجارية «باكيتاوكسيون» . وكان يدير عمليات «التخزينات» كلها نائب كوخ الجنرال كنوت.

ومن تلك الأشياء المنهوبة أخذوا يعدون ما يسمى «بهدايا الفوهرر» وهي عشرة أو خمسة عشر كيلوغراما . ووزعت تلك الهدايا الملفوفة جيدا وباناقة على الألمان في روفنو نفسها ، وترسل الى الجبهة والى ألمانيا أيضاً .

لقد كان أنصارنا وسكان مقاطعة روفنو خاصة يعرفون حق المعرفة قيمة «هدايا الفوهرر» تلك؛ كانوا يعرفون كيف تصنع تلك «الهدايا» ويعرفون كم سفح فلاحونا من الدم والدموع بسببها .

وفي أواسط شهر نيسان (ابريل) قدم ستيخوف بدعوة مني مع مائة من الأنصار ، وقص علينا كيف قام الألمان بجمع «الهدايا» في ناحية سارني .

لقد كانت المعلومات التي تلقيناها يوما ما في الطريق من أولئك القتلة صحيحة كلها . ففي ٣٠ آذار (مارس) زحفوا كقطيع الجراد على القرى والعزب في اقليم الأنصار ، وبالدرجة الأولى على رودنيا – بوبروفسكيا. ولم يجدوا من الأنصار هناك بالطبع . كان ستيخوف قد سبقهم وخرج

Twitter: @ketab_n

بالكتيبة من هناك . وكذلك توارى أكثر من نصف السكان في الغابات . أما من بقي منهم في القرى فقد نال نصيبه على أيدي أولئك القتلة المارقين . دخل الهتلريون القرى فساقوا قطعان الماشية واستولوا على كل خيراتها، ثم قاموا بحرق البيوت . وجمعوا الشيوخ والأطفال والمرضى وأبادوهم جماعات بالرصاص . أما الشباب فساقوهم الى مراكز التجميع لارسالهم الى ألمانيا .

وفي المناطق ، حيث كنا نحن آنذاك، استمر الألمان في تلك الأعمال . فقد كانت كل الدروب تغص بأولئك القتلة «المنتصرين» الذين يسوقون الأهلين أمامهم الى الاستعباد . وكانت قوافل العربات تمر مملوءة بخيرات الفلاحين المنهوبة وارزاقهم .

وفي العشرين من نيسان (ابريل)، كما كان محدداً من قبل، بدأ العرض . لقد كانت الساحة التي تتوسط مدينة روفنو محاطة بالقوات . فقد انتظمت فيها جميع وحدات الحامية الألمانية : عصابات التنكيل ، والقوات التي قامت بحراسة القيادات ، والوحدات الصغيرة للاس — اس ، وفصائل الدرك ،وفصائل الشرطة .

عند المنصة ، في أماكن محددة خاصة ، كان «الضيوف المحترمون» يحتلون أماكنهم: موظفوا مفوضية الرايخ والنبلاء من العسكريين والمدنيين. وكان بين أولئك الضيوف يقف الملازم أول باول زيبرت وقد تعلقت بذراعه فتاة .

كانت صورة هائلة لهتلر معلقة فوق المنصة ، عينان جاحظتان، وشاربان أنيقان ، وخصلة من الشعر تتدلى فوق جبين ضيق لا تناسب مع هيئته النابليونية .

وفي ساعة معينة وصل ممثلو السلطة العليا والقيادة الى الساحة في سيارات ركاب مريحة. وصعد الى المنصة النائب الأول لايريخ كوخ الرئيس الحكومي باول دارغيل. كان طويل القامة، نحيفاً. تقدم دون أن يلتفت الى أحد جانبيه مفعما بمشاعر أبهته الذاتية. ومن خلفه ظهر كنوت النائب الثاني لكوخ، وهو رئيس لشركة «باكيتاوكسيون» .

Twitter: @ketab_n

كان يحمل كرشه الهائل بلأي شديد، ولم تكد تتميز له رقبة بل غاصت ما بين الرأس والجذع المليء بالشحم. وصعد كنوت على المنصة وهو ينهج ويلهث. ثم صعد كل من قاضي أوكرانيا الأعلى الدكتور فونك والجنرال فون ايلغين قائد القوات الخاصة اي قوات التنكيل، ثم بعض الشخصيات المرموقة الأخرى .

وبالرغم من القوات التي طوقت المكان والحراسة القوية المشددة فقد تمكن بعض أنصارنا ومن بينهم غنيديوك وشيفتشوك من أن يتسللوا الى الساحة . وكان كل منهم يخبىء في ثيابه مسدسين ورمانتين أو ثلاث رمانات مضادة للدرع .

وتقدم دارغيل بخطابه، فتحدث عن «مآثر هتلر» وعن «الجيش الألماني الذي لا يقهر» وعن أنه من الواجب على «السلطات الألمانية هنا في المؤخرة أن توفر كل ما يحتاجه الجيش» .

وقد صرح دارغيل في ساحة هذه المدينة الاوكرانية بكل صفاقة :

– فليمت المنهزمون من الجوع . ان هذا لن يقض مضجع الأمة الألمانية في شيء . ان لألمانيا مثلها وأهدافها العليا. واننا سوف نحققها بـأي ثمن. لا مكان للشفقة ! فالشفقة عار على الأقوياء ! انني أدعوكم الى عدم الرحمة !

وسمع أنصارنا هذيان الرئيس الحكومي وهم واجمون . وعن لهم أن يقضوا على هذا الفاشي النذل بلحظة . لكن الأمر كان أمرا، وأفسحوا المجال للهتلريين لأن يستمروا في عرضهم حتى النهاية .

وبينما كان كوزنيتسوف يغادر الساحة مع فتاته، قال لها بصوت عال باللغة الألمانية:

– ان لديك ساقين صغيرتين أخاذتين، والضابط الألماني يقدر الجمال حق قدره . اسمحي لي أن أوصلك الى البيت .

ورمقت الفتاة الضابط الألماني الباسل بنظرة اعجاب.

Twitter: @ketab_n

لكنهما حينما خرجا من الجمهور همست فاليا قائلة:
– وعبثا منعنا القائد. وكم كان مقرفا سماعه والنظر اليه.
– أنت مخطئة يا فاليا. لا يجوز أن نغامر بكل عملنا. لا تحزني! لن يعودوا من هنا أحياء، وما هم بأرباب هذا المكان! – ونظر قليلا الى جانب الشارع الآخر وقال لها:
– انظري الى ذلك الانسان بسترته البالية وعمرته، ذلك الذي يمشي بالجانب الأيسر، انه أحد أصحاب هذه المدينة الحقيقيين.

علمنا منذ زمن طويل بوجود منظمة سرية خاصة في روفنو. ولم يكن من الصعب علينا أن نفهم أن الحرائق التي تندلع في المؤسسات، وقتل الضباط الألمان كانت كلها من صنع أولئك الرجال السريين. لكننا عجزنا طويلا عن ايجاد هذه المنظمة. واخيرا وقعنا على خيط رفيع من المعلومات توصل به استطلاعنا الى معرفة البلشفي تيرينتي فيدوروفيتش نوفاك مدير معمل اللباد. وظهر أخيرا أن نوفاك قائد تلك المنظمة السرية في روفنو.

وبعيد العرض بقليل جاء نوفاك الى معسكرنا وعقدنا معه اتفاقاً كاملاً للعمل المشترك.

كانت هذه المنظمة تقوم باعمال جد خطيرة في روفنو. وانني سوف أتحدث، ولو بايجاز، عما قامت به كتيبتنا بالاشتراك مع رجال نوفاك السريين.

لقد قمنا قبل كل شيء بتزويد منظمة المدينة السرية ببيانات مكتب الاستعلامات السوفيتية بانتظام. وحينذاك تزايد عددها وانتشرت بوفرة بين السكان. وكنا نرسل الى تيرينتي فيدوروفيتش نوفاك بين الحين والآخر صحيفتي «برافدا»، و «كراسنايا زفيزدا»، وبعض الصحف الأخرى التي كانت تلقي الينا بها الطائرات.

لم يكن بامكان كل من كوزنيتسوف وشيفتشوك وغنيديوك ونيقولاي ستروتينسكي ولا أي أحد من المستطلعين الآخرين أن يقوموا بحملة دعائية، أو بتوزيع المنشورات في المدينة. ومقابل ذلك فقد أخذت منظمة

Twitter: @ketab_n

نوفاك هذا الدور على عاتقها فقامت بنشاط سياسي واسع النطاق بين السكان.

وقامت خلايا الاعمال التخريبية في منظمة نوفاك الى جانبنا بعمليتي تفجير هائلتين.

ففي مدينة روفنو كان مصنع قطع خشبية للسيارات يعمل بكل طاقاته، وكان صاحبه الألماني تانغولتس الذي قدم الى روفنو من ألمانيا. وكانت هذه قطع خشبية تستعملها السيارات الألمانية ذات المحرك الغازي. وهو المصنع الوحيد من نوعه في أوكرانيا المحتلة كلها. وقد تم احراق ذلك المصنع واحالته الى رماد بخطة مشتركة بيننا وبين منظمة نوفاك.

وكان التفجير على رصيف محطة قطار روفنو عملية التخريب الثانية. كان الهتلريون قد فرغوا عدة عربات من زجاجات مليئة بحمض الآزوت سعة كل منها عشرين لترا. فدس رجال نوفاك بين الزجاجات لغمين مؤقتين حصلوا عليهما من كتيبتنا. وهكذا عقب حدوث الانفجار الأول تحطمت الزجاجات وتدفق الحمض منها على رصيف المحطة الخشبي وشبت فيه النيران. واحترقت كذلك تلك السلال المنسوجة التي كانت تغلف الزجاجات. وهرع الألمان لاطفاء الحريق، لكنه في تلك الأثناء انفجر اللغم الثاني وأخذت الزجاجات تتفجر الواحدة تلو الأخرى. وقد حالت رذاذ الحمض وشظايا الزجاجات المتطايرة شتى الأنحاء دون الاقتراب الى مكان الحريق. ولم تمض دقائق معدودة حتى كان الحريق يلتهم الرصيف بأكمله. وصار من المستحيل ايقاف النار عند حد. وخلال عدة ساعات كان شرطة الألمان وقوى الجيش التي استدعيت الى المكان مجرد متفرجين لا غير دون أن يستطيعوا القيام بأي شيء.

ولقد قدمت منظمة نوفاك لكتيبتنا مساعدة جلى، فبفضلها أيضا حصلنا على الأدوية ووسائل الضمادات وأدوات الجراحة. كان ثمة أطباء روس كثيرون يعملون في جميع المؤسسات الطبية والصحية في روفنو. هم كانوا اما أسرى حرب أو من أولئك الذين لم يتمكنوا من مغادرة

Twitter: @ketab_n

روفنو. لقد اتصل بنا رجال المنظمة السرية وصار أفرادها يمدوننا بكل ما نحتاج اليه من الأدوية والأجهزة الطبية حسب ما يوصي تسيسارسكي.

ولما علم الأطباء بكتيبتنا طلبوا الالتحاق بالمعسكر، وكنا آنذاك في أمس الحاجة الى الأطباء. فقد كثرت اشتباكاتنا مع الألمان والعصابات الخائنة في الآونة الأخيرة، وبالتالي تضاعف عدد الجرحى لدينا. فصار أولئك الرجال السريون يتفقون مع الأطباء والممرضين بأنفسهم ويرسلونهم الينا. فلم يكن يأتي الينا واحد منهم خالي الوفاض وانما بحمولة ثمينة قيمة: فقد أخذوا معهم من المستوصفات والمستشفيات العربات الكاملة بالأدوية والأجهزة الطبية.

وسرعان ما صار معسكرنا يضم ثلاثة عشر طبيبا، وكلهم من ذوي الاختصاصات المختلفة، وزهاء عشرين ممرضا. ووصل الينا كذلك طبيب اسنان حاملا معه غرفة كاملة لطب الاسنان حتى آلة الثقب العاملة بواسطة الرجل. وهكذا أنشىء لدينا مستشفى كامل برئاسة طبيبنا النصير الشاب تسيسارسكي. وكان ذلك المستشفى يضم قسما للجراحة وآخر للأمراض الداخلية وثالثا لطب الأسنان.

في مكتب كوخ

في صباح احد ايام ايار (مايو) قدم نائب العريف شميدت الى فاليا واخبرها في سرور ظاهر ان مفوض الرايخ في اوكرانيا ايريخ كوخ يدعوها لمقابلته في الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم:

– لقد طلب النقيب باباخ أن يكون الملازم أول زيبرت في صحبتك. من المحتمل أن السيد الهاولايتر يريد أن يتأكد بنفسه من ان ضابطا ألمانيا يهمه أمرك بالفعل.

ثم انحنى شميدت مودعا وانصرف. وهرعت فاليا حالا الى نيقولاي ايفانوفيتش:

– وما العمل الآن؟ ربما يدبرون لنا مصيدة ما؟

Twitter: @ketab_n

– فات أوان التراجع، سأذهب معك بالطبع... لم أكن أحسب أبدا أنهم سوف يستدعونني كذلك. ولو كان الأمر على غير ذلك لوجبت على مشاورة القائد.

– وبدون اذنه لا يجوز؟ سألت فاليا ورمقت كوزنيتسوف بنظرة مفعمة بالمعاني.

فأجابها نيقولاي ايفانوفيتش:

– سأقرر كل شيء في نصابه .

وقبيل الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم كانت العربة التي تقل كلا من فاليا دوفغير وباول زيبرت وشميدت تمر في الشارع الرئيسي لمدينة روفنو . ويقعي عند قدمي شميدت ذلك الكلب نفسه «الذي يميز النصير عن بعد كيلومتر» .

كان نيقولاي ايفانوفيتش يرتدي بدلة رسمية رائعة ، قد ثبتت على صدر سترته كل الأوسمة والشارات : شارة عضوية حزب هتلر ، وشارتان تشيران الى ان زيبرت جرح مرتين في المعارك ، ووساما «الصليب الحديدي» .وحذاؤه الرسمي قد لمع جيدا . يتدلى من حزامه الجديد الى الناحية اليسرى مسدس في جرابه. وفي جيبه ثمة مسدس آخر في وضع مهيأ . أما فاليا فقد كانت في فستان غامق اللون خيطت على ردنه شريطا اسود من كريشة علامة الحداد على موت أبيها . وكنا قد أعددنا لها من قبل وثيقة صادرة عن قيادة درك الألمان تؤكد أن «أباها قتل على أيدي الأنصار».

وكان الحوذي يجلس في مقعده ويجاذب الجوادين أعنتهما ، انه غنيديوك لا غيره . كان يحمل مسدسا في جيبه ، وخبأ تحت المقعد عدة رمانات مضادة للدرع .

كل البيوت الممتدة على طول ذلك الشارع الذي تمر به العربة ، كانت تحتلها المؤسسات الألمانية أو كان يسكنها الموظفون الألمان . وفي نهاية الشارع كان مقر مفوضية الرايخ – ادارة النائب . وبالقرب منه ، وخلف سور عال مسيج بالأسلاك الشائكة كان يقع قصر كوخ .

توقفت العربة أمام القصر .

Twitter: @ketab_n

وكان يتمشى على طول السور أفراد الاس – اس والرشيشات في أيديهم .

أسرع شميدت في مغادرة العربة وتقدم الى المخفر ، وسأل الخفير من خلال الكوة :

– هل بطاقتا الدخول للسيد الملازم أول باول زيبرت وللآنسة فالنتينا دوفغير جاهزتان؟

فأجابه :

– بالتأكيد .

تقدم المناوب الذي يعرف شميدت شخصيا بالبطاقتين الى كل من كوزنيتسوف وفاليا دون أن يطلب منهما الهويتين .

اتخذ أحد أفراد الاس – اس وقفة التحية ، وفتح الباب الكبير أمام الثلاثة.

كان قصر كوخ يقع في حديقة كبيرة . وأشجار البلوط والزيزفون والقيقب تلقي ظلالها على اسفلت الطريق . وضمخت أفنان الليلاك الهواء بأريجها . والبستانيون منصرفون الى ترتيب الأزهار والأشجار المثمرة .

وفي حدود ذلك القصر كانت قد شيدت بيوت صغيرة عديدة ليسكنها الخفراء وخدم كوخ . ولقد استطاع كوزنيتسوف أن يلحظ بعين بصيرة كل هذا وأشياء أخرى كثيرة بتفاصيلها .

– أرجو أن تتفضلا مباشرة الى الياور . أما أنا فسوف أذهب لأسلم الكلب ، – قال شميدت وهو يرشد زيبرت الى المدخل الرئيسي .

– لسوف تطلق النار؟ – سألت فاليا كوزنيتسوف وهي تطلق تنهيدة من أعماقها من شدة اضطرابها.

– اذا ما أيقنت أن الرصاصة لن تذهب هدرا.

واستقبل النقيب باباخ ضيفيه باحترام، ثم رافقهما الى الطابق الثاني حيث تقع تلك الحجرة يستقبل فيها كوخ ضيوفه .

– تفضلا واجلسا . ان لدى الهاولايتر مزاجا حسنا

Twitter: @ketab_n

هذا اليوم ، — قال لهما مبتسما ، — سأخبره حالا بقدومكما .

وتوارى باباخ خلف باب غليظ.

كان في غرفة الانتظار يجلس بعض الضباط في انتظار دعوة من كوخ وقد ران عليهم الصمت . وكان من بينهم جنرالان في لباسهما الرسمي الكامل . ولم يكد كل من فاليا وكوزنيتسوف يلتفت الى ما يحيط به حتى عاد الياور وتوجه الى فاليا قائلا :

— أرجوك أن تتفضلي الى غرفة مفوض الرايخ . وأرجوك أيها السيد الملازم أول ان تنتظر وقتا ما.

ودارت في رأس فاليا الدوائر . هل انفضح أمرها ياترى ؟ وهل سوف يستدعون كوزنيتسوف أيضا ؟ وهل سيطلق النار على كوخ؟ واستدارت فاليا في الباب وألقت نظرة أخرى على كوزنيتسوف لتجده يجلس في أريكة وثيرة ويتحادث مع جاره النقيب في صوت خفيض، وكأن شيئا لم يكن.

وفتح الياور باب المكتب وأدخل فاليا . ثم اغلقه وبقي هو في غرفة الانتظار .

وما أن خطت فاليا أول خطوة داخل المكتب حتى وثب عليها كلب بوليسي ألماني في قفزتين ، فارتعدت فرائصها من الرعب .

— مكانك ! — دوى صوت عال باللغة الألمانية .

وتراجع الكلب . ثم قال صاحب الصوت :

— تفضلي اجلسي .

ورمقت فاليا صاحب الصوت بعينين هالعتين ، فرأته انسانا كبيرا ضخم الجسد يجلس الى الطاولة ، ذا شاربين قصيرين «محاكاة لهتلر» وأهداب طويلة حمراء ، فعرفت لتوها أنه كوخ عينه .

كان مكتب كوخ يحتل زاوية الغرفة ، وانتظم الى جانبه بصورة ملاصقة مكتب آخر طويل، دعيت فاليا للجلوس اليه . وكان يجلس بينها وبين كوخ من الجانبين اثنان من

Twitter: @ketab_n

رجال الحرس ، وثالث يجلس عند النافذة . أما الكلب فقد كان يربض عند قدمي كوخ .

«يا الهي ، يالها من حراسة !» – فكرت في نفسها فاليا ، ثم فوجئت بالسؤال :

– لماذا لا ترغبين في الذهاب الى ألمانيا؟ – سألها كوخ دون أن ينظر اليها، وانما كان بصره عالقا بطلبها أمامه، – أنت فتاة ألمانية الأصل ويمكن أن تفيدي كثيرا في الوطن. فكيما نهزم البلاشفة ينبغي علينا جميعا أن نعمل .

ولدى كلماته الأخيرة ألقى كوخ نظرة على الفتاة ، وظل بعد ذلك ينظر اليها بامعان طيلة مدة الحديث .

– ان أمي مريضة ، وحالتها خطرة ، وأخواتي بعد صغيرات، – قالت فاليا وهي تكابد اضطرابها، – فبعد مصرع أبي الحبيب كان لزاماً علي أن أشتغل لأعول الأسرة كلها. انني أرجوك أن تأذن لي في البقاء في روفنو، انني أعرف اللغة الألمانية والروسية والأوكرانية ، وبامكاني أن أفيد ألمانيا هنا كذلك.

– وأين التقيت بالسيد زيبرت لأول مرة ؟

– تعرفت عليه صدفة في القطار ، ثم انه صار غالبا ما يعرج علينا في طريقه من الجبهة، وقد تمت خطوبتنا...– – استطردت فاليا في اضطراب ظاهر .

استمر حديث كوخ مع فاليا عدة دقائق . واهتم بأولئك الضباط الألمان الذين تعرفهم فاليا عدا زيبرت . وعندما ذكرت له فاليا بعض الأسماء ممن تعرفهم من موظفي مفوضية الرايخ والغستابو نفسه سر كوخ وبدت عليه أمارات الانشراح .

– حسنا ، يمكنك أن تذهبي ، – قال لها كوخ ، ثم التفت الى أحد الحراس وأمر بنبرة صارمة بدعوة الملازم أول زيبرت.

لم تتمكن فاليا من أن تتبادل كلمة واحدة مع كوزنيتسوف آنذاك . لقد تبادلا النظرة وحسب : كانت

Twitter: @ketab_n

نظرة فاليا وجلة ومتسائلة ، أما نظرة كوزنيتسوف فكانت تشع ببريق الحيوية والنشاط.

– هايل هتلر ! – اقتحم باول زيبرت باب المكتب ، وهتف وقد أفرد ذراعه الى الأمام .

– هايل ! – أجاب الجميع من خلف المكتب .

وهر الكلب ، لكن زيبرت لم يحرك ساكنا .

وطلب اليه كوخ بالاشارة أن يجلس في الأريكة حيث جلست فاليا قبل وقت قريب. وسأله:

– أين كوفئت بهذين الصليبين ؟

– الأول في فرنسا ، والثاني في الجبهة الشرقية ، أيها السيد الهاولايتر ، – أجابه كوزنيتسوف .

– وماذا تعمل الآن ؟

– بعد أن جرحت أعمل الآن في تموين قطاعي في الجبهة .

– وأية جبهة ؟

– جبهة كورسك .

تلمس زيبرت جيبه على صدره ليخرج الهوية ويريها الى كوخ . لكنه أثناء هذه الحركة التي بدت له غير باعثة على الريب كان حرس الغستابو قد تيقظوا بلحظة ، والكلب قد صار عند ساقي كوزنيتسوف .

– لا تضطرب ، فأنت ، كما أعتقد ، أبرزت الهوية لياوري ؟

– أجل ،بالطبع .

– ومن أين أنت ؟

– من بروسيا الشرقية. ان لدى والدي أملاكا شاسعة على بعد أربعين كيلومترا من كينيغسبرغ .

– هذا يعني أنك من منطقتي .

– نعم بالضبط ، أيها السيد الهاولايتر .

– وكيف مزاج الجيش ؟

– أوه ، كل أفراده على عزم وتصميم !

– قل لي ، أكثيرون أولئك الذين أخافتهم الحوادث الأخيرة ؟

Twitter: @ketab_n

– أنت تعني ستالينغراد ؟ لقد قوت من عزيمتنا .
– نعم ، نعم . عد الى قطعتك . وليكن في علمك أن الفوهرر يحضر للروس على قطاعكم بالقرب من كورسك مفاجأة ممتازة ، – قال له كوخ تلك الكلمات المفعمة بالمعاني .
– ليس لدي أدنى شك، أيها السيد الهاولايتر.
وبعد دقيقة من الصمت قال كوخ :
– انني مندهش . فأنت ضابط مرموق في الجيش الألماني ، انسان ذو دم آري ، وأصلك من بروسيا كذلك ، ثم تشفع لتلك الفتاة البولونية ، – قال كوخ بازدراء .
فأجابه زيبرت مبررا كل شيء :
– أيها السيد الهاولايتر ! ان الآنسة من أصل ألماني ، لقد رأيت بأم عيني هوية أبيها الذي قتله قطاع الطرق بطريقة وحشية .
– اذا كان ضابط ألماني سوف يتوسط من اجل نساء الشعوب التي أخضعناها لسلطتنا ، فلن يبقى لدينا انسانا يعمل في المصانع . أنت تعرف أننا ألقينا بكل شيء الى الجبهة ، وأننا في أمس الحاجة لليد العاملة . أنت عضو في الحزب القومي الاشتراكي ، وينبغي ألا تقيد نفسك بأية امرأة ليست من الألمانيات الصرفة . ان أولئك الناس يلزموننا مؤقتا وحسب ليكون لنا من نعتمد عليه في البلاد التي نحتلها .
ثم استطرد كوخ في اسداء المواعظ والارشادات الى باول زيبرت وقد أيقن «بنقاوة دمه» وبولائه «للفوهرر» :
– فلا الروس ، ولا الأوكرانيون ولا البولونيون يعوزوننا في شيء . اننا في حاجة الى الأرض الخصبة المعطاء . سيكون الألمان هنا منذ الآن والى الأبد ، – وهنا أخذ صوته يعلو ويشتد شيئاً فشيئاً – يجب علينا قمع السكان المحليين ...
كان كوزنيتسوف يسمع الى ذلك الحديث الذي استمر زهاء أربعين دقيقة ، ومس بمسدس «فالتير» الذي كان في وضع الرمي في جيب بنطلونه اليمين . وكان مستعداً في

Twitter: @ketab_n

أية لحظة لأن يتناوله ويفرغ كل خزنته في تلك السحنة البغيضة الحمراء «لابن منطقته» الذي كان لا يزال منهمكا في حديثه الفصيح وهو يفتش عن حل لمسألة معقدة : كيف يمكن ابادة كل من الشعبين الأوكراني والبولوني .

لكن الحراس لم يفارقوا بأبصارهم كوزنيتسوف لحظة واحدة ، وهم يقظون لكل حركة بسيطة يقوم بها . والكلب يرمقه بعينين نفاذتين . فهو ، على ما يبدو ، أنهى مرحلة من التدريب الكامل والخاص بمراقبة الزائرين .

وفكر كوزنيتسوف بينه وبين نفسه : «حتى أنه من المستحيل أن أرفع يدي بله اطلاق النار ...»

التفت كوخ الى كوزنيتسوف من جديد بعد أن ارتاح لخطابه التوجيهي وسأله :

— ماذا تنوي أن تعمل بعد الحرب ؟

— أريد البقاء في روسيا .

— هل أعجبتك هذه البلاد ؟

— ان واجبي يقضي بأن أعمل في هذه البلاد حتى أجعلها كما يرغبها الفوهرر .

— جواب قمين بالضابط الألماني. حسنا ، سأقرر السماح لعشيقتك بالبقاء هنا. ينبغي في بعض الأحيان أن نرأف بالمغلوبين على أمرهم . لكن اياك أن تفكر بالزواج منها . — أنهى كوخ حديثه وهو يكتب القرار على طلب فاليا.

أما فاليا فقد كانت في تلك الأثناء التي بدت لا نهاية لها تجلس في غرفة الانتظار وعيناها عالقتان بالباب الغليظ في قلق شديد. «الآن سوف تدوي الطلقة... الآن...» — هكذا كانت تفكر ، بينما كانت تقول غير ما يدور في خلدها، كان ضابط ألماني يجلس الى جوارها ويعاكسها بالأحاديث .

— أجل ، بالطبع ، ثمة صديقات جميلات ، — قالت له فاليا كما لو كانت تهذي ، — يمكنني أن أعرفك ...

وها هو ذا كوزنيتسوف يخرج من باب مكتب كوخ مبتسما هادىء الأعصاب ، يحمل في يده طلب فاليا .

Twitter: @ketab_n

– ماذا كتب لك الهير الهاولايتر ؟ – سأله باباخ بصوت جهوري ، ثم تناول الطلب من يد كوزنيتسوف وشرع يقرأ : – «يسمح لها بالبقاء في روفنو ، وتعطى عملا في مفوضية الرايخ» . أوه ، تهاني أيتها الآنسة ، تهاني أيها السيد الملازم أول !

وأخذ كل الجالسين في غرفة الانتظار يتقدمون بتهانيهم الى كل من زيبرت وفاليا ويشدون على يديهما . أما باباخ فقد تقدم الى كوزنيتسوف ببعض علب السجائر الممتازة رمزا لتقديره الخاص نحوه .

تأبطت فاليا ذراع زيبرت وخرجا .

وفي البيت سألت فاليا كوزنيتسوف :

– لم تقرر شيئا هناك ؟

– كان ذلك محض حماقة . فقد كان ثمة ثلاثة من الحراس ووقف آخر وراء الستار ولم تلاحظيه، كما يبدو، وكلب يقعي عند قدمي. كان حسبي القيام باية حركة مهما قل شأنها ليقبضوا علي ... آه ، فقط ألا يغادر كوخ مدينة روفنو ، فسيكون مصيره محتوما . سنقضي عليه ، لكننا سوف نقضي عليه بصورة لا تسيىء الى أي منا أو الى الكتيبة . لقد أصبحت الآن من «الموثوق بهم» . تصوري ، أن كوخ مواطن بروسيا الشرقية مفوض الرايخ في أوكرانيا لم يفطن الى أنه انما كان يتحدث الى نصير سوفيتي لم ير ألمانيا قط في حياته ! وعلى كل حال فان لقاءنا معه لم يذهب هدراً ، فان كوخ نفسه صرح أمامي بأن هتلر يهيىء هجوما على جبهة كورسك . وكوخ وصل مجددا من برلين ، أي أن هذه الأخبار لا تزال طرية جديدة . ينبغي أن نبلغ عنها بأقصى سرعة ممكنة !

«العملاء» و «المضاربون»

لقد لفت انتباه مارتشوك – عميل شرطة الاجرام – أحد المضاربين في مخزن الكومسيون كان يتردد عليه دائما ، ويبتاع شتى الأشياء . ففي احدى المرات لاحظ

Twitter: @ketab_n

مارتشوك كيف أن ذلك المضارب ابتاع ادوات متفرقة للجراحة وبدلة ممتازة كان قياسها لا يتناسب مع قياسه ، حتى انه لم يجربها ابدا . ابلغ مارتشوك احد اصدقائه من افراد شرطة الاجرام وقررا ابتزاز الربح من ذلك المضارب المشبوه فيه والحصول منه على الرشوة ، فاما اذا قاوم يسوقانه الى مخفر الشرطة . وانتظر العميلان ذلك المضارب في المحل ، وتحدثا معه حديثا يبدو انه خال من الغرض . ارتبك المضارب قليلا . غير ان الحديث كان بسيطا ولذلك فقد انخرط المضارب في الحديث اخيرا بملء ارادته .

وانتهى القول بينهم في احد المطاعم الصغيرة الى حيث دعاهما مارتشوك للشرب قليلا على شرف تعارفهم .

طلب العميلان هناك نبيذاً باهظ الثمن وطعاماً كثيراً ، ونوها للمضارب بصراحة أنه سوف يدفع الحساب ، ولم يعترض هذا على شيء .

وفي معمعان تلك الجلسة قال عميل شرطة الاجرام مارتشوك للمضارب:

– ينبغي على المضارب أن يكون بارعا ، أما أنت ياصاحبي فلم تلاحظ كيف وقعت في أيدينا.

ثم ابرز له هويته كشرطي جنائي ولمح له بالقول انهما سوف يخليان سبيله اذا ما هو اقتسم ما عنده بينهما وبينه . لكن المضارب المقبوض عليه لم يفتأ منهمكا بالأكل دون أن يعلق على ذلك التهديد بشيء. وأخيرا، وبعد أن فرغ من تناول طعامه نهض باتئاد وقال للعميلين بلهجة الآمر :

– ادفعا الحساب !

– وكيف هذا؟ من ذا تكون أنت؟

عندئذ أخرج المضارب من جيبه دفتراً صغيراً وأراه للعميلين المرتبكين . لقد كان ذلك الدفتر يشير الى أن «حامله» فلاديسلاف انطونوفيتش يانكيفيتش رجل الغستابو في روفنو .

ومنذ تلك اللحظة تغير كل شيء حول المائدة في ذلك المطعم . فلم يدفع العميلان الحساب وحسب وانما أخذا

Twitter: @ketab_n

يستغفرانه ويعتذران في امتنان : فشد ما كان عملاء شرطة الاجرام يرهبون رجال الغستابو .

وعندما خرجوا جميعا من المطعم أجلس العميلان يانكيفيتش في عربة وأوصلاه الى منزله .

لكن يانكيفيتش لم يكن رجلا حاملا للضغينة على ما ظهر أخيراً من أمره ، فقد وعد مارتشوك أن يزوره في منزله .

لقد قص علي هذه الحادثة النصير ميخائيل ماكاروفيتش شيفتشوك عندما ودع روفنو «لاسباب تتعلق بالخدمة» وعاد الى المعسكر. أنه هو نفسه كان يانكيفيبش رجل الغستابو.

كان ابن أوكرانيا الغربية ميخائيل ماكاروفيتش من رجال العمل السري القدماء . فقد أمضى خمس سنوات في السجن في عهد بولونيا الاقطاعية لنشاطه الثوري. ثم أعاد له الجيش الأحمر حريته في عام ١٩٣٩ . وكان شيفتشوك قد اتم أربعين عاما ونيف من العمر عندما التحق بكتيبتنا.

وسرعان ما تكيف شيفتشوك مع الوضع في روفنو . كان يحاكي الألمان في كل شيء : يحمل نظارة سوداء ، يتمشى في الشوارع وفي يده باقة الزهور ، ويشتغل في المضاربة البسيطة . وكان عمله في المضاربة مجرد شكلية وحسب . لكنه كان يوافي كتيبتنا بجل ما يبتاعه من الأشياء. أما تلك الوثيقة التي تؤكد أنه رجل الغستابو فقد كنا نحن أعددناها له .

وبعد حادثة المطعم ذاعت الاشاعة وصار الكل يعرفون بأن يانكيفيتش رجل الغستابو . وصار مدير المنزل الذي يسكنه شيفتشوك يوافيه بكل «الناس المشبوه فيهم» . وفي تلك الأثناء اتيح لشيفتشوك ان يحضر لنفسه عدة منازل أمينة كان اربابها جميعا من أصحابنا الذين كانوا يقومون بتنفيذ اعمال نكلفهم بها .

وكان لنا روفنو ثمة «مضارب» آخر جميل ورشيق ، وكما كانت تدعوه الاوكرانيات «العينان الرائعتان»، انه كوليا غنيديوك . وكان يعيش في روفنو تحت اسم باتشينسكي البولوني .

Twitter: @ketab_n

وكيما يغشي غنيديوك العيون عن حقيقته فقد اشتغل كذلك في شؤون المضاربة: كان يبتاع الأشياء بأثمان بخسة ثم يبيعها بأسعار مرتفعة أو منخفضة احياناً . وقد تعرض له عملاء شرطة الاجرام كما تعرضوا لشيفتشوك ، لكنه سرعان ما أرضاهم من رشواته .

قام كوليا غنيديوك كذلك بتنظيم جماعة سرية، وكانت تحت تصرفه عدة منازل سرية .

منذ حين عاد الى روفنو كذلك نيقولاي ستروتينسكي . وكنا قد أرسلناه من قبل الى لوتسك حيث قام بتنظيم عدة جماعات استطلاعية وسير شؤونها . وفي لوتسك حصل ستروتينسكي على الوثيقة المطلوبة التي تشير الى انه مراسل لصحيفة لوتسك «صوت اوكرانيا» التي يصدرها الألمان .

وصار نيقولاي يراقب غستابو روفنو ومفوضية المقاطعة . واستطاع ان يقع على مساعدين بين المستخدمين في هاتين المؤسستين ، وكان يعمل الى جانبه أيضا أخوه جورج الذي كان اسمه في روفنو غريغوري فاسيلييفيتش .

وهكذا فقد استطعنا خطوة فخطوة أن نشمل كل المؤسسات الألمانية في روفنو بشبكتنا الاستطلاعية .

كان مستطلعونا جميعاً مقيمين دائمين تقريباً في روفنو ، لا يغادرونها الى مكان آخر . وكانوا يقومون بنشاطاتهم موزعين من اجل تأمين أشد السرية في عملهم . وكان لكل منهم ساع خاص يبعث بواسطته كل ما يحصل عليه من معلومات الى «المنارة» والمعسكر : فقد كان كوليا الصغير عند كوزنيتسوف ، وسعاة جماعة زدولبونوفو عند غنيديوك ، وماجور عند شيفتشوك ، وكل من جورج وياذزيا عند ستروتينسكي .

وكانت ظروف تأمين السرية تطلب تفوق المستطلعين . لكن أنصار جماعتنا كانوا يقومون باتصالات فيما بينهم بين الحين والحين عندما يحتاج أحدهم الى مساعدة الباقين ، أو عندما كانت الحاجة الى تنسيق أعمالهم .

وكان المستطلعون غالباً لا يعرفون من في روفنو من

Twitter: @ketab_n

الكتيبة سواهم . «فالجدد» لم يعرفوا «القدامى» ، و«القدامى» لم يعرفوا أحداً من «الجدد» . ولهذا فقد كانت تحدث أشياء طريفة للغاية سأذكر منها هذه الحادثة .

كان نيقولاي غنيديوك يتردد على منزل ليديا التي كانت تقوم بنشاط سري والتي كانت تساعدنا كثيراً . وحدث مرة من قبيل المصادفة أن جاء ليو ميتكو ، الذي صار معروفاً لدينا، وعرف الملازم أول باول زيبرت عليها . وصار زيبرت يتردد بعد ذلك على ليديا آملا في أن تكون من مساعديه.

وصدف مرة أن جاءها زيبرت في الوقت الذي كان عندها نيقولاي غنيديوك ، واضطرت الى أن تخبىء هذا النصير عن عيني «الضابط الألماني».

وذات مرة قالت ليديا لغنيديوك :

اسمع ، يجب التخلص من باول الملعون هذا بطريقة ما! لماذا يتردد علي هنا ؟ لشد ما أمقته ، انه دائما لا ينفك يتبجح بنفسه مثل ديك رومي ، ولا يتفوه بكلمة روسية واحدة، وهو يمضغ كلماته بالبولونية بصورة — سئمت من سماعه !

فأجاب غنيديوك دون أن يعرف عمن يدور الحديث :

— أجدير بشيء ياترى ؟

— جدير ، انه فاشي كبير .

وعند مجيء زيبرت في المرة التالية اقترحت ليديا على غنيديوك أن يسترق النظر . ومن الغرفة المجاورة وصوص غنيديوك في ثقب المفتاح ورأى ... كوزنيتسوف . وآن للسر أن ينكشف ، فصار «الضابط الألماني» ، «باول الملعون» أصدق أصدقاء ليديا .

وهاكم حادثة ثانية .

عاد في احدى المرات اثنان من المستطلعين من مدينة روفنو ، فأبلغانا ما لديهما من الأنباء ، وتحدثا الينا كيف اكتشفا أحد الأوكرانيين يعمل في الغستابو ويعرقل لهما الأعمال . فسألهما نوكين :

— وكيف يعرقل أعمالكما ؟

Twitter: @ketab_n

فأجابه أحدهما :

– يتردد دائما على هانا التي توجد عندها شقتنا السرية .

– ايه، صفه لي قليلا، قل لي ماذا تعرف عنه؟

– انه شيطان عتيق ! يلبس نظارة ، ويتردد كثيرا على شقتنا هناك ... ومادا أقول عنه ، حتى أن مدير المنزل نفسه يعرف انه من الغستابو . فآن لنا الأوان أن نصفي معه الحساب .

فاضطرب لوكين وقال :

– رويدك ، رويدك ! وهل يشتغل في شؤون المضاربة ؟

– وكيف لا ، طبعا يشتغل .

وباختصار ، فان الحديث كان يدور حول ميخائيل ماكاروفيتش شيفتشوك .

وبعد مدة وجيزة من الزمن أقام شيفتشوك «حفلة زفاف» بمناسبة «زواجه» من هانا . وقد حضر الى تلك الحفلة كثير من المدعوين ومن بينهم مارتشوك عميل شرطة الاجرام . وأصبح شيفتشوك بعد ذلك مقيما دائما في روفنو ورب أسرة فيها .

لكنه لم يكن كل شيء في أعمالنا ليتم في سهولة ويسر .

فقد ذهب مستطلعنا كارابتيان الى روفنو مرات عديدة بمهمات أوكلت أمرها اليه . وكان يعرج عادة على شقة سرية في المدينة تسكنها زوجة ملازم في الجيش الأحمر مع طفلين لها .

وذات مرة جاء كارابتيان الى تلك الشقة وقد شرب حتى الثمل . فالتقى هناك برجلين لم يكن يعرفهما . وكما يقول المثل : البحر بالنسبة للسكران لا يبلغ الركبتين . فأخذ كارابتيان يتبجح أمامهما :

– أتعرفان من أنا ؟ وحق السماء ولن تعرفا من أنا ذا أكون . أنا انسان جد خطر على الألمان !

وشرعت ربة الشقة التي كانت تقف خلف ظهر الرجلين الغريبين تشير اليه أن يلجم لسانه ، لكن ذلك كان عبثا !

Twitter: @ketab_n

– أنا فاهم ، اسكتي ! هيه ... أنا ، انك لن تقدر علي يا صاحبي بيديك وحدهما . ها هي ذي ، أرأيتما ! – وهنا أراهما المسدس والرمانات اليدوية ، – ماذا ، هل خفتما ؟ لن أسيىء اليكما .هنالك من يستحق ...

وسمع الغريبان الى ما يقوله ، ثم ودعاهما بسرعة وانصرفا .

وقد جرت هذه الحادثة الي عواقب وخيمة مؤسفة .

فعندما عاد كارابتيان الى المعسكر لم يبلغنا شيئاً عما حدث . لكن نيقولاي ستروتينسكي الذي كان يستخدم تلك الشقة قص علينا كيف أن الغستابو ألقى القبض على كل من ربة الشقة وطفليها الاثنين .

وجرى التحقيق مع كارابتيان لدى قيادة الكتيبة فاعترف بكل شيء . كان من المستحيل غفران مثل تلك الجريمة . وتنفيذاً لقرار القيادة فقد نفذ حكم الاعدام بكارابتيان رميا بالرصاص .

وبعد عدة أيام من تلك الحادثة ألقى الغستابو القبض على جورج ستورتينسكي . فقد ترصدوه عندما ذهب الى الشقة السرية التي كان كارابتيان قد كشف لهم كنهها.

لقد قبضوا على جورج وهو في طريقه الى «المنارة الخضراء» . ثم تمكن من الفرار ، وجرى وهو يتبادل النار مع جماعة الغستابو ، لكنه جرح فقبضوا عليه من جديد . ولم يخامرنا الشك لحظة واحدة في ثبات جورج واخلاصه ، فهو لن يفشي لهم شيئاً من أمرنا مهما كلفه الأمر. لكننا خشينا أن يكون الغستابو قد اكتشف مستطلعينا الآخرين .

ولهذا قررنا سحب كل المستطلعين من روفنو الى اشعار آخر . فغادر المدينة كل من كوزنيتسوف وغنيديوك وشيفتشوك ونيكولاي ستروتينسكي الى محطة زدولبونوفو.

لكن هذا، كما تبين لنا فيما بعد، كان افراطا في الحيطة والحذر، فلم يعلم الغستابو أي شيء عن عملنا في مدينة روفنو.

Twitter: @ketab_n

منذ شهر شباط (فبراير) عام ١٩٤٣، عندما كانت كتيبتنا بكامل تعدادها موجودة في غابات سارني، كنا نتلقى كثيرا من الأخبار عن طريق مستطلعينا في كل من روفنو وسارني وكليسوفو وراكيتنويه ومن السكان المحليين كذلك بأن تشكيلة كبيرة للأنصار تعمل في مكان ما الى الشمال منا.

كان السكان يتناقلون فيما بينهم:

– كوفباك يقود مائة ألف من الأنصار.

وكتب الي كوزنيتسوف من روفنو يقول: «ان تشكيلة هائلة للأنصار بقيادة كوفباك تقض مضاجع فصائل الدرك وعصابات التنكيل. ان الألمان رجالا ونساء يتحدثون في رعب ظاهر كيف أن كوفباك يظهر بغتة في كل مكان فيبيد كل الحاميات الألمانية وينسف الجسور والقطارات. وشد ما يرهبون ظهوره في مدينة روفنو».

ولم نكن نعرف شيئا عن كوفباك وهذه التشكيلة.

وبعد فترة وجيزة من الزمان أبلغني المستطلع فاليا سيميونوف أن أنصار كوفباك وصلوا الى كنياز – سيلو واقاموا في القرى المجاورة هناك. فسألته:

– أرأيتهم؟

– لم أر كوفباك نفسه بعد، لكنه بعث الينا بممثلين عنه.

وبالفعل، فبعد ساعة واحدة من ذلك تعرفت على واحد من ممثلي كوفباك. لقد كان معتدل القامة قوي البنية ذا لحية كبيرة. ترجل وتقدم الي:

– فيرشيغورا، رئيس الاستطلاع في تشكيلة كوفباك.

وكانت على ياقة قميصه ثلاثة مستطيلات تعني رتبة عقيد. وقد ثبت على الجانب الأيسر من الصدر وسام «الراية الحمراء».

كان فيرشيغورا حريصا بعض الشيء في أجوبته على أسئلتنا. لكنه في مقابل ذلك كان شغوفا متلهفا للتعرف

Twitter: @ketab_n

على المزيد من التفاصيل فيما يخص الوضع عندنا: عن مواقع الحاميات الألمانية، وعما اذا كان ثمة عدد كبير من القوات الألمانية في روفنو ومقاطعتها، وعلى أية القرى يسيطر الأنصار.

ثم قال لي بيوتر بيتروفيتش فيرشيغورا:

– لقد قرر سيدور أرتيموفيتش كوفباك مع سيميون فاسيلييفيتش رودنيف احياء ذكرى الجيش الأحمر. وطلبا الي أن أبلغك دعوتهما الينا في كنياز – سيلو للاحتفال بالعيد.

ومع فجر ٢٣ شباط (فبراير) توجهت الى كنياز – سيلو برفقة باشون وجماعة صغيرة من الأنصار.

لقد حدث لي في حياتي الأنصارية أن التقيت كثيرا بفصائل أخرى للأنصار أو المستطلعين أو ببعض الأنصار في مؤخرة العدو. وكانت تلك اللقاءات دائما تهزني بصورة خاصة. فكنت عقب كل لقاء أفكر بيني وبين نفسي: «نحن لسنا وحيدين هنا، فالأنصار كثيرون ونحن في كل مكان». لكن لقائي مع كوفباك وأنصاره حفر آثارا عميقة في نفسي ستبقى خالدة مدى الحياة.

فعندما مررنا بقريتي لينتشين ورودنيا–لينتشينسكايا حيث كانت تعسكر وحدات كوفباك نسيت أنني كنت في مؤخرة العدو. لقد كان الأنصار يطوفون في الشوارع برشيشاتهم ورشاشاتهم، تتوهج على قبعاتهم الأشرطة الحمراء والنجوم الحمر الخاصة بالجيش الأحمر. كان الكثير من رجال كوفباك قد منحوا الأوسمة، فكانت الأوسمة والمداليات الجديدة تلمع على قمصانهم. وكانت الرشاشات الثقيلة وحتى المدافع نصبت بالقرب من بعض البيوت. والأنصار ينشدون أغانيهم ويتبادلون التحايا بصوت عال.

كنت أتصور كوفباك عملاقا ذا صوت يهزم كالرعد. وكم كانت دهشتي عظيمة عندما التقيت به رجلا نحيف الجسم في الستين من عمره ذا صوت هادىء رزين، وتلمع على صدره نجمة ذهبية ووسام لينين.

Twitter: @ketab_n

– مرحبا بك، أيها الرفيق ميدفيديف، – قال لي سيدور أرتيموفيتش، – لقد سمعت الكثير عنك في غابات بريانسك وهنا أيضا في أوكرانيا. لقد احسنتم صنعا!

وأخذ كوفباك يمطرني بوابل من الاسئلة: أمنذ زمان نحن هناك في تلك البقاع؛ وكيف نقوم بنشاطنا؛ وكم ستطول بنا الاقامة في ضواحي روفنو. وتحدثت الى سيدور أرتيموفيتش عن كل شيء بالتفصيل.

– اننا سوف نبقى هنا الى أن يأتي الجيش الأحمر الى هذه البقاع.

وفي تلك الأثناء دخل الغرفة رجل وسيم طويل القامة تزين قميصه الأوسمة. وكان التعب والانهاك ينم في صفحة وجهه. فقال لي كوفباك:

– تعارفا: انه المفوض السياسي في كتيبتي.

وتبادلنا التحية بحرارة وبدأ سيميون فاسيلييفيتش رودنيف يجاذبنا طرف الحديث. وسألني:

– أصحيح أن لك أنصارا في روفنو نفسها؟

وعندما أكدت له صحة ذلك صار سيميون فاسيلييفيتش أكثر حيوية. وأخذ يسألني عن كل دقائق الأمور: كيف توصلنا الى ذلك، وأية هويات يستخدم أنصارنا للذهاب الى هناك، وكيف أتيح لنا الاتصال بالمنظمة البلشفية السرية هناك، ومن هو نوفاك، وكيف نقوم واياه معا بالعمليات المشتركة.

فقال رودنيف متوجها الى كوفباك:

– آه، لو أننا نفلح في تنظيم مثل هذه الأعمال كذلك، يا سيدور أرتيموفيتش.

ورجاني سيدور أرتيموفيتش أن أسعى في تزويد رئيس الاستطلاع عنده بالوثائق المناسبة واستطرد يقول:

– من السهل أن نلقى بيننا شبابا يصلحون للذهاب الى روفنو، لكنه ليس لدينا ألماني.

فسأله رودنيف:

Twitter: @ketab_n

– وأي ألماني تعني؟
– ان لديهم نصيراً يعمل في روفنو في هيئة ألماني.
– ياه!.. وهل من الممكن أن أراه؟
فأجبت:
– كلا، للاسف، فهو الآن موجود في روفنو.
– أوليس من الممكن ان نعرف بواسطة «ألمانيكم» في روفنو عن نتائج الاعمال التخريبية التي قمنا بها في مقاطعة روفنو؟
ووعدته بأن أبلغ الأمر الى كوزنيتسوف.
ودنا المساء، فأعدت موائد العيد في ثلاث غرف كاملة وقد جلس اليها رجال الاركان وأمراء الكتائب والسرايا، وكانوا جميعا حوالي سبعين شخصا.
ورفع سيدور أرتيموفيتش كوفباك أول كأس لنشرب نخب حزبنا العزيز. ثم تقدم سيميون فاسيلييفيتش رودنيف بكلمته. لو كنتم ترون ما يفيض من الحب والاخلاص والولاء من أولئك الحضور وهم يسمعون الى كل من القائد والمفوض السياسي!
ثم جاء دوري في الكلام.
تحدثت عن كتيبتي، وعن الرعب الفظيع الذي أحدثه ظهور كوفباك وجماعته بين الهتلريين؛ فليس من الصدف أن عصابات التنكيل تسأل أول ما تسأل أثناء مرورها في القرى والعزب: «هل يوجد هنا كوفباك؟» وتحدثت اليهم كيف أن «الحكام» الألمان وزوجاتهم في روفنو يستطيرون فرقا من هجوم كوفباك على روفنو.
وانتهى العيد بالرقص على أنغام الأكورديون. وعند الفجر عدنا أدراجنا الى المعسكر.
وبعد ثلاثة أيام عندما خرجت تشكيلة كوفباك الى خطها الشهير – الكاربات أبلغنا المفوض السياسي رودنيف كل المعلومات المفصلة التي كانت تهمه آنذاك.
ومضت أربعة أشهر كاملة منذ ذلك الوقت. وخلال هذه المدة توغلنا في جهة الغرب الى ما وراء نهري سلوتش وغورين، وعسكرنا في غابات تسومان.

Twitter: @ketab_n

وانني لا أزال أذكر ذلك اليوم القائظ من أيام حزيران (يونيو) عندما ظهر أمام خيمتي الساعي وقد تملكه الاضطراب، وكان قد أرسله المخفر السري الذي بعثنا به الى احدى الطرق التي تبعد كيلومترين عن المعسكر. وقال لي :

– أيها الرفيق القائد، ان رتلا كاملا للألمان يسير على طول الطريق من جهة قرية جورافيتشي، الخيالة تسير في المقدمة، تليها العربات المحملة بالجنود وتوجد أيضا المدافع.

ولم أكد أتبصر ذلك الأمر جيدا حتى بلغني اثنان آخران يلهثان من التعب: واحد من الخفراء المحاربين الذين يحرسون المعسكر، ونصير آخر كان يرعى المواشي في مروج الغابة بالقرب من المعسكر. وأكد لنا الاثنان أنهما شاهدا بأعينهما الخيالة الألمان.

ولم يبق في الأمر أدنى شك: فقد ظهر الألمان من ثلاث جهات.

فأوعزت الى ستيخوف أن تتحرك الفصيلة المناوبة الى جهة العدو وأن يؤمن هناك مركزا للقيادة. أما أنا فقد بقيت في المعسكر لأقوم بتجهيز الباقين، ولأحافظ على الاتصال مع المخافر الباقية.

ولم يكد سيرجي تروفيموفيتش يبتعد مائتي متر حتى مزقت صمت الغابة رشة طويلة. ثم تبعتها نيران الرشيشات والبنادق الكثيفة.

قررت أن رفاقنا أطلقوا تلك الرشات، وخشيت أن يأتوا على ما عندنا من الذخيرة، وكان قليلا جدا، فأرسلت الساعي بأمر اطلاق النار الدقيق على الهدف وحسب وتوفير الذخيرة.

وتوارى الساعي خلف الأشجار بلحظة.

وبلغني من جديد:

– أيها الرفيق القائد! لقد بلغني من المخفر أن الألمان ينصبون مدافعهم في الطريق.

وأمرت بازانوف:

Twitter: @ketab_n

– خذ خمسة وثلاثين نصيراً مسلحين بالرشيشات، واستول على المدافع!

وتوارى بازانوف في الغابة بسرعة البرق.

وحمي وطيس المعركة. فدوت صيحات «هورا».

وفكرت قليلا: «أيعقل أن يكون ستيخوف قد تحول بجماعته الى الهجوم دون أن يعلمني بالامر؟» لكن الساعي الذي كنت قد أرسلته عاد الي وقال:

– لقد بلغت الأمر. الرفيق ستيخوف يقول ان اطلاق النار كان من جانب الهتلريين وان جماعتنا تطلق النار قليلا، وانه جد مندهش لسماعه صيحات «هورا» الروسية تنبعث من جانب العدو.

– بلغ ستيخوف ألا يقود جماعته الى الهجوم، فالمدافع على يمينه، وقد أرسلت بازانوف الى هناك، فليتصل به.

وظل موقف القتال مبهما، لماذا تدوي صيحة «هورا» من جانب العدو؟ أيعقل أن يكون الألمان قد جعلوا الخونة يتقدمونهم في الطريق؟ فلا أنا ولا لوكين استطاع أن يفهم شيئا. وأخيرا تجلى لنا الأمر على حقيقته.

كان بوريس كروتيكوف الذي ذهب مع ستيخوف هو آمر الفصيلة المناوبة. وتقدم رفاقنا الى العدو مستفيدين من تعرجات الارض ومتوارين خلف الأشجار وبين الجذوع حتى صاروا على مقربة منه، وفجأة وعلى حين غرة سمع كروتيكوف صوتا يقول له:

– وما أنت يا بوريس، أترمي رفاقك؟

كان صوت امرأة من جانب المهاجمين.

نظر كروتيكوف الى صاحبة الصوت وجمد في مكانه. لقد تعرف في «عدوته» على زميلة له في المدرسة كان يجلس واياها جنبا الى جنب على مقعد واحد. وهب كل منهما لعناق صحبته.

وعلى مقربة منهما كانت الحوادث تجري بصورة أخرى.

عندما اقترب بازانوف من الطريق حيث كان العدو يهيىء مدفعيته للقتال ، أراد أن يرهب العدو فصرخ عاليا:

Twitter: @ketab_n

– الفوج! السرية الأولى – الى اليمين، السرية الثالثة – الى اليسار، السرية الثانية من ورائي!

وعندئذ دنا منه رجل غريب وقال:

– لقد انتشر فوجنا!

– وأي فوج؟

– الفوج الثاني لكوفباك!

وأوقف اطلاق النار حالا، وبدأ «العناق»: لقد «هجم» علينا أنصار كوفباك.

وذهبت مع سيرجي تروفيموفيتش ستيخوف الى كوفباك. فاذا كان لقاؤنا الأول مع كوفباك في شباط (فبراير) دافئا وديا فلقد نعتنا اللقاء الثاني مع سيدور ارتيموفيتش بأنه «ساخن» على سبيل المزاح.

كان أنصار كوفباك في طريقهم آنذاك الى الكاربات. كانوا مسلحين جيدا وفي أحسن الملابس والأحذية. وكان ظهورهم المفاجيء في مناطقنا الجديدة نتيجة لتحركاتهم الخاطفة، فقد كان طول مرحلة سيرهم الأخير خمسين كيلومترا. ولهذا فلم يستطع أحد من مستطلعينا أو من سكان تلك المنطقة تنبيهنا الى اقترابهم. وحسبوهم من الألمان لأن محاربي الخيالة عند كوفباك كانوا يرتدون الملابس التي غنموها من الألمان.

ومكث أنصار كوفباك عدة أيام على مقربة من معسكرنا، وكنا نتبادل الزيارات يوميا مع كوفباك ورودنيف.

وتذكر سيدور أرتيموفيتش عن كوزنيتسوف فقال:

– هل لنا أن نرى «ألمانيكم»؟

وفي اليوم التالي قدم الينا كوفباك ومعه رودنيف، فعرفتهما على «ألمانينا» نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف الذي كان قد عاد لتوه من روفنو.

– يا سلام! يا سلام! – كان يردد كوفباك هذه الكلمات وهو يصغي الى حديث كوزنيتسوف عن أعماله في قلب معاقل الهتلريين.

وقد أدهشت سيدور أرتيموفيتش أصناف السجق

Twitter: @ketab_n

المختلفة التي كنا نقدمها لضيفينا على المائدة الى جانب قطع من لحم الخنزير المدخن.

– ومن أين لكم بمثل هذه الوفرة من السجق؟

– اننا نصنعها بأنفسنا، يا سيدور أرتيموفيتش.

وفعلا، فقبيل ذلك الوقت تمكنا من انتاج السجق ولكن لا لاغناء موائدنا بأصنافها وانما لأشياء أخرى. كان المستطلعون يخرجون أسبوعا أو أسبوعين، وثمة بعض الأنصار الذين يتناوبون الحراسة في «المنارات»، فكان علينا أن نوفر لهم زادهم، فكان من المحظور على أنصارنا الذهاب الى القرى من أجل جمع المواد الغذائية. فماذا بعد هذا كان يمكننا أن نعطيهم من الزاد غير الخبز؟ اللحم المسلوق سرعان ما يفسد والناس في مجاعة؛ فكان انتاج السجق أروع حل لتلك المسألة. فقد توفر لدينا اختصاصيون بهذا العمل ممن تحسدهم على صنعتهم كل معامل انتاج السجق. لقد تحدثت عن هذا كله الى سيدور أرتيموفيتش.

وبعد ساعتين من جلوسنا الى المائدة ظهرت جماعة كاملة من أنصار كوفباك. فتقدم أحد أفرادها الى كوفباك وقال:

– أيها الرفيق القائد بطل الاتحاد السوفيتي، ائذن لي أن أتوجه بالكلام الى العميد ميدفيديف.

– أذنت لك، – اجاب كوفباك.

– أيها الرفيق العميد، لقد جئنا اليكم راجين أن تعلمونا طريقة انتاج السجق.

وتبين لي آنذاك، أن سيدور أرتيموفيتش أثناء جلوسنا حول مائدة الغداء أرسل رسالة مع الساعي الى رئيس قسم المؤونة لديه كيما يرسل هذا الأخير جماعة لتعلم فن انتاج السجق.

...وتوغلت تشكيلة كوفباك بعيدا في طريقها الى الكاربات. وقبل مغادرتها لنا تم الاتفاق معه على الكود الخاص ووضعنا الجدول والنداءات للاتصال اللاسلكي بيننا وبينه، كيما تتسنى لنا فرصة اعلام احدنا الآخر عن كل ما هو ذو شأن، ويمكن ان يقدم لكتيبتنا ولتشكيلته المساعدة.

Twitter: @ketab_n

على شارع عادي هادىء من شوارع روفنو كان يقوم محل صغير لتصليح الساعات، علقت عليه لوحة كتب عليها «تصليح ساعات من كل الماركات» أكبر من نافذة المحل التي كان يعمل قرب منها المصلح ديكي. وكان هذا المحل الصغير شقة سرية لأنصارنا ويستخدمها ميخائيل ماكاروفيتش شيفتشوك وثلاثة آخرون من الأنصار.

ولاحظ ديكي ذات مرة كيف أن صبيا بين الحادية عشرة والثانية عشرة من عمره كان يتفحص تلك النافذة بامعان بالغ ويكثر من المرور أمامها.

وفي اليوم التالي مر شيفتشوك على ديكي، ناوله ساعته عبر النافذة، وهمس له شيئا ما. ثم استعاد الساعة وانصرف. وفي تلك الاثناء ذاتها لمح ديكي ذلك الصبي نفسه على رصيف الشارع المقابل.

ففكر الساعاتي: «ثمة في الأمر شيء ما».

ومضت ساعة ثم أخرى، وظهر الصبي أمام النافذة من جديد، فاشرأب بعنقه اليها وسأل:

– عماه! ألا تدري أين يمكنني أن أجد الأنصار؟

– ما أنت، هل أصابك مس؟ وأي الأنصار تريد ؟

وارتسم الخوف في عيني الصبي الصافيتين السوداوين، لكنه لم يبرح ذلك المكان وقال:

– كنت أظن لسبب ما أنك تعرف، ربما تعرف من يعرفهم؟

– «تعرف... تعرف»!.. ومن أين لي ذلك!

– حسنا، – قال الصبي وابتعد.

لكن ديكي شغله أمر ذلك الصبي. فخرج من المحل ونادى الصبي بأعلى صوته:

– هيي، أيها الولد، عد الي!

وهرع الصبي من جديد الى النافذة.

– تعال، ادخل.

Twitter: @ketab_n

ودخل اليه في المحل.

– قل لي ماذا تروم من الأنصار؟

– ليس لي الحق في قول هذا، يمكنني أن أقول لقائد كتيبة الأنصار ميدفيديف وحده.

– يا لك من صبي! ايه، اجلس قليلا.

وكان ديكي يعرف أن مستطلعنا ليسيكين سوف يأتي اليه سريعا بورقة من شيفتشوك. وسرعان ما ظهر ليسيكين فعلا عند النافذة وسلم التقرير.

– ان ثمة صبيا لدي، خذه معك وانظر في حاجته، وكن على بصيرة من أمره.

وأجاب الصبي على سؤال وجهه اليه ليسيكين بأنه مرسل الى كتيبة ميدفيديف من قبل فصيلة لينين للأنصار الموجودة بالقرب من فينيتسا.

ثم صرح الصبي في حزم :

– هذا كل ما يمكنني أن أقول لك ، ولن أقول شيئا عداه.

– ما اسمك ؟

– فولوديا .

واصطحب ليسيكين معه ذلك الصبي بعد أن بلغه ديكي أن شيفتشوك يطلب منه الذهاب الى مكان محدد حيث ستقله سيارة الى المعسكر .

فمنذ مدة خلت كان كل من كوزنيتسوف وشيفتشوك قد قرر ألا يمشي على قدميه بعد ، فكوليا ستروتينسكي قد دبر الامور بحيث صار كاراج السيارات التابع لمفوضية مقاطعة روفنو نفسه، يضع سيارات الشحن وسيارات الركاب على السواء تحت تصرفه وتصرف كل من كوزنيتسوف وشيفتشوك غب الطلب كلما مست الحاجة اليها . وكان يحدث كثيرا أن ينتظر مفوض المقاطعة نفسه سيارته دون أن يعلم أن سائقه يخدم الأنصار في هذا الوقت .

كان هذا الذي اتحدث عنه في أواخر شهر آب (اغسطس) .

Twitter: @ketab_n

وأرسلت الى كوزنيتسوف ، وكذلك الى باقي المستطلعين في روفنو ،أمرا بوجوب العودة الى المعسكر لتلقي تعليمات وارشادات جديدة .

وقد وجهت لهم الى المكان المتفق عليه احدى سيارات اللوري. واستطاع النصير زوبنكو سائق سيارة مفوضية المقاطعة أن يحصل مهمة يخرج بها الى لوتسك . فأعطوه بطاقة خروج وشحنة كاملة من الصحف والمنشورات الفاشية لنقلها الى مدينة لوتسك .

وبلغ ليسيكين وفولوديا المكان المحدد .

فسأله نيقولاي ايفانوفيتش (الملازم اول زيبرت) في دهشة وهو يقف بالقرب من السيارة :

— ومن أين لك مثل هذا الصبي ؟

— انه يبحث عن كتيبة ميدفيديف ، ويقول ان فصيلة ما قد أرسلته اليه .

— خذه معك في السيارة وسننظر في أمره فيما بعد .

لكن فولوديا آنذاك أفلت يده من يد ليسيكين وأطلق ساقيه للريح .

واستطاع ليسيكين بقفزتين أن يمسك به من جديد .

— الى أين أيها الشيطان الصغير ؟

— عماه ، دعني ، فأنا كنت أقول كل شيء عمدا وبدافع الفضول .

— يا للوقح الصغير ! يعني هذا أن رجال الدرك أرسلوك الينا ؟

— أنتم انفسكم الدرك ! — قال فولوديا مغتاظا وهو يرمق كوزنيتسوف بنظرة مفعمة بالحقد والكراهية .

فقال ليسيكين ضاحكا :

— هيه ، لتعتبر ! هل أفزعك ؟

ولم يفكر ليسيكين مطلقا في ما يمكن أن يثيره كوزنيتسوف المتنكر في هيئة ضابط ألماني من مخاوف في نفس ذلك الصبي .

عندئذ انحنى ليسيكين قليلا وهمس في أذن الصبي شيئا ما ، فصعد هذا الى السيارة طائعا في الحال .

Twitter: @ketab_n

كانت تلك السيارة تقل ستة من المستطلعين وقد خبأوا أسلحتهم تحت الصحف الفاشية ، واتخذ كوزنيتسوف مكانه الى جانب السائق .

وعند مدخل مدينة روفنو كانت لوحة هائلة معلقة عند أحد المخافر كتب عليها باللغة الألمانية :

«يمنع خروج السيارات فرادى» .

كان الألمان يخرجون بسياراتهم في طوابير فقط كيما يتمكنوا من صد هجومات الأنصار.

وهناك صرح كوزنيتسوف أنه لا يقدر أن ينتظر انتظام طوابير السيارات لأن لديه مهمة مستعجلة. فسمح للسيارة بالمرور . لكن ثمة عقبة كبيرة أخرى داهمتهم فيما بعد .

فعلى بعد عشرة كيلومترات من روفنو كان يعلق اعلان على عمود الطريق يقال فيه أن الطريق معطلة وينبغي تغييرها الى طريق أخرى . وكان هذا يعني أن السيارة ستعود أدراجها عشرة كيلومترات الى الوراء لكن كوزنيتسوف قرر متابعة السير الى الأمام .

ولاح له من بعيد جماعة من الألمان تكوموا عند الجسر . وحينما دنت السيارة منهم تقدم أحد الضباط الألمان وحيا «الملازم أول» كوزنيتسوف بوقفة استعداد ثم قال:

– لقد حرق الجسر كما ترون ، ثم انه من الممنوع الخروج بسيارة واحدة أيها السيد الملازم أول . فلربما تفاجئكم كمائن الأنصار .

فقال كوزنيتسوف في نبرات حادة :

– ومن هم أولئك الانصار ! اذا كنت هكذا تفهم الأنصار فان علينا أن نلازم بيوتنا ؟ انها الحرب ، ولدي مهمة مستعجلة !

فأجاب الضابط وقد جبن أمام كوزنيتسوف :

– أرجو أن تكلموا آمر الفوج بهذا الشأن . ها هو ذا نفسه قد أتى !

نزل كوزنيتسوف من السيارة وتوجه الى لقاء الرائد الالماني .

Twitter: @ketab_n

– هايل هتلر !
– هايل !
كان المستطلعون على ظهر السيارة قد هيأوا مسدساتهم مستعدين لأي طارىء . أما فولوديا الذي أدرك للحظات وجوده مع الأنصار فتكوم في الزاوية على ظهر السيارة وقد شعر بأولى لحظات الخطر .
وبعد دقيقتين سمع المستطلعون كيف أن قائد فوج المهندسين أعطى ايعازا بصوت مرتفع أجش الى الجنود العاملين في ترميم الجسر . وسرعان ما ترك أولئك الفؤوس والرفوش واندفعوا الى السيارة .
واعتقد المستطلعون أن «كل شيء قد بدأ» .
لكن كوزنيتسوف في تلك الأثناء اقترب من السيارة في هدوء ظاهر وهمس لهم:
– كل شيء على ما يرام . الآن سوف يجرون السيارة .
فسأل ليسيكين :
– وهل ينبغي علينا أن ننزل من السيارة ؟
– لا ، الزموا أماكنكم !
وأخذ خمسون جنديا ألمانيا يجرون السيارة عبر الخنادق والأقذار ليعبروا بها متجنبين ذلك الجسر المحترق .
وكان أنصارنا يرددون فيما بينهم من على ظهر السيارة :
– هيا ، هيا !
واستمرت تلك العملية مدة خمس عشرة دقيقة . وما أن عبر جنود الهندسة بالسيارة الى الجهة الثانية وأوقفوها على الطريق حتى شغل زوبنكو المحرك فانطلقت الى الامام في سلام . وبلغوا المعسكر في وقت متأخر من المساء . فما أن علمت بأمر فولوديا حتى أوعزت اليهم بأن يتركوه ينام تلك الليلة ليتقدم الي عند الصباح بكل ما لديه.
لكن الصبي ما لبث أن جاءني بنفسه حالا وقال :
– أنت القائد ميدفيديف ؟
– أجل .
– ان لي معك شأنا سريا .

Twitter: @ketab_n

– هات ، قل ما عندك .
– أستطيع أن أقول ما عندي لك وحدك.
كان يقف آنذاك الى جانبي كل من ستيخوف ولوكين وكوزنيتسوف وتسيسارسكي . فقلت لهم مبتسما :
– طيب اننا لن نشارككم أيها الرفاق في أسرارنا . هيا بنا يا فولوديا الى المخبأ .
ونزع الصبي عمرته ، ثم فتق بطانتها وأخرج منها رسالة . فضضت الغلاف وأخذت أقرأ . كانت الرسالة قد كتبت على الآلة الكاتبة .

«ان حاملها فولوديا ساموروخا ابن أمين سر المنظمة الحزبية لفصيلة لينين للأنصار مرسل في مهمة للبحث عن كتيبة ميدفيديف...»

لقد كان قائد تلك الفصيلة يطلب تبليغ موسكو بأن فصيلة على خير الوجود وتقوم بأعمالها على خير وجه ، لكنه ليس لديها جهاز لاسلكي ، ولهذا فهي منقطعة عن موسكو . ثم يعرض في الرسالة احداثيات لمكان وجود الفصيلة ، وحدد الاشارات الشرطية وأوقاتها كي يرسلوا اليه من موسكو طائرة ترمي للفصيلة هناك جهازا لاسلكيا . وفي ختام الرسالة كان ثمة مطلب آخر : ارسال فولوديا الى موسكو .
ونظرت الى الصبي فوجدته يفتق بطانة بنطلونه ليخرج رسالة ثانية . فسألته :
– ثمة رسالة أخرى ؟
– انها نسخة عن تلك التي في يدك . فاذا ما حدث أن فقدت العمرة تبقى لدي هذه النسخة في البنطلون .
وأعطاني غلافا ثانيا كالأول .
– وكيف تمكنت من الوصول الينا ؟

Twitter: @ketab_n

وتبين لي أن فولوديا سار على قدميه خمسة عشر يوماً . وقطع خلالها زهاء خمسمائة كيلومتر . وكان يبيت اما في الحقول أو في الغابات أو في مستودع التبن عند الفلاحين . وكان يقتات على ما يقدمه اليه المحسنون . وعندما كانوا يسألونه : من أين أنت ؟ كان فولوديا يقول بأن والديه قد قتلا وأنه ذاهب الى عمته . وكانت تلك «العمة» تغير مكان اقامتها من مرة لأخرى . ففي ناحية بروسكوروف قال فولوديا ان «عمته» تقيم في شيبيتوفكا . وفي شيبيتوفكا قال انها تعيش في روفنو .

وفي مدينة روفنو أمضى فولوديا عدة أيام مطوفا في أرجائها الى أن اهتدى الى ذلك الساعاتي.

— وكيف علمت أن ذلك الساعاتي يعرف الأنصار ؟

— لست أدري كيف ، هكذا بدا لي أنه يعرف ، وعلى كل حال ، فلو أنه تبين لي أخيرا أنه لئيم لتمكنت من الفرار .

— أوى ، فولوديا ، ما أحسن حظك !

وبقي فولوديا عندنا في الكتيبة دون أن نتمكن من ارساله الى موسكو لمدة طويلة . ثم انه لم يكن يرغب بفراقنا أبداً .

لقد تغمره أنصارنا بالحب ، فكان يمشي مرحاً يفيض بالبسمات ، نظيفاً كما لو أنه يستحم كل يوم .

ثم لما عاد كوليا الصغير الى المعسكر وجد له رفيقا في القتال . وقد كان كلاهما نصيرين «محنكين» ، لكنه كان في جعبة كوليا من الحوادث الطريفة أكثر مما في جعبة فولوديا .

— لقد ذهبت من «المنارة» الى روفنو خمس عشرة مرة . أوتدري كم هي رهيبة . أذهب في أحد الأيام الرائعة . الشرطة يعج بهم كل مكان . فأمشي وأنحني بين كل لحظة وأخرى: «مرحبا! سعيدا!» وفي احدى المرات مررت بواحد ولم أقل له «مرحبا» فأشهر مسدسه وصاح بي : «هيا الي ، قف الى الحائط !»

أما أنا — فأخذت بالبكاء :

Twitter: @ketab_n

«عماه ، لا تقتلني !»

بينما أفكر في داخلي : ستضيع الرسالة والنقود المرسلة الى نيقولاي ايفانوفيتش والتي خيط عليها في بنطلوني .

أما هو فزمجر بي :

«الى أين أنت ذاهب ؟»

«الى البيت ، يا عماه لقد كنت أعود أمي في المستشفى» .

ايه ، فصدقني وخلى سبيلي .

وفي أحد الأيام الرائعة تعرفت في احدى شققنا في روفنو على غينيا بوغان ، وكان لا يتجاوز العاشرة من عمره . فسألته : «أتريد أن تصبح ياوري ؟» قال : «أريد» . وصرت أذهب واياه . فكلما بعثني كوزنيتسوف الى واحد من جماعتنا كنت أصطحبه معي ، هكذا للتسلية وللتغطية . وفي احدى المرات جاء معي الى «المنارة» نفسها ، كان مرهقا من التعب في الطريق ، ولم يصل الا بشق النفس . وفي أحد الأيام الرائعة ذهبت واياه الى المخزن لنبتاع شيئا ما . أعطيت البائع عشرين ماركا وطلبت ارجاع الباقي ، فقال لي: «ومن أين لك بهذه النقود؟ الآن سوف أسلمك الى الشرطة !»

فتركنا النقود وأطلقنا أرجلنا للريح ، ومنذ تلك الحادثة صار غينيا يخاف ...

كان فولوديا يصغي الى أحاديث كوليا الصغير منجذبا بكليته اليها .

ثم تحدث كوليا عن قصة الكرة التي لم يكن أنصارنا أنفسهم على علم بها .

كان كوزنيتسوف وفاليا وحدهما يعرفان تلك القصة ، لكنهما وعدا كوليا بألا يتحدثا عنها الى أحد . وها هو ذا كوليا الصغير يبسط تلك الحادثة بأسلوبه الخاص :

كان نيقولاي ايفانوفيتش يتركني مرة في هذه الشقة ، ومرة أخرى في تلك الشقة ، وهكذا ، لئلا يعرف أحد من الناس حقيقة أمري . وفي أحد الأيام الرائعة أرسلني الى

Twitter: @ketab_n

احدى العمات . فجئت اليها وسألت :» هل عندكم صابون للبيع ؟» كان هذا هو كلمة السر . فقالت : «عندنا ، ادخل» . وفي اليوم التالي خرجت الى الشارع مع ابنها ، وصرت أتمشى وأنتظر الوقت الذي سيأتون به الي . وفجأة رأيت كرة تستقر على الأرض ، كرة ظريفة سوداء . وما أن هممت بتناولها حتى كان ذلك الصبي اختطفها ووضعها في جيبه . فصرت ألح عليه : «هاتها !» ولم يعطني اياها . فتشاجرت معه وأخذت الكرة رغماً عنه . أما هو فقد أصمني بعويله وراح يعدو الى أمه . أوه ، وحينذاك استلمت حسابي من نيقولاي ايفانوفيتش ! وأخذ مني الكرة وأعادها الى الصبي . وشد ما تأسفت على تلك الكرة ، لكنني سكت ، ورجوت كلا من كوزنيتسوف وفاليا ألا يتحدثا لأحد عن ذلك . وأنت كذلك يا فولوديا لا تحك هذه القصة لأحد . انهم سوف يسخرون مني وسيقولون : هيه ، ياله من نصير ، تشاجر مع الغير من أجل كرة ...

كان سماع مثل تلك الأحاديث الصبيانية البريئة الصادقة التي يتحدث بها مساعدانا النصيران الصغيران كان يبعث في النفس الأسى : فعلى أمثالهما ان يذهبا الى المدرسة ، أو ينزلوا ليتخبطوا في مياه النهر ، أو يتزحلقوا في الشتاء على الجليد . لقد انتزعت الحرب الأطفال من أحضان الطفولة الطبيعية الضاحكة ، وقذفت بهم في جحيم النضال القاسي الى جانب الأنصار . لكننا جميعا في الكتيبة توجهنا بالشكر من أعماق قلوبنا الى صغارنا الباسلين المجيدين لقاء ما كانوا يقدمونه من خدمات مخلصة للشعب .

من بين المخالب

امتدت بنا الأيام طويلا دون أن نعثر على أثر لجورج ستروتينسكي الذي قبض عليه الفاشيون . ولم نقل شيئا للعجوز فلاديمير ستيبانوفيتش ، أو بالاحرى ، لقد قلنا له شيئا آخر غير الواقع ذاته .

Twitter: @ketab_n

– فلاديمير ستيبانوفيتش ، انك تعرف أن عملنا سري . فلست أقدر على أن أصرح لك بشيء عن جورج ومكان عمله . لكن كن مطمئنا على ابنك جورج فهو لا بد سيعود.

وتركني العجوز وقد سكن روعه ، وانصرف .

لكن نيقولاي ستروتينسكي كان على علم كامل بما حل بجورج، وشد ماكان يعاني من جراء ذلك .

وقد قام نيقولاي بمحاولات شتى للتعرف على مصير أخيه جورج حتى وقع أخيراً على أثر .

ففي الصيف كان قد تعرف على فتاة تدعى لاريسا تعمل كناسة في مقر الغستابو . وكانت لاريسا هزيلة القوام لا يلفت مظهرها النظر .

لقد أخذت على عاتقها مهمات استطلاعية خطرة ، ولكي تحافظ على رضى القيادة هناك فكانت تبذل جهدها باخلاص ، وتقوم بتنظيف كل شيء في دقة واعتناء ، وتنفذ كل ما يطلب اليها تنفيذه من أمور مهما صغر شأنها . وفي الوقت ذاته كانت لاريسا تحمل الينا من مقر الغستابو وثائق سرية جد خطيرة : خرائط طوبوغرافية ، ودفاتر الضبوط التي تخول حاملها القيام بالتفتيش والاعتقال ، وسجلات ضبوط التفتيش . وذات مرة حملت الى نيقولاي ستروتينسكي خاتم الغستابو نفسه وقد أخذته من درج مكتب رئيس الغستابو ، وبذلك افرطت في هذا العمل . فقد صنع نيقولاي ستروتينسكي منذ زمن خاتماً مماثلا للكتيبة . وكنا نستخدمه في اعداد الهويات والوثائق اللازمة للمستطلعين، كان من المحتمل أن تحدث سرقة الخاتم ضجة كبيرة ، وكانت لاريسا مضطرة الى ان تسرع الى مكتب الرئيس لارجاع الخاتم الى موضعه سراً .

أثناء الكناسة كانت لاريسا تجمع أوراق الكاربون الناسخة لا لترميها مع الأوساخ وانما لتحملها الى نيقولاي الذي استطاع أن يقرأ ما نسخ تحتها بواسطة المرآة . وكانت من بينها أوراق بأسماء الاشخاص الرهائن والمحكومين

Twitter: @ketab_n

بالاعدام رميا بالرصاص، وارشادات حول كيفية اخفاء الجثث بعد الاعدام .

وذات مرة استطاع نيقولاي أن يقرأ ما على ورقة الكاربون الناسخة بواسطة المرآة لائحة بأسماء المعتقلين ، وكان من بينهم اسم «فاسيليفيتش غريغور» . انه الاسم المستعار لجورج .

وصار من المعلوم لدينا شيء ما يهمنا كثيرا وهو أن جورج لا يزال على قيد الحياة ، وأنه لم يذكر اسمه واسم عائلته الحقيقيين عند التحقيق .

وكانت لاريسا تعرف بعض العاملين في سجن الغستابو ، فاستطاع نيقولاي بواسطتها أن يجري اتصالات معهم . كانت الوسيلة الى ذلك سهلة للغاية – الرشوة وحسب . فقد صار أولئك يقومون بكل ما يطلب اليهم لقاء ما يتقاضونه . وأكد لنا السجانون وجود غريغور فاسيليفيتش في السجن . ولقاء رشوة أخرى أوصل السجانون الطرد الى المعتقل . فأرسل نيقولاي لاخيه بواسطتهم حذاء وملابس وطعاما .

ثم تعرف نيقولاي بالتدريج على كل شيء . كان جرح جورج قد بدأ يلتئم ، لكنه انفتق من جديد على أثر حملات الضرب والتعذيب التي انهالوا بها على جورج اثناء الاستجوابات . ثم علمنا أنهم يجرون التحقيق مع جورج كل يوم تقريباً ، ويتهمونه بالعمل مع الأنصار السوفييت . وكان الموت يهدد جورج اما رميا بالرصاص أو تحت سياط التعذيب اثناء الاستجوابات .

كان لدينا في الكتيبة قريب آخر لآل ستروتينسكي . انه بيترو مامونتس نائب العريف في الجيش البولوني سابقا وأخو يادزيا . قدم نيقولاي ستروتينسكي الى المعسكر في بداية أيلول (سبتمبر) وطلب السماح له بأن يصطحب مامونتس معه الى روفنو .

– سنحاول معا اطلاق سراح جورج .

وانطلقا معا الى روفنو . وهناك تمكن نيقولاي بسرعة عجيبة من أن يوظف مامونتس في شرطة الحراسة . وصار

Twitter: @ketab_n

مامونتس «شرطيا» مجدا . فقد كان لا يهدأ له ساكن على مرأى من رؤسائه ، يشتم الأنصار ، وأكثر من هذا ، فقد غمر رؤساءه بالسمن والشحم وسجق الأنصار . وسرعان ما عينوه شرطيا اقدم ، المسؤول عن حراسة المساجين . فتمكن آنذاك مامونتس من أن يشاهد جورج بين الحين والحين ، ثم تحدث عنه الى نيقولاي :

– انك لا تكاد تعرفه ، لو ترى ماذا صنعوا به! مجرد جلد وعظم ...

صار جورج يستلم الطرود بكثرة ، لكنها لم تكن لتساعد صحته في شيء ، فهم يجلدونه كل يوم تقريبا.

وعقد مامونتس صداقة مع ناظر السجن المسؤول ، واقترح عليه «أمرا مربحا» . وعرض عليه فكرة تشغيل المساجين في احدى شركات البناء الخاصة ، التي يمكن فيها ان يكسب كثيرا .

– أعطني عشرين شخصا من المعتقلين وثلاثة أو أربعة من الحرس . وسأسوقهم الى العمل هناك . والأجور نتقاسمها مناصفة فيما بيننا .

ظل الثاني يماطله طويلا دون أن يوافق . لكن الرشوة بالمال وبالمواد الغذائية جعلته يشعر وكأنه يستلمها من شركة البناء نفسها ، «فاقتنع» بعد ذلك في الحال .

وفي أواخر شهر تشرين الأول (اكتوبر) علم مامونتس أن اسم جورج كان يتوسط لائحة أسماء من حكم عليهم بالاعدام رميا بالرصاص . ولم يكن جورج نفسه يعرف شيئاً ما من هذا القبيل بعد . وعندئذ لم تبق الدقيقة للانتظار .

ففي اليوم الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر) ساق مامونتس قسماً من المساجين الى العمل ، وارسلوا أيضا جورج لقاء رشوة خاصة . وما ان خرج جورج من غرفة السجن حتى كان مامونتس قد همس بعض الكلمات في اذن جورج .

مر المعتقلون بحيين ، وظهرت على جورج «امارات التعب والاعياء » فأمر مامونتس بمثابة كونه شرطيا مسؤولا بقية الحراس ان يقتادوا المعتقلين الى العمل ، وقال لهم :

Twitter: @ketab_n

– أما أنا فسوف أسوي الحساب مع هذا اللئيم .
ثم سحب من ورائه جورج «الفاقد الوعي» الى الحوش .
وتأكد الأمر للحراس بأنه سوف يقتل المعتقل هناك .
لكنه ما أن بلغ به ذلك الحوش حتى نهض جورج واجتازا السور معا ، ثم عبرا حوشا ثانيا ليصيرا في زقاق حيث كان كل من كوليا ستروتينسكي وكوزنيتسوف في سيارة يترقبان مجيئهما منذ يومين .
من الصعب أن أصف سرورنا لانقاذ حياة جورج . أما بالنسبة الى العجوز ستروتينسكي فقد كانت عودة جورج تجمع بين المسرة والألم . فهو لم يكن يعرف أي شيء عن الخطر الذي كان يحدق بحياة ابنه جورج قبل عودة هذا الأخير الينا . كانت تصعب معرفة جورج البسام المورد الوجنتين . لقد اعتصروا كل قواه واجاب على جميع الاسئلة بكلمة واحدة .
– جلدوك ؟
– جلدوني .
– ايه ، وكيف كان حالك ؟
– وكيف ! لا بأس .
– تجلدت ؟
– في البداية تجلدت وصمت طيلة الوقت ، ثم صرت أسب وأشتم .
– ايه ، وهم ؟
– وماذا هم ! لقد زادوا امعانا في تعذيبي .
ثم سعينا جهودنا لتأمين كل شيء لدينا في ذلك المكان كيما يستعيد جورج صحته . وسرعان ما أرجع الصبا عافيته ، وصار جورج يعمل مستطلعا من جديد .

الانتقام

ايريخ كوخ ... باول دارغيل ... غيرمان كنوت ... كان هؤلاء جميعاً جد معروفين في أوكرانيا الغربية المحتلة مؤقتا من قبل الهتلريين . وكان زعماء العصابة الهتلرية

Twitter: @ketab_n

وعملاؤهم يعملون سلبا وشنقا وابادة لكل ما هو حي على أرض أوكرانيا . وكان مجرد ذكر تلك الأسماء وحده كفيلا باثارة الرهبة والسخط والكراهية في نفوس الأهلين . فقد كانت تقترن بأسمائهم اعمال الاعتقالات والشنق والخنادق المملوءة بالناس المدفونين احياء والسلب والنهب ، وتقتيل الآلاف والآلاف من الناس الابرياء .

وكان ايريخ كوخ الذي يشغل منصبي مفوض رايخ اوكرانيا وهاولايتر بروسيا الشرقية في آن واحد ، يتردد على مدينة روفنو لأيام معدودة وحسب ، ويقضي جل وقته في مدينة كينيغسبرغ حيث كان يملك الكثير من المصانع والمعامل . أما باول دارغيل الرئيس الحكومي ونائب ايريخ كوخ في «الشؤون السياسية» فقد كان طيلة الوقت يمكث في روفنو دون أن يغادرها تقريبا الى مكان آخر . لكنه كان يطير من حين الى آخر الى مدن كييف، نيكولايف، دنيبروبيتروفسك ، أو الى المدن الأخرى ليقوم بتوجيه «نشاطات» عصابة الحكام الهتلريين هناك . وقد أنيطت به رئاسة شبكة العصابات القومية .

كان نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف يقوم منذ زمن بعيد بالاستعداد لعملية انتقامية من رؤساء الهتلريين في أوكرانيا . وفي بداية شهر أيلول (سبتمبر) قمنا بمناقشة خطة اعماله بالتفصيل ، واستمرت المناقشة عدة أيام كاملة .

وقبل أن يغادر كوزنيتسوف المعسكر سلمني رسالة مغلقة أثناء الوداع .

— احفظ هذه الرسالة ، على كل الاحوال ، — قال لي وهو يشد على يدي . وانصرف سريعاً .

نظرت الى الرسالة وكان مكتوباً على الغلاف أربع كلمات : «تفتح بعد موتي فقط» .

كانت فاليا دوفغير في تلك الأثناء تعمل في مقر مفوضية الرايخ . وكان ينبغي عليها هناك أن تدرس برنامج أعمال دارغيل : متى يجيء الى مكتبه ومتى يخرج وجميع اوصافه . وكانت فاليا تقوم بتنفيذ تلك المهمة بدقة فائقة . قد

Twitter: @ketab_n

تحدثت عن هذا كله مفصلا الى كوزنيتسوف، حتى أنها أطلعته على الطريق التي يسلكها دارغيل عادة . وأنبأته في تلك الأثناء أن دارغيل يغادر مقر الرايخ يوميا في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر يصحبه ياوره الذي يحمل حقيبة جلدية حمراء . وكان نيقولاي ايفانوفيتش قد استطاع أن يرى دارغيل نفسه مرة واحدة أثناء العرض عندما ألقى هذا خطابه هناك فعلق آماله على ما يتذكره عن دارغيل .

وفي العشرين من أيلول (سبتمبر) ، كان الأسير كالينين يعمل سائقا لسيارة المفوضية في روفنو فسلم الى كوزنيتسوف سيارة صغيرة جديدة «أوبيل – كابيتان» وهي سيارة المفوض ذاتها .

جلس ستروتينسكي الذي يرتدي بدلة جندي ألماني بدلا من السائق . بينما كان كوزنيتسوف راكبا وهو لا يزال الملازم أول باول زيبرت .

كان دارغيل يسكن فيللا قائما على أحد شوارع المدينة الرئيسية الذي دعاه الألمان بشارع شلوسشتراسي .

كان يقيم على جانبي ذلك الشارع الموظفون الألمان الكبار وقد حظروا على الأوكرانيين والبولونيين المرور هناك، فاقتصر ذلك الشارع على الألمان وحدهم .

وسلكت السيارة بكل من كوزنيتسوف وستروتينسكي ذلك الطريق نفسه الذي كان يسلكه دارغيل بعد أن اتخذا كل تدابير الاستعداد اللازمة. وكانا قد اختارا ذلك الوقت الذي ينبغي فيه لدارغيل أن يعود من مقر مفوضية الرايخ الى الفيللا . وكانت الدقيقة الواحدة يمكن أن تلعب دوراً حاسماً في الأمر .

كان ايقاف السيارة والانتظار في ذلك الشارع يعد مخاطرة ، فهنالك ثمة خفير من الدرك يتناوب الحراسة عند الفيللا . وكان في شارع شلوسشتراسي بعض الدرك الآخرين وعلاوة على هذا فقبيل مغادرة دارغيل لمقر مفوضية الرايخ بدقيقتين كان يتقدمه دركي برتبة مساعد وعميل الغستابو

Twitter: @ketab_n

في لباسه المدني . لقد كانا يتقدمان دارغيل ليتحريا طريقه ويصفيانها من الشبهات .

وقرر كوزنيتسوف وستروتينسكي أن يقوما بتناوب ترصد خروج دارغيل في احد الازقة الذي يسمح لهما برؤية مدخل مقر مفوضية الرايخ . وفي الساعة الثانية والنصف تماما خرج من المدخل الرئيسي لمقر مفوضية الرايخ جنرال وياور برتبة رائد يتأبط حقيبة حمراء .

فقال كوزنيتسوف:

– هما عينهما ، اسرع ياكوليا !

وسرعان ما لحقت السيارة بالهتلريين الاثنين . نزل كوزنيتسوف من السيارة وقد أشهر مسدسه في يده ولما دنا من دارغيل وياوره من الوراء أحسا بوقع خطاه من الخلف فالتفتا . وأطلق كوزنيتسوف ثلاث رصاصات من مسافة قريبة جدا ، ثم على ياوره ، وما أن خر الاثنان صريعين حتى وزع كوزنيتسوف عليهما رصاصتين أخريين . ثم امتطى متن السيارة ، وداس ستروتينسكي على أقصى سرعة ، وبلحظة كانت السيارة قد اختفت عن الأنظار . وحدث هذا كله خلال دقيقتين من الزمن لا أكثر .

وما أن سمع المارة في ذلك الشارع صوت اطلاق الرصاص حتى تفرقوا جميعا مذعورين . وحدث ذلك وقت فرصة الغداء ، وكانت جموع الناس غفيرة آنذاك . وانغلقت نوافذ البيوت وما ان تبدد ذهول الناس حتى كان لم يعد للسيارة من اثر .

كان كوزنيتسوف موجودا لدينا في المعسكر عندما حمل الينا المستطلعان كوليكوف وغالوزو بعد يومين من ذلك الحادث الصحف الألمانية والأوكرانية من روفنو . وبنفاد صبر بالغ اختطف كوزنيتسوف الصحف وشرع يقرأ فيها و ... اندهش . لقد تبين أخيرا أنه لم يقتل دارغيل نفسه وانما المستشار المالي للامبراطورية الدكتور غانس غيل وياوره فينتير . كان غيل قد قدم الى روفنو منذ أيام خلت ليقوم بجباية الضرائب من الأهلين .

فقلت لكوزنيتسوف :

Twitter: @ketab_n

– آي – ياي ، نيقولاي ايفانوفيتش ، كيف وقعت في مثل هذه الحماقة !

فقال كوزنيتسوف وهو لا يزال في اندهاشه :

– يا للغرابة ! اني لأذكر وجه دارغيل واضحا ، وذلك المرافق وحقيبته الحمراء . ماذا يعني هذا كله ؟

لكنه ، كما تبين لنا فيما بعد ، كان غيل فعلا شديد الشبه بدارغيل . وبما أنه قد سبق لكوزنيتسوف أن رآه مرة واحدة من قبل فقد أمكن وقوعه في الخطأ. لكنه كان يمكن تصحيح تلك الخطيئة ...

فبعد مرور عشرة أيام على مقتل غيل ذهب كل من كوزنيتسوف وستروتينسكي ثانية الى روفنو . وصار كوزنيتسوف يحمل رتبة نقيب (بعد أن أخذ الألمان يبحثون عن ملازم أول متنكر في زي ألماني) .

وثبت في نهايتي سيارة «اوبل» المصبوغة باللون الاسود نمرة أخرى . وهكذا ، وفي وضح النهار عندما كانت الساعة تشير الى الثانية والنصف تماما بعد الظهر ألقى كوزنيتسوف قنبلة يدوية مضادة للدرع على دارغيل وياوره في ذلك المكان عينه من الشارع ، وخر الاثنان صريعين . وأصابت شظية صغيرة من القنبلة يد نيقولاي ايفانوفيتش اليسرى غير أنها لم تحل بينه وبين الاسراع لامتطاء السيارة .

وفي هذه المرة كان الخطر عظيما ومحدقا . فعلى مقربة من مكان الحادث كانت تقف سيارة حراسة المانية . واضطر ستروتينسكي الى أن يمر بجانبها كالبرق ، واندفع رجال الغستابو الى سيارتهم ، لكن الذعر ، على ما يبدو ، استبد بسائقها ولم يستطع باية حال أن يدير محركها . ولما أتيح له ذلك كان صاحب سيارة «اوبل» السوداء قد ولى بعيداً .

وبدأ الطراد . وبانت سيارة الغستابو لكوزنيتسوف في ظاهر المدينة تطوى الأرض من الخلف .

– انعطف الى اليسار ! – صاح بستروتينسكي وقد لاحظ سيارة «اوبل» سوداء أخرى تسير امامهما .

Twitter: @ketab_n

ودخل ستروتينسكي بالسيارة أحد الازقة ، ثم غيره الى آخر، ولم يعد يبدو للمطاردين أي أثر .

واستمر رجال الغستابو يطاردون سيارة «اوبل» السوداء ، لكنهم كانوا يطاردون سيارة أخرى غير التي تقل رفيقينا .

وفي ضواحي المدينة استطاع الألمان أن يقبضوا على «المجرمين» . فقد لحقوا سيارة «اوبل» السوداء وأطلقوا عليها النار . واخترقت رصاصة اطار السيارة وهي تسير بأقصى سرعتها ، فانحرفت الى الجانب بعنف ، وهوت في الممر . وأخرج رجال الغستابو منها ضابطا ألمانيا برتبة رائد وقد كاد يقضي نحبه من الذعر . فانهالوا عليه بالضرب المبرح ونقلوه الى الغستابو .

وعاد كوزنيتسوف وستروتينكسي الى «المنارة الخضراء» بسلام، ومنها الى المعسكر .

ثم تبين لنا أن دارغيل لم يمت . لقد سقطت القنبلة اليدوية على جانب الرصيف ، فتطايرت الشظايا واتجهت موجة الانفجار بصورة رئيسية الى الجانب المعاكس . فأصيب دارغيل بجروح بالغة وبالصمم ، وأرسلوه حالا الى برلين . وهكذا انتهى امر الترقية للرئيس الحكومي

وسرعان ما صدر أمر بعد ذلك من برلين يقضي بابعاد رئيس غستابو روفنو والدرك وكثير غيرهم من شخصيات المؤسسات المعروفين .

وقد أحدث هذا الانتقام ضجة كبيرة سر لها السوفيتيون جميعاً . كيف لا، وقد دفع المحتلون الهتلريون الحساب وهم بعيدون عن خطوط النار !

ولم يكن الهتلريون الذين عينوا في المراكز الشاغرة ليفيدوا في فيء للمحتلين .

وبدأ التحضير لعملية جديدة في «المنارة الخضراء» . فقد تم منذ مدة وجيزة صبغ سيارة «المرسيديس» التي سرقت من كاراج مفوضية الرايخ بصبغة أخرى ، ولم يكن

Twitter: @ketab_n

الدهان قد جف بعد عندما استقلها كل من كوزنيتسوف وستروتينسكي الى روفنو من جديد .

وحذرهما كوليا الصغير قائلا :

– وفي أحد الأيام الرائعة يلاحظون أن دهان السيارة لا يزال طريا ، وستقعان في مخالب الفاشيين.

فأجابه ستروتينسكي :

– لكننا سوف ننطلق بها سريعا حتى يجف الدهان .

واقتربت «المرسيديس» التي لا تزال تلمع بالدهان الطري من مدينة روفنو حاملة اليها كلا من كوزنيتسوف وستروتينسكي . وعند أول مخفر لدى مدخل المدينة أوقفوها :

– هالت ! الهويات !

وأبرز كوزنيتسوف هويتين له وللسيارة . وأخلوا أمام السيارة السبيل . وما أن تقدمت بهما السيارة محلة واحدة حتى أوقفها مخفر ثان :

– هالت ! الهويات !

فقال كوزنيتسوف مغتاظاً:

– ايه منذ لحظات شاهدوها !

فقال الدركي وقد وثق بمحدثه :

– معذرة ، فسوف تقوم اليوم التحريات بين كل خطوة وأخرى : اننا سوف نقبض على أفراد العصابات الذين يتنكرون في زي عسكري ألماني ، – ثم أضاف بعد أن تحرى هوية كوزنيتسوف ، – تفضلوا ، بامكانكم أن تمروا .

وقال كوزنيتسوف لستروتينسكي :

– كوليا ، عج بنا الى أول زقاق ويمكننا ان نقع بهذه الطريقة في المصيدة .

وعاج ستروتينسكي الى أول زقاق بعد أن اجتاز ذلك الحي . وعند زاوية الزقاق تماما أوقف نيقولاي ايفانوفيتش السيارة . وغادرها الى الرصيف وقال :

– راقب أنت ياكوليا الشارع الرئيسي ، أما أنا فسوف أساعد الألمان .

Twitter: @ketab_n

وبعد دقائق معدودة أوقف كوزنيتسوف احدى السيارات :

– هالت! الهويات !

تحراها ، وخلى سبيلها . ثم رأى سيارة أخرى فرفع لها يده وتوقفت :

– هالت ! الهويات !

فأجابه أولئك :

– أيها السيد النقيب ، لقد تحروا هوياتنا ثلاث مرات !

– معذرة ، لكن عمليات التحري هذا اليوم ستكون قائمة على قدم وساق بين كل خطوة وأخرى : اننا سوف نقبض على أفراد العصابات المتنكرين في زي عسكري ألماني .

وما أن ذهبت هذه حتى ظهرت أخرى . فأمر كوزنيتسوف بنبرات مزمجرة :

– هالت ! الهويات !

– كن مطمئنا أيها السيد النقيب ، – قال له أحد ركابها وهو يبرز قرص الغستابو المعدني ، – اننا كذلك نسعى للقبض على المجرم ذاته ، – ثم ابتسم في استهزاء ، – لا بأس ، يا صاحب ، انسان لا يعرف جماعته ، – ثم تابعت السيارة طريقها .

وبقي كوزنيتسوف يتحرى الهويات ساعتين كاملتين الى أن عاد ستروتينسكي وأبلغه بأن المخافر في الشوارع الاخرى قد فرغت من عملياتها . عند ذلك استقلا سيارتهما وانطلقا في هدوء .

لقد سبق لكل من كوزنيتسوف وفاليا أن رأى فوق المنصة أثناء العرض العسكري رجلا تميز ببدانته . انه الجنرال كنوت نائب مفوض رايخ أوكرانيا في الشؤون العامة ، ومدير شركة «باكيتاوكسيون» القائمة على أعمال السلب والنهب .

كان سلب الأهلين وظيفة كنوت الرئيسية . وكل ملك

Twitter: @ketab_n

هذه الشركة نتيجة لأعمال النهب . وكان كنوت يصطفي لنفسه كل السلع القيمة ، فأثرى من جراء هذه الأعمال بصورة لا يحدها الوصف ، واكتسى جسمه بالشحم حتى صار من العسير عليه المشي ، وصار أشبه شيء بالخنزير المطبق بالشحم .

وكان محل «باكيتاوكسيون» يقع في شارع ليغيوني بالقرب من سكة الحديد . وفي ذلك الشارع بالذات توقفت السيارة غير بعيد من المحل بكل من كوزنيتسوف وستروتينسكي ويان كامينسكي . ولم يطل بهم الانتظار هناك حتى كانت سيارة كنوت تخرج من المحل في الساعة السادسة تماما تمشيا مع عادة الألمان في دقة النظام والتوقيت .

نهض كامينسكي وقفاً عندما كانت سيارة كنوت تمر بجانبه ألقى بها قنبلة يدوية مضادة للدرع وطارت مقدمة السيارة فاختل توازنها واصطدمت بالسور المقابل . عندئذ فتح كل من نيقولاي ايفانوفيتش وستروتينسكي عليها نيران الرشيشات . وبعد ذلك انطلقت السيارة بالثلاثة في خفة الريح .

لقد قام الألمان بكل واجبات الطقوس الرسمية عندما دفنوا غيل . وغمروه بالأكاليل والخطب ، وغصت الصحف بالمقالات وبالمرثيات . ولدى محاولة اغتيال دارغيل أقاموا ضجة كبرى من حوله . أما كنوت فلم يذكره أحدهم بكلمة كما لو أنه لم يكن يحيا من قبل ، وأن شيئا ما لم يحدث !

قتل كنوت ، أما الألمان فقد قرروا أن يصمتوا على مقتله . حقا : انهم «أصحاب المكان » وانهم اقاموا «نظاما جديدا» وانهم «لا يقهرون» ، لكن الأنصار يقتلون أكبر رؤوسهم في وضح النهار ، في شوارع روفنو ، في عاصمة أوكرانيا المحتلة ! وانهم لعاجزون عن أن يمسكوا بالفاعلين . فقمين بهم الآن أن يصمتوا على كل شيء . وقد أصبحوا أمام وضع حرج جدا : فصاروا لا يرهبون الخروج من البيوت في الليل وحسب وانما في النهار كذلك .

Twitter: @ketab_n

شد ما تضايق الأنصار من أمطار الخريف وبرد لياليه ، وأخص بالذكر منهم أولئك الذين لم تتوفر لديهم الملابس الدافئة . فقد بلي جميع المعاطف المصنوعة من جلد الغنم والتي ألقت الينا بها الطائرات بواسطة المظلات في الشتاء الماضي . كنا نفترشها لننام عليها حول النيران . ولم يكن لدى الانصار الجدد لباس دافىء قط .

ووجدنا أنفسنا مضطرين الى التفكير في بناء معسكر شتوي .

تم اختيارنا للمكان في الغابة الواقعة بين قريتي بيريستياني ولوباتين التي لا تبعد كثيراً عن الخط الضيق لسكة الحديد . وغطت أشجار الصنوبر المعمرة بناءنا من الجو . أما الشجيرات الكثيفة فقد حجبت معسكرنا من جهة سكة الحديد الضيقة والطريق الرئيسية التي تمشي موازية لها .

وكانت أبعاد البناء كبيرة بعض الشيء . فقد كان علينا أن نؤمن أمكنة كبيرة لأربع سرايا ، ثم أمكنة للقيادة وللاستطلاع ولقسم الاسعاف واللاسلكيين وسرية التموين . وكان من الضروري بناء حمامات وكل الملحقات والتوابع الأخرى .

وكنا قد أصبحنا أكفاء ذوي خبرة في بناء المعسكرات . فقمنا بادىء ذي بدء بتحديد مخطط لمكان البناء . ثم حددنا الزمن اللازم وباشرنا أعمال البناء .

ولم نقم بقطع الأشجار سواء أكانت في منطقة البناء أم بعيدة عنه الى مسافة كيلومترين ، وذلك لئلا يتعرى المعسكر وينكشف . وحفرنا لكل مبنى متر ونصف المتر في الأرض ، ابقينا السقف المنحدر وحده تقريبا ظاهرا فوق سطح الأرض .

بدأنا العمل ببناء قسم للاسعاف ومخبأ للاسلكيين . وبعد ثلاثة ايام كان اللاسلكيون يسكنون كوخهم الجديد . ولقد صنعنا مدفأة من برميل معدني . اصطفت السرر

Twitter: @ketab_n

الخشبية على جانبي المدفأة . ثم جعلنا الطاولة عند النافذة الحقيقية أوصلنا الهوائى اليها. وكان اللاسلكيون يجلسون الى تلك الطاولة ويجرون الاتصالات مع موسكو حسب البرنامج الموضوع .

وكان مبنى الاسعاف أفضل من مبنى اللاسلكيين . جعلنا في مكان واحد مستشفى يحوي عشرين سريرا ، لكل جريح سرير وفراشه المحشو بالتبن الجديد ، ولدى المدخل غرفة صغيرة للطبيب المناوب وللممرضات ، وغرفة أخرى للاسعاف السريع وغرفة لطب الأسنان . وقد توفرت الراحة والنور في هذا المكان الجديد . غطينا بحرير المظلات سقف المبنى لئلا يتساقط التراب من فوق . وكانت الغرفة الثانية التابعة لقسم الاسعاف معدة كغرفة للعمليات ويتوفر فيها النور ، ووضعت فيها طاولة صنعت خصيصا تحت اشراف الدكتور تسيسارسكي نفسه .

وشغلت القيادة بيتاً حقيقياً مؤلفاً من سبع غرف ، كنا قد استولينا عليه من المختار الألماني لاحدى القرى ، وجئنا به كاملا الى المعسكر .

ومن حول مبنى القيادة كانت تتوزع اماكن فصيلة الحراسة والمستطلعين وقسم الاسعاف واللاسلكيين . وعلى بعد مائتي متر تقريبا كانت تبزغ من الارض ، او بالاحرى ، كانت تنغرس في الارض مباني سرايا الرماة وسرية التموين بما فيها من ورشات لصنع السجق والمستودعات والمخبز.

لقد صرنا ندعو تلك المساكن لما يتوفر فيها من الراحة والانشراح بالمساكن الداخلية لا بالأكواخ . فقد كانت لا تقتصر في غناها على النوافذ والمدافىء المصنوعة من الطوب ، وانما كانت ارض كل غرفة فيها ملبسة بألواح الاخشاب . فقد بلطوا الارض في مسكن السرية الثانية ببلاطات الخشب بشكل هندسي .

وما أن فرغنا من عملية البناء حتى أخذت كل وحدة من الكتيبة تحتفل بمسكنها الجديد وتقوم بحفلة الرقص والغناء .

Twitter: @ketab_n

لقد باءت تلك «المفاجأة» التي كان يحضرها هتلر بالقرب من مدينة كورسك ، والذي تحدث عنها كوخ في شهر أيار (مايو) الى باول زيبرت – كوزنيتسوف ، بالفشل الذريع . فتراجع الهتلريون بعد أن فقدوا هناك جيشهم المؤلف من مائة وعشرين ألف مقاتل . وتقدم الجيش الأحمر في نهاية آيلول (سبتمبر) الى الدنيبر .

هكذا فقد الالمان الذين كانوا شديدي الاعتداد والثقة بالنفس ايمانهم بالنصر .

وصار نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف يقول متضاحكاً :

– يبدو أنني صرت أكثر ضباطهم نشاطاً واعتداداً بالنفس !

بعد أن فقد الألمان آمالهم بالحفاظ على أوكرانيا الخصيبة في ايديهم أرادوا ان يبتزوا منها كل ما يمكن من المواد الغذائية ، لكن هذا أيضا لم يتسن لهم تنفيذه بصورة كاملة .

فقد قامت فصائل الأنصار بتعبئة السوفيتيين جميعا للمقاومة وللكفاح ضد الفاشيين ، فأجهزوا على مستودعاتهم المليئة بمواد الغذء، ونسفوا القطارات والجسور، وأبادوا المتعهدين الألمان بتوريد المؤونة .

كان الألمان يكابدون أشد الظروف قسوة ، خاصة في تلك الأماكن حيث تتمركز فصائل الأنصار . وصار سكان المنطقة الشاسعة والممتدة ما بين نهر غورين من الشرق ، وسكة حديد روفنو – لوتسك من الجنوب ، وسارني – كوفيل من الشمال ، وحتى مدينة لوتسك تقريبا من الغرب، يمنعون عن المحتلين الخبز والمواشي . وكانت عدة فصائل للأنصار تقوم بعملياتها في تلك المنطقة : فهنالك كانت تعمل فصيلة بروكوبيوك ، وفوج كامل من تشكيلة فيدوروف بقيادة باليتسكي وفصيلتا كاراسيف ومحمد ، الى جانب كتيبتنا نحن .

وكان الألمان الذين يخفون حقيقة الوضع في الجبهات عن السكان والذين يقنعونهم ، كما كانت عادتهم دائماً

Twitter: @ketab_n

بالنصر القريب على الجيش الأحمر ، لا ينفكون يطالبونهم بتأدية ما عليهم من الضرائب وبتقديم مواد الغذاء .

لكنه ، كما يقول المثل الروسي – لن تصيد الدوري بالفخ – فان الأنصار والفلاحين أبدوا مقاومتهم للمحتلين الغاصبين أشد وأعنف من ذي قبل . وعندئذ بدأ الألمان يطبقون أساليب التنكيل التي خرقت كل عادة وحد . فقد فرزوا قسماً خاصاً من سلاح الجو لقتال الأنصار والأهلين. وصارت اسراب قاذفاتهم الكاملة تقوم يومياً بالغارات لتلقي قنابلها على القرى الآمنة وعلى الغابات حيث يتمركز الأنصار .

هكذا ، كما قمنا سابقا في غابات سارني قمنا بعمليات القتال ضد المحتلين في ناحيتنا الجديدة أيضا : حطمنا املاكهم ، قمنا باعمال تخريبية في سكك الحديد ، استرجعنا ناحية كاملة جديدة من ايدي الألمان بعد مجيئنا بقليل . وليس من باب الصدفة ان الالمان أخذوا «يهتمون» بأمرنا أكثر عما ينبغي . فقد صارت فصائلهم الهائلة المسلحة تظهر طورا في قرية وأطوارا في قرية أخرى . ثم ان أفراد العصابات الخونة الذين كانوا مجهزين بكامل الأسلحة والذخيرة لم يضيعوا فرصة تقديم الخدمات لسادتهم الغاصبين .

قتل ايفان ياكوفليفيتش سوكولوف – نائبي في الشؤون الادارية ورفيقنا الرائع والنصير الشجاع في اشتباكاتنا مع الفاشيين ومأجوريهم . وفقدنا كذلك غريشا شمويلوفسكي – شاعرنا ومغنينا وملقن الأنصار الأغنيات السوفيتية الجديدة .

وقدم الينا آخر نصير من موسكو ، فأراد أن يعوض ما فاته من الوقت ، وصار كلما حدث حادث جدي يطلب منا أن نرسله مع الآخرين . كان يحلم دائما بالقيام بمأثرة ما . وقد قال غريشا في احدى المرات لرفيقه أثناء حديث ودي بينهما :

– اذا ما كتب علي الموت، فاني لأود أن أموت أثناء الهجوم ووجهي شطر الغرب!

Twitter: @ketab_n

ووجهي شطر الغرب! يا لها من كلمات تعبر بجلاء عن تصميم الانسان السوفيتي على الهجوم، على طرد المحتلين الغاصبين عن الأرض الحبيبة بأقصى سرعة ممكنة!

جرح الكثير من الأنصار في المعارك والاشتباكات. فقد جرح سيرجي تروفيموفيتش ستيخوف كذلك في يده برصاصة متفجرة.

صار لا يمر يوم من الأيام دون أن تنشب فيه معارك مع الألمان. أخذت كتيبتنا تفتقر الى الرجال. فقد صرنا نبعث بسرية كاملة أو بسريتين الى تلك الأمكنة ذاتها التي كنا نبعث اليها بخمسة أو بعشرة أشخاص على الأكثر في المرات السابقة. وكان علينا أن نرفق كل مستطلع أو مستطلعين من الذين يعملون في مدن روفنو ولوتسك وزدولبونوفو بعدد كبير من الرجال المسلحين لحمايتهم. وكانت كتيبتنا آنذاك موزعة الى أشتات هنا وهناك. فقد بقي منها في غابات سارني مائتا شخص، وسبعون شخصا آخرين لا يزالون في ضواحي كوفيل للقيام بمهمة خاصة هناك. وعلاوة على هذا وذاك فقد كان يوجد ما لا يقل عن عشرين شخصا من احسن المقاتلين بصورة دائمة في «المنارات الخضراء» في ضواحي مدينتي روفنو ولوتسك.

لم يكن يهمنا ازدياد تعداد الكتيبة سابقا، فقد كنا نلحق بها أولئك الأشخاص الذين نتوخى فيهم الفوائد في عمليات الاستطلاع وحسب. ولو أن مسألة ازدياد تعداد الكتيبة كانت قائمة أمامنا في تلك الاثناء لتمكنا من تجميع جيش بأكمله، لأن الراغبين في الالتحاق بكتيبتنا كانوا يؤلفون أعدادا غفيرة لا حصر لها. لكننا لم نكن في حاجة اليهم آنذاك لأن الكتيبة الصغيرة المرنة والسريعة في الحركة والتنقلات أفضل بكثير للقيام بعمليات الاستطلاع.

والآن صرنا نواجه وضعاً جديداً يتطلب منا أعداداً كبيرة من المحاربين.

أنطنا مهمة ارسال المتطوعين الى الكتيبة ممن يؤمن جانبهم من الناس بالمستطلعين وبمنظمة نوفاك في روفنو.

Twitter: @ketab_n

وصار كل مستطلع يعود من روفنو بعشرة أو بعشرين شخصا.

وظهر في الكتيبة عقب ذلك اثنان من الخونة ممن انتهزوا تلك الفرصة وهما ناومنكو وتشرننكو. فقد مكثا بيننا زهاء شهر، ثم تواريا عن الأنظار. وتبين لنا فيما بعد أن ناومنكو عميل سري للغستابو أرسل خصيصا الى كتيبتنا للتعرف على تعدادها وتسليحها.

بعد أيام معدودة من حروب ناومنكو أبلغنا كل من كوزنيتسوف وستروتينسكي وشيفتشوك عن تعقد الوضع في روفنو تعقدا حرجا. فقد صار عملاء الغستابو يطوفون في شوارع المدينة ويتفحصون كل الوجوه تقريبا، ويتحرون هويات المارة جميعا، وينصبون شباكهم لاصطياد كل من يرتابون في أمره. وقد جاء في تقرير من ستروتينسكي: «لقد رأينا ناومنكو في سيارة صغيرة كانت تطوف برجال الغستابو في شوارع المدينة».

وبالرغم من أن ناومنكو لم يكن يعرف شيئا عن الشقق السرية التي كان يستخدمها المستطلعون هناك، فقد أتيح له أن يكتشف أمر احداها ويقود الغستابو اليها. كان كل من كوليكوف وغالوزو يترددان على منزل ذي طابقين قائم على زاوية شارع روفنو الرئيسي من جهة، وعلى أحد الازقة من جهة أخرى. وكانت تسكن في احدى شققه امرأة لوحدها. كان كوليكوف يعمل معلما ريفيا قبل الحرب، أما غالوزو فقد كان مهندسا زراعيا. وقد التحقا معا بكتيبتنا في أوائل عام ١٩٤٣، وصارا يترددان كثيرا على مدينة روفنو.

كان غالوزو شبيها بعض الشبه بكوزنيتسوف في منظره الخارجي، فتأكد للغستابو، على ما يبدو، أنهم انما يلاحقون كوزنيتسوف نفسه. لكن باول زيبرت لم يكن قد أثار أي نوع من الشك في حقيقته آنذاك.

وذات مرة طوق الألمان ذلك المنزل، وكانت ربته أول من شعر بالأمر، فأسرعت الى ايقاظ المستطلعين. ونظر غالوزو من النافذة وقال لها:

Twitter: @ketab_n

– اخرجي من هنا يا صاحبة الدار. لفقي لهم شيئا ما أو اختبئي. أما نحن فباقيان هنا.

خرجت ربة المنزل.

وسمع نداء من الشارع يقول بالصوت الالماني:

– أيها الروسي، أيها النصير، اخرج!

استعد كوليكوف وغالوزو للطارىء، وأحكما سد الأبواب والنوافذ بأثاث المنزل.

بدأ الألمان باقتحام المنزل ففتح عليهم النصيران نيرانهما من النوافذ، ونشبت معركة بين الطرفين. أطلق الألمان نيران رشيشاتهم وبنادقهم ورشاشاتهم على ذلك المنزل الصغير. وعندما شعر الأعداء أن لا حيلة لهم في الأمر، وأن نيران النصيرين تصرع الواحد منهم تلو الآخر لجأوا الى استدعاء نجدة.

وجاءتهم سيارة تحمل رشاشا كبير العيار. لكن قنبلة يدوية ألقيت من النافذة على تلك السيارة فتحطمت وتحطم معها الرشاش. وقرر الغستابو الاستعانة بنجدة أخرى.

استمرت تلك المعركة أكثر من ست ساعات في مركز مدينة روفنو بين اثنين من المواطنين السوفيتيين وبين ما لا يقل عن مائة شخص من المنكلين الفاشيين. وظل القتال ناشبا بين الطرفين الى أن نفدت ذخيرة وقنابل النصيرين. وبعد ذلك تمكن الألمان من القبض عليهما، لكنهم قبضوا عليهما... ميتين. فعندما فطنا الى أنه ليس ثمة مخرج لهما من هناك، وكانا قد أصيبا بالجروح وتخضبا بالدماء قررا انهاء حياتيهما بالانتحار.

لكن عواقب خيانة ناومنكو لم تنته عند ذلك الحد.

«سيد الموت» يندحر

في السادس من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٣ لم يرفع اللاسلكيون السماعات عن آذانهم منذ الصباح. وكان فانيا ستروكوف يقوم بضبط مكبر الصوت

Twitter: @ketab_n

بينما كان الأنصار يقفون الى جانبه ويترقبون من لحظة لأخرى سماع اذاعة محطة موسكو.

وعند المساء تمكن أخيراً من التقاط الموجة. كانت المحطة تذيع بيانا عن استيلاء جيشنا الأحمر على كييف. كان هذا سعادة عظيمة للبلاد كلها. ولا تتصور سعادتنا نحن الأنصار لدى سماعنا نبأ استرجاع عاصمة أوكرانيا! فنحن أنفسنا كنا نقاتل في أوكرانيا ولكن في مؤخرة العدو بعد. لقد دنونا من النصر، ومن تحرير أرض أوكرانيا جميعها.

واستمع الأنصار، كما سبق أن سمعوا منذ عام خلا، الى نقل للاجتماع الاحتفالي لمجلس موسكو بمناسبة الذكرى السادسة والعشرين لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى.

ان ذلك العام الذي مر بين الذكرى الخامسة والعشرين والذكرى السادسة والعشرين لثورة أكتوبر لهو عام الانعطاف في الحرب الوطنية. فان هجوم الجيش الأحمر في ذلك العام وضع ألمانيا أمام الكارثة وجها لوجه.

في صباح اليوم السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) انتظم انصار الكتيبة بشكل مربع في الغابة وتلونا عليهم أمر العيد الذي سجله اللاسلكيون في الليل. ودوت صيحة «هورا» منفعلة عالية في أرجاء تلك الغابة.

وعند الظهر أخذ يفد الينا الضيوف – قادة الفصائل المجاورة: باليتسكي، كاراسيف، بروكوبيوك ومحمد. وكانت ترافق كلا منهم جماعة غير كبيرة من أنصار فصيلته.

– يا له من معسكر! سوف يكون من الممكن تحويله الى بيت استجمام بعد الحرب! – هكذا كان يقول ضيوفنا وهم يتفحصون مخطط معسكرنا ومبانيه.

وبعد غداء العيد الفاخر بدأت سهرة الرقص والغناء.

كان المسرح فريدا من نوعه: منصة خشب أوقدت النيران في زواياها الأربع، فأثر هذه الاضاءة كان جد رائع.

وكان الدور الذي مثله كل من فاليا سيميونوف وبازانوف مفاجأة للجميع. لقد تقدما بألعاب بهلوانية ينقلبان

Twitter: @ketab_n

ويتقوسان كأبرع لاعبي السيرك. كان ضوء النيران يجعل الظلال تنزلق برشاقة على هيئتيهما كما لو كانت منبعثة من مصابيح المسرح.

كان من بين الأنصار الجدد الذين قدموا الينا من روفنو ممثلون من مسارح روفنو نفسها. فقد قام أحدهم بتقليد شارل شابلن بمهارة فائقة، لكنه لم يكد يغادر المسرح حتى تقدم ريفاس بالعرض ذاته. لقد كان منظره شبيها بشارل شابلن فعلا، وبالرغم من أنه لم يكن ماهرا في التمثيل فقد أدى الدور بصورة لا تقل روعة عن الذي قام به الممثل نفسه.

وفي الساعة الحادية عشرة ليلا، وبعد أن انصرف ضيوفنا عائدين الى فصائلهم، وكانت الأمسية المرحة مستمرة، تقدم الي ستيخوف وكنت اجلس في الصف الاول من «الصالة» التي كانت جذوع الاشجار فيها بمثابة المقاعد ومال على اذني قائلا:

— دميتري نيكولايفيتش، دقيقة من فضلك...

وخرجت.

فقال لي ستيخوف في اضطراب ظاهر:

— لقد عاد المستطلعون من بيريستياني بخفة الطير، وهم يقولون ان حملة تنكيل هائلة معززة بالهاونات والمدافع قد وصلت الى هناك. كنت قد تلقيت أنباء أخرى منذ ساعة خلت تقول ان قطارا كبيرا قام بنقل الألمان الى محطة كيفيرتسي. وهم الآن يبحثون عمن يرشدهم الينا لينقضوا مع الصباح.

لم تكن تلك الأنباء تعد مفاجأة لنا مطلقا. فقد كان كوزنيتسوف قد أبلغنا منذ أسبوعين بأن المنكلين يعزمون على التوجه الى غاباتنا، وهم يقصدون كتيبتنا بالذات وكان من بين ما كتبه الينا كوزنيتسوف:

«لقد تمكنت من معرفة أن كوخاً عاد منذ زمن قريب الى روفنو، واستدعى اليه الجنرال ايلغين قائد الفصائل الخاصة (بالحملات التأديبية) في أوكرانيا. وأمره بابادة كتيبة أنصار العميد ميدفيديف في أقصى سرعة ممكنة.

Twitter: @ketab_n

وقد تحدث ايلغين نفسه الى حاشيته والمقربين اليه بأنه طلب ارسال حملة تأديبية بقيادة الجنرال بيبر الملقب «بسيد الموت». أما ايلغين فانه يحزم أمره للذهاب الى الأنصار «ليتحدث اليهم في معسكرهم ذاته».

وانني بدوري سوف أسعى جهدي لأتيح الفرصة للجنرال ايلغين كي يتمكن من زيارتكم والتحادث معكم في معسكرنا».

وكان كوزنيتسوف قد أرفق رسالته بخطة للعمل نظرنا في أمر خطته تلك ووافقنا عليها.

ان ما حدث لنا مع الخائن ناومنكو جعلنا نعتقد بأن الألمان صاروا على علم بمكان معسكرنا بالضبط. وبعد أن تبادلت الرأي مع ستيخوف قررنا معا الاشتباك مع الالمان.

وعند نهاية التمثيل الدوري خرجت الى منصة تتوسط الساحة وقلت للانصار:

– أيها الرفاق! بلغنا أن المنكلين يتحفزون للهجوم علينا في صبيحة يوم غد. واننا لن نغادر هذا المكان. وسنظل مخلصين لمبدئنا: نحطم العدو أولا ثم نغادر المكان!

وما كان من الأنصار الا:

– صحيح! هورا!

ثم رفعت يدي اشارة لأن يصغوا الي:

– سوف نتابع احتفالنا بهذا العيد!

وبدأ بعضهم فورا بأغنية «الى القتال من أجل الوطن...» فأخذ الباقون يرددون معهم تلك الأغنية.

هكذا استمرت أمسية العيد ساعة أخرى من الزمن.

وبات الجميع تلك الليلة بكامل استعداداتهم الى القتال. وعيّنا خفراء آخرين اضافيين حول المعسكر من شتى الأنحاء. وبعثنا بالمستطلعين من راجلين وخيالة في اتجاه بيريستياني.

مع بزوغ الفجر عاد أحد الجياد من ضواحي بيريستياني يخب تحت فاليا سيميونوف. فتوجه هذا الي وقال متهدج الانفاس:

– ان رتلا هائلا من الهتلريين قد تحرك من بيريستياني وهو في طريقه الى معسكرنا!

Twitter: @ketab_n

وفي تلك اللحظة بالذات تناهى الى أسماعنا دوي بعيد لطلقات الرشاشات والرشيشات. لقد حدث اطلاق النار على بعد حوالي عشرة كيلومترات من معسكرنا في منطقة معسكر باليتسكي تقريبا. وأرسلت السعاة الخيالة الى هناك للتعرف على حقيقة الأمر ولمعرفة ان كانوا هنالك بحاجة الى المساعدة، ثم لتبليغهم بأننا انما ننتظر أولئك المنكلين.

لقد كانت كتيبتنا تعد في تلك الأثناء حوالي سبعمائة وخمسين رجلا. وزعناها الى أربع سرايا عاملة وفصيلتين: فصيلة الاستطلاع وفصيلة الحراسة.

خرجت السرية الأولى التي يقودها بازانوف للقاء العدو القادم من بيريستياني. أما السرية الثانية فقد أرسلتها في طريق ملتو لتكتشف سرا مواقع قيادة العدو ومدفعيته ومدافع الهاون ولكي تقوم بطعن العدو من المؤخرة.

وما أن خرجت السرية الثانية من المعسكر حتى جاءنا من المخافر أن رتلا آخر من الألمان بدأ يهجم علينا من الجانب الآخر. بعثت للقائه قسما من السرية الرابعة وبقي قسمها الآخر يحمي الجناح الأيمن. أما السرية الثالثة فقد كانت موزعة على المخافر المحيطة بالمعسكر.

وهكذا توزعت قوانا جميعا في شتى الجهات. وبقيت جماعة من المستطلعين وحضيرة الحراسة كقوة احتياطية.

بدأت المعركة في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم. وصب الهتلريون حمم رشاشاتهم ورشيشاتهم المسعورة على سريتنا الاولى، وأخذوا يتقدمون في كتلة متراصة وقد كانت نيران هاوناتهم ورشاشاتهم تغطي ذلك الهجوم. لكن نيران رشاشاتنا الثقيلة والمتوسطة اضطرتهم مؤقتا الى التوقف لينبطحوا على الارض. ثم دوى الأمر الالماني من جديد فنهض الاعداء ليتابعوا عملية الانقضاض.

وبعد أن تركهم أنصارنا يدخلون حقل رماية أسلحتهم انقضوا عليهم في هجوم معاكس ودوت الصيحة الأنصارية «هورا».

وهجم الرتل الألماني الثاني كذلك فقاتل هناك قسم من سريتنا الرابعة.

Twitter: @ketab_n

وبدأ الرفاق بنقل جرحانا الى المعسكر.

كنا نعلم علم اليقين بأننا غير قادرين على أن نصمد طويلا في القتال: فقد كان لدينا قليل من الذخيرة، ولهذا أرسلت الساعيين الى فصيلتي باليتسكي وكاراسيف بطلب ارسال فئات صغيرة تطعن العدو من الخلف. فان هذا سوف يوزع من قوى الألمان على الأقل.

بدأت المدفعية الألمانية قصف المعسكر، لكن القذائف كانت تنفجر على بعد مائتي متر خلف المعسكر.

أنذرتنا السرية الأولى بأنها كادت تستنفد ما لديها من الطلقات. وبأن ذخيرة الرشاش الثقيل قد نفدت. فأرسلنا اليها جماعة الانصار من فصيلة الحراسة. وبعد مضي برهة وجيزة ابلغتنا من جديد: «نفدت الذخيرة تقريبا، أنجدونا، والا فلن نصمد بعد».

وقال لي الساعي:

– يقتلونهم كالذباب، واولئك يزحفون ويزحفون، يريدون ارهابنا بهجوم معنوي.

مضت أربع ساعات على خروج سرية سيميونوف. لكنها لم تكن قد أثبتت وجودها بعد. أين هي، وماذا تعمل؟

وصرنا ننجد السرية الأولى بجماعات صغيرة من الأنصار الموجودين لدينا في المعسكر من مختلف الوحدات الصغرى. لكن هذه النجدات كانت تشد من أزرها لفترة وجيزة وحسب.

وبدا أننا نخسر المعركة.

عاد الساعيان من عند باليتسكي وكاراسيف. لقد أجاب باليتسكي بأنه لا يقدر على ارسال أحد لأن فصيلته كانت آنذاك مستعدة للدفاع وفي انتظار هجوم الأعداء عليها. أما كاراسيف فقد كتب يقول بأنه سوف يرسل فوجا كاملا لضرب العدو من الجانب.

صار الهتلريون يضيقون الخناق على رفاقنا أكثر فأكثر من الجانبين. واقتربت النيران من المعسكر نفسه. فبعثت الى المعركة باحتياطاتنا الاخيرة التي يقودها رئيس الحراسة بورلاتنكو، وكانت تعد خمسة عشر رجلا كلهم من الذين

Twitter: @ketab_n

أصيبوا بجروح طفيفة، ولم تكن قد مضت دقائق كثيرة على اسعافهم.

بدأت القذائف تنفجر في المعسكر نفسه ، فأخذت الصنوبرات الهائلة تنكسر من جذوعها ثم تهوي في صرير عال الى الأرض. واشتد اقتراب الألمان وقد مرت سبع ساعات على بدء القتال. ولم يظهر انصار كاراسيف، ولا سرية سيميونوف بعد.

وقبيل الساعة السادسة مساء أصدرت أوامري الى الأنصار بتجهيز الخيول والعربات وتحميلها بكل من أصيب بجروح خطيرة وأمتعة القيادة تأهبا للرحيل. واستطعت بلأى أن أنتقي أربعة عشر شخصاً ممن كان باستطاعتهم حمل السلاح من بين الجرحى. وكان ينبغي على كل من تسيسارسكي والأطباء الآخرين أن يقوموا بحماية الجرحى المصابين بالجروح الخطيرة والقافلة. اما أنا فقد توجهت ببقية كتيبة الحرس الى القطاع المركزي لاعطي أمراً بالتراجع مع الاستمرار في خوض المعركة، ولأقوم بفتح النيران لتغطية انسحاب القافلة والجرحى.

لقد أدركت واقع الأمر: فان لم نتمكن من الصمود الى آن يعم الظلام لن تتاح لنا فرصة الخروج لأن الألمان كانوا قد أحاطوا بنا من كل جانب.

وفجأة تناهت الى اسماعنا الصيحة الروسية «هورا» من تلك الجهة التي اطلقت النيران منها المدافع والهاونات الالمانية.

لم تكد أصداء «هورا» تتلاشى في الهواء حتى كان صوت اطلاق النار قد أخرس بقدرة قادر. وبعد خمس دقائق فتحت هاونات العدو نيرانها من جديد، لكن... على الألمان أنفسهم.

سيطرت البلبلة والذهول على الأعداء في الحال، فأخذوا يلقون بأسلحتهم ويولون الأدبار. أخذ أنصارنا يطاردون بقايا فلولهم الهاربة.

أية معجزة تلك؟

بالطبع، لم يكن في الأمر ثمة من معجزة. فقد أمنت

Twitter: @ketab_n

سرية سيميونوف نجاح المعركة. خرجت الى مؤخرة الألمان. استطلع سيميونوف في أناة وصبر كل شيء حتى اكتشف مواقع بطارية المدفعية وبطارية مدافع الهاون. وعلم أن لدى المنكلين ثلاثة مدافع، وثلاثة هاونات للفوج وهاونا واحدا ذا عشر سبطانات، وعلم الى جانب هذا كله بأن مركز قيادتهم في خيمة واقعة على بعد مائتي متر من مكان وجود البطارية.

وزع سيميونوف سريته الى مجموعتين بدأتا ضرب العدو في آن واحد . وتمكنت احدى المجموعتين من الاستيلاء على المدفعية ومدافع الهاون ثم وجهتها الى الهتلريين . واستولت المجموعة الثانية على مركز القيادة ومحطة اللاسلكي التي كانت تجري بواسطتها ادارة المعركة . وقتل في الحال تسعة عشر ضابطا من ضباط القيادة والجنرال بيبر «سيد الموت» وقائد تلك الحملة التأديبية . وهذا قرر مصير المعركة .

وينبغي القول بأن فوج كاراسيف تمكن من الاسهام في المعركة قبل انتهائها . فقد افلح في الالتفاف حول جناح العدو واقتحمه .

وقبيل الساعة الحادية عشرة ليلا تجمع الأنصار في المعسكر بعد أن عادوا من مطاردة فلول العدو المتفرقة في الغابة . وكان مائة وخمسون رجلا من الأعداء قد استحكموا في بيريستياني منتظرين هجومنا عليهم . لكنه لم يبق ثمة معنى في قيامنا بمثل ذلك الهجوم .

كنت آنذاك على يقين كامل بأن الألمان سوف يفاجئوننا في اليوم التالي بقوى جديدة ، وسيقصفون المعسكر من الجو . وفي الليل تأكد لنا أنه ثمة رتل ألماني آخر قد بدأ يتحرك من محطة كيفيرتسي في اتجاهنا . فقررنا مغادرة المكان قبل مطلع الفجر .

تكبدنا في تلك المعركة اثني عشر قتيلا . وجرح من بيننا أثنان وثلاثون رجلا . فقمنا بدفن القتلى وباسعاف الجرحى وحزمنا أمرنا للرحيل .

ثم أرسلت رسالتين مع الساعيين الى باليتسكي

Twitter: @ketab_n

وكاراسيف لأنبئهما برحيلنا عن ذلك المكان قبل مطلع الفجر، ولأعرض عليهما جزءا مما غنمناه في تلك المعركة من الألمان .

كانت الغنائم كثيرة ، فقد استولينا على قافلة كاملة للأعداء مؤلفة من مائة وعشرين عربة محملة بالسلاح والذخيرة والقنابل والقذائف ، وبالملابس كذلك . وتم الاستيلاء أيضا على ثلاثة مدافع ،وثلاثة مدافع هاون مع كثير من القنابل والقذائف . هذا الى جانب الرشيشات والبنادق والذخيرة الكثيرة .

قد سقطت في أيدينا وثائق القيادة التي علمنا منها ان الجنرال بيبر كان يقود الحملة ضدنا وتساعده في ذلك ثلاثة أفواج شرطة الاس – اس ، تعد جميعا ألفي وخمسمائة مقاتل .

وبموجب تلك الوثائق فان الجنرال بيبر كان قد مارس قيادة حملات التنكيل منذ أيام الحرب الأولى . فطاف بأفواجه من الاس – اس بكل البلدان المحتلة من قبل الهتلريين . وظل يمارس أعماله الوحشية في أوكرانيا زهاء خمسة أشهر .

كان الجنرال بيبر يحمل خارطة طوبوغرافية وضعت عليها نقطة حمراء اشارة الى المكان من مربع الغابة حيث كان يوجد معسكرنا . ان هذا من فعل ناومنكو بالطبع . لكن تحديد المكان لم يكن دقيقا تماما ، ولهذا فقد كانت قذائف الاعداء تنفجر في جانب قريب من المعسكر .

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل تناول الأنصار أول وجبة خلال أربع وعشرين ساعة . وفي الساعة الثالثة تماما تم الرحيل عن ذلك المعسكر. لقد عزت علينا مغادرة ذلك المكان الملائم الجميل لنقاسي آلام البرد من جديد ، ولنبتل تحت الأمطار . وما العمل ، فلم يكن ثمة حيلة في اليد .

لقد قررنا التراجع الى تخوم مقاطعة روفنو الشمالية لفترة مؤقتة كيما يتاح لنا اعادة تنظيم الكتيبة وارسال الجرحى بالطائرة الى موسكو . هنا ، في غابات تسومان حيث كنا ، أبقينا جماعة صغيرة بقيادة تشيورني . فقد كان

Twitter: @ketab_n

عليه هناك أن يناور ويختفي عن أنظار الألمان ليستقبل من يعود من الرفاق من مدينة روفنو .

بعد يوم واحد على رحيلنا بدأت طائرات الهتلريين ومدفعيتهم تقصف مكان معسكرنا الذي كان قد خلا من الأنصار . وبعد «تحضير المدفعية القوية» توصلوا أخيرا الى المعسكر دون أن يلاقوا أية مقاومة هناك . وعاد الألمان من المعسكر بفضلات «غنائمهم» جثث الالمان الذين قتلناهم في المعركة . وعثروا هناك على كثير من جثث القتلى : فقد كبدناهم ما يقرب من ستمائة قتيل .

وارسل الهتلريون جثة الجنرال بيبر بالطائرة الى برلين . وشد ما بكته صحفهم وتحدثت عنه ! فقد جاء فيها أن بيبر كان أمنع نقطة ارتكاز لسلطات المحتلين . لكنهم كفوا الآن عن تلقيبه بـ «مايستر تودت» — «سيد الموت» .

والبقية تتبع

في شارع ميلنيتشنايا ، وعند أبواب الفيللا التي يحتلها آمر القوات الخاصة في أوكرانيا الجنرال ايلغين ، كان يقف دائما خفير مناوب . «وفي أحد الأيام الرائعة» كان صبي يلبس بنطلونا قصيراً ويحمل هرمونة «مزيكة» يحوص حول تلك الفيللا في لجاجة والحاح . وقد رآه الخفير أكثر من مرة :

— ماذا تحوص هنا؟

— هكذا ، لا شيء .

— ول من هنا ! هذا منزل الجنرال ، والا تسوء عقباك!

وجرى الصبي مبتعدا ، لكنه ظل يراقب ذلك المنزل من خلف الركن .

سرعان ما ظهرت فاليا عند ذلك البيت تحمل في يدها حقيبة ، توجهت الى الخفير وقالت :

— مرحبا ! ألم يأت السيد الجنرال بعد ؟

— كلا .

— ومن هناك ؟ — ونظرت فاليا الى المنزل .

Twitter: @ketab_n

– جندي خادم .

– سأدخل وأنتظر مجيء الجنرال . انني أحمل اليه رسالة مستعجلة من مفوضية الرايخ .

لقد كانت فاليا كثيراً ما تأتي الى الجنرال بالرسائل ، وكان الخفراء يعرفونها جيداً .

استقبلها الجندي الخادم ، الذي بدأ يعمل عنده منذ أيام خلت .

كانت فاليا تعرف هذا الأمر جيداً ، الا أنها تعمدت سيماء الدهشة وقالت :

– اني آتية من لدن مفوضية الرايخ . وأين الجندي الخادم السابق ؟

– لقد صار في برلين !

– ولماذا ذهب الى هناك ؟

– لتوريد الغنائم. أرجوك ، أيتها الآنسة ، أن تدخلي البيت وتنتظري هناك .

– كلا ، سوف لن أنتظر . ان علي أن أوصل رسالة مستعجلة أخرى ، وفي طريق العودة أعرج . هل سيأتي الجنرال قريبا ؟

– هكذا ينبغي .

وما أن قالت فاليا للخفير المناوب «سأعود بعد قليل» حتى خرجت والتقت بذلك الصبي وراء الركن .

– أسرع وبلغهم بأن كل شيء على ما يرام . فليأتوا حالا.

وأسرع كوليا الصغير بخفة الطير الى الشقة حيث كان ينتظره بفارغ الصبر كل من كوزنيتسوف وستروتينسكي وكامينسكي وغنيديوك .

وخلال دقائق معدودة كانوا جميعا قد بلغوا فيللا ايلغين . نزل كوزنيتسوف من السيارة قبل الجميع في زي نقيب الجيش الألماني ، وتوجه الى الفيللا .

وحينما رأى الخفير هذا الضابط الألماني حياه وقال :

– أيها السيد النقيب ، لم يأت الجنرال بعد .

– أدري !–اجابه كوزنيتسوف بهذه الكلمة بالألمانية ، ودخل الفيللا ، ثم دخل من ورائه ستروتينسكي .

Twitter: @ketab_n

كان الجندي الخادم يجلس في الدهليز وقد غلبه النعاس . فقال له كوزنيتسوف بصراحة :

– اني نصير سوفيتي ، ان أردت البقاء على قيد الحياة ساعدني ، والا فترحم على نفسك .

غمغم الجندي الخادم متلعثما : نقيب في الجيش الألماني ... نصير !.. وصار يرتعد وجلا ، وأخذت أسنانه تصطك عندما غمغم قائلا :

– أنا معكم بكليتي ... فنحن هنا مجندون للخدمة اجباريا وبالاكراه ...

– ايه ، اياك !

لكن ذلك الجندي الخادم الذي دارت في رأسه الدوائر لم يستطع أن يصدق بعد بأن ذلك الضابط الألماني انما هو مجرد نصير ، فجمد في مكانه لا يبدي حراكا .

فسأله كوزنيتسوف :

– ما اسم عائلتك ؟

– كوزكو .

فأمره كوزنيتسوف:

– هيا ، اجلس واكتب .

وكتب الجندي الخادم كل ما أملاه عليه كوزنيتسوف : «شكرا على عصيدتكم . انني اهرب الى الأنصار . وسآخذ الجنرال معي . كوزكو» .

وضعوا تلك الورقة على مكان بارز من مكتب الجنرال ايلغين .

ثم توجه كوزنيتسوف الى ستروتينسكي وقال :

– ايه ، فلنعمل الآن طالما أن رب المنزل غائب .

قام الاثنان بعملية تفتيش واسعة النطاق في ذلك المنزل . فوضعا أيديهما على كل الوثائق والأسلحة ، ثم جمعاها في كيس .

وبقي ستروتينسكي مع الجندي الخادم ، أما نيقولاي ايفانوفيتش فقد عاد الى الخفير المناوب وكان يقف الى جانبه غنيديوك . فما أن اقترب منهما كوزنيتسوف حتى سمع صوت غنيديوك يقول :

Twitter: @ketab_n

– ايه ، انت ! كنت غريتس الاوكراني واصبحت فريتس الالماني .

– اهرب طالما لا تزال على قيد الحياة ، – اجابه الخفير متكاسلا وبغير لهجة الواثق فيما يقول ، – وأي فريتس عندك أنا !

– اذا لم تكن فريتس فساعد الأنصار !

فقال لهما كوزنيتسوف وقد أدركهما من الخلف :

– ايه ، كيف ، اتفقتما ؟

التفت الخفير اليه التفاتة عنيفة ، ثم سأل وهو يضبط بصره اندهاشا :

– والنقيب كذلك ؟

فأمره كوزنيتسوف قائلا:

– كذلك ، كذلك ! هيا معي !

– سيدي الضابط ، لا يجوز لي أن أدخل بيت الجنرال .

– يجوز أو لا يجوز سيان . هيا ، هات بندقيتك .

وجرده كوزنيتسوف من سلاحه .

فتبعه الخفير طائعا الى المنزل.

أما غنيديوك فقد استبدل الخفير ووقف ليناوب مكانه .

ثم نزل كامينسكي من السيارة وصار يتمشى بالقرب من المنزل .

حدث هذا كله وقت العصر ، قبل أن يعم الظلام وكانت الشوارع لا تزال تغص بالمارة .

وبعد خمس دقائق خرج ستروتينسكي من المنزل وقد ارتدى بدلة خفير ومعه بندقيته واستبدل غنيديوك الذي دخل المنزل .

كان كل شيء قد صار معدا ، لكن ايلغين لم يعد بعد . مرت عشرون دقيقة ، ثم ثلاثون واربعون ولم يعد ايلغين .

أما ذلك الخفير الذي كان مناوبا في الأصل ويجلس الآن في الدهليز توجه فجأة الى كوزنيتسوف قائلا :

– من الممكن أن يحدث ما لا تحمد عقباه . فان عملية تبديل الخفراء سوف تكون سريعا . دعوني أعود الى مكاني

Twitter: @ketab_n

في المخفر . فطالما وعدتكم بأن أكون معكم فانني سأساعدكم .

فسأل كوزنيتسوف الجندي الخادم :

– أصحيح ما يقول ، سوف يأتي آخر ليستبدله ؟

فأجابه هذا:

– بالضبط .

دعا غنيديوك ستروتينسكي ، وحدثت عملية تغيير الملابس من جديد . وذهب الخفير ليقف حيث كان سابقا تحت مراقبة كامينسكي . أما ستروتينسكي فقد بقي ينتظر في السيارة .

وفي تلك الأثناء وصل ايلغين . نزل من السيارة مسرعا ، ترك السائق ينصرف وتوجه الى المنزل .

– انه قوي جدا ، سيكون من الصعب طرحه . سأذهب للمساعدة ، – هكذا قال ستروتينسكي لكامينسكي عندما رأى الجنرال ايلغين .

وما أن أغلق الجندي الخادم باب الحجرة التي دخلها الجنرال حتى كان نيقولاي ايفانوفيتش قد أشهر مسدسه وقال له بصراحة :

– أنت معتقل ، أيها الجنرال ! انني نصير سوفيتي . فاذا ما أحسنت التصرف سوف تبقى على قيد الحياة .

– خائن ! – زمجر ايلغين ملء حنجرته وخف بيده الى جراب مسدسه .

لكن كوزنيتسوف وستروتينسكي تمكنا من أن يقبضا على يديه في تلك الأثناء :

– لقد عرفناك على أنفسنا بصراحة . كنت تبحث عن الأنصار – ها هم الأنصار ، انظر اليهم بأم عينيك !

ومن جديد زمجر ايلغين :

– أنجدوني !..

فطرحاه أرضا آنذاك ، وأحكما القيد في أطرافه ، ثم ملآ فاه بمنديل ، وسحباه الى الخارج . وعندما دفعاه الى السيارة سقط المنديل من فيه فزمجر من جديد ، وهرع اليه الخفير وهتف بكوزنيتسوف :

Twitter: @ketab_n

– يقترب خفراء النوبة الجديدة !

عندئذ اصلح نيقولاي ايفانوفيتش بدلته وصاح في قارعة الطريق :

– سدوا له حنجرته – وتقدم الى لقاء أولئك القادمين .

لكنهم لم يكونوا خفراء جاؤوا ليستبدلوا غيرهم ، وانما هم أربعة من الضباط الألمان . اقترب منهم كوزنيتسوف وأراهم القرص الذي يحمله (لقد لزم حالا ذلك القرص «غنيمة خاصة») وقال :

– لقد ألقينا القبض على نصير في زي ألماني قام بمحاولة لقتل الجنرال . اسمحوا لي بهوياتكم .

تقدم اليه أولئك بهوياتهم . أما القرص الذي كان كوزنيتسوف قد انتزعه من رجل الغستابو في يوم ما، فقد اضطر أولئك الضباط على أن يذعنوا للأمر . سجل نيقولاي ايفانوفيتش في دفتره أسماءهم وقال :

– أنتم الثلاثة ، بامكانكم أن تذهبوا ، – ثم التفت الى الرابع وقال ، – أما أنت يا سيد غراناو فأرجو أن ترافقنا الى مقر الغستابو .

لقد استطاع كوزنيتسوف أن يعرف بواسطة الهوية أن غراناو كان يعمل سائقا خاصا لمفوض الرايخ كوخ . ففكر في نفسه : «سوف كان منا» .

وما أن اقترب غراناو وكوزنيتسوف من السيارة حتى دفعه الى داخلها كامينسكي وغنيديوك باشارة من كوزنيتسوف ، وجرده من سلاحه فورا .

ها ، سيارة «اوبيل» الصغيرة التي كانت تتسع لخمسة اشخاص فقط تقل الآن سبعة .

في الليل ، وعلى الأخص عند الصباح ، قامت في المدينة ضجة كبرى تردد نبأ اختطاف الجنرال . أعيت عمليات البحث عن الأنصار أقدام الألمان . كانت الدوريات تطوف في شوارع المدينة طيلة الوقت ، وكان رجال الدرك يقومون بتحري الغرف والبيوت .

لكن بينما كان الألمان يخرجون ألسنتهم من أفواههم وهم يلهثون بحثا عن «المجرمين» فقد كان عندنا في «المنارة

Twitter: @ketab_n

الخضراء» كل من الخفير والجندى الخادم يتحدثان الى الأنصار كيف أنهما خافا يوم أمس في بداية الأمر ، ثم أخذا يساعدان رفاقنا في تقييد ايلغين ، اما كوزنيتسوف فكان يجلس في الأريكة في غرفة انتظار فونك نائب كوخ ورئيس قضاة أوكرانيا .

كان ألفريد فونك يحمل رتبة هتلرية «الفوهرر الأول في الاس – اس» . وقبل تعيينه لعمل في أوكرانيا عمل قاضيا رئيسيا في تشيكوسلوفاكيا المحتلة آنذاك من قبل الألمان . وقام بأعمال التنكيل ضد الوطنيين التشيكيين دون رأفة ولا رحمة . ثم استمر فونك في أعماله الدموية في أوكرانيا . وبناء على أوامره اعدموا المعتقلين في السجون وفي معسكرات الاعتقال جميعا . وهكذا فقد تم اعدام الآلاف من الناس الأبرياء .

بسبب مقتل غيل وكنوت وجرح دارغيل فقد أصدر فونك أمرا منذ مدة وجيزة باعدام جميع المعتقلين في سجن روفنو رميا بالرصاص ، فقررنا آنذاك اعدام ذلك الجلاد اللئيم . وقد ساهم في اعداد العدة لذلك الأمر كل من كوزنيتسوف وستروتينسكي وكامينسكي والحلاق الذي كان يحلق فونك يوميا في الصباح .

كان كوزنيتسوف يعرف أن فونك سوف يصل بعد خمس عشرة دقيقة ، وكانت أمينة سره تنتظره لوحدها في غرفة الانتظار ، وقد أخذ كوزنيتسوف يجاذبها طرف الحديث عن الطقس ويختلس النظر من النافذة الى الشارع حيث يتمشى يان كامينسكي .

كان كامينسكي بدوره يراقب ستار نافذة صالون الحلاقة . فقد كان ينبغي على الحلاق هناك بموجب الخطة المرسومة ، أن يزيح الستار عن النافذة عندما يفرغ من عملية الحلاقة لفونك ويتوجه هذا الى دائرة المحكمة الرئيسية . وعندئذ كان على كامينسكي أن ينزع عمرته عن رأسه ويمسح على شعره بيده عندما يغادر فونك صالون الحلاقة في طريقه الى دار المحكمة .

– سوف أكون في انتظارك فى تمام الساعة السادسة

Twitter: @ketab_n

عند تقاطع شارعي فريديك شتراسي ونيميتسكايا . وسوف نقضي معا وقتا رائعا . هل ستأتين ؟ – سأل كوزنيتسوف أمينة السر .

– أجل ، سوف آتي .

وفي تلك اللحظة بالذات لاحظ كوزنيتسوف اشارة كامينسكي . وتقدم من امينة السر :

– هل لي أن أطلب كأساً من الشاي ؟ قيظ فظيع !

– دقيقة واحدة أيها السيد النقيب . سوف أحضره لك حالا .

وعندما عادت أمينة السر الى غرفة الانتظار الفتها خالية من أي انسان . فهزت كتفيها مستغربة وجلست على كرسيها وراء الطاولة . وفي تلك الأثناء دخل فونك . قال لأمينة سره بالألمانية «غوتن مورغن» وذهب الى مكتبه .

وبعد دقيقة واحدة دوت طلقتان في مكتب فونك ، فقفزت أمينة السر من على كرسيها مذعورة ورأت النقيب يخرج من هناك ، ثم توارى في السلالم دون أن ينظر اليها .

كان في دار المحكمة الرئيسية جمع غفير من الناس ، اضطربوا كثيرا بعد سماعهم صوت اطلاق النار . لكن كوزنيتسوف الذي لم يكن باعثا على أدنى شك خرج الى الشارع حيث وقفت سيارتان لتوهما تقلان الغستابو ورجال الدرك . غادر الغستابو السيارتين ونظروا بدهشة الى الطابق الثاني من المبنى حيث دوت الطلقتان .

وقف كوزنيتسوف الى جانبهم وهو ينظر مثلهم في دهشة كذلك الى نوافذ البناية . وما أن تعالت الصيحات «قتلوه ، أمسكوا بهم !» وهرع الجميع الى البناية ، توارى كوزنيتسوف خلف الركن ثم تحول الى الحوش، وقفز فوق أحد الأسوار ، ثم فوق آخر الى أن وجد نفسه بالقرب من سيارته حيث كان ينتظره ستروتينسكي خلف مقودها .

أما كامينسكي فقد كان يراقب من مخفره الغستابو ورجال الدرك كيف كانوا يحيطون البناية كلها ، ثم كيف تسلقوا سطحها بحثا عن ذلك النصير وقد ألقوا القبض على

Twitter: @ketab_n

عشرين شخصا وأخرجوهم منها ، وكان من بينهم ضباط ألمان ، ثم ذهبوا بهم الى الغستابو .

أما كوزنيتسوف وستروتينسكي فقد كانا قد أوغلا بعيدا في ظاهر المدينة .

حدث هذا عندما كانت كتيبتنا في طريقها الى الشمال بعد معركتنا مع «سيد الموت» .

فترة استراحة

لم يكن رحيلنا عن ذلك المعسكر عملية سهلة بحد ذاتها . فان مكوثنا في غابات تسومان زهاء ستة أشهر لم يكن ليغني الكتيبة عدديا وحسب ، وانما أغناها اقتصاديا كذلك . فقد صارت لدينا براميل معبأة باللحوم المملحة وبالشحم، وصناديق كثيرة ملأى بالسجق ، ثم أكياس جمة من القمح الذي جمعناه بأنفسنا من حقول الفلاحين البولونيين الذين ابادهم الالمان . كانت ادوات الورشة التابعة لريفاس تشغل عربة خاصة واصبحت آنذاك غنية بعدد كبير من مختلف الادوات . وعلاوة على هذا فقد كانت لدينا جميع معدات الخياطة والسكافة وكثير غيرها من الاشياء . كانت قافلتنا تتألف من خمسين عربة شدت كل منها الى جوادين . وبعد تحطيم حملة «سيد الموت» اضيفت الى قافلتنا خيول مشدودة خاصة تحمل كل ما غنمناه من المدافع ومدافع الهاون والقذائف والالغام وغيرها من صنوف الذخائر والغنائم .

افسد المطر الطريق . وكان تقدمنا صعباً جداً مما سبب لنا مضايقات كثيرة . أما بالنسبة للجرحى فقد صاروا يعانون من الآلام ما لا يطاق.

وما أن تأكد المنكلون من أن المعسكر خال من كل انسان حتى أخذوا يجدون في أثرنا . ولم يكن من الصعب اقتفاء آثارنا لأن فصيلتي بروكوبيوك وكاراسيف وكذلك فوج باليتسكي ومجموعة محمد كانت جميعها قد سلكت السبيل نفسه من خلفنا بعد أن قرر القادة مغادرة تلك

Twitter: @ketab_n

الأمكنة القديمة جميعاً . وهكذا فقد خلفنا وراءنا من الآثار ما لا يمحى .

لكن المنكلين لم يتمكنوا من ادراكنا . فهم أولا قد تأخروا في بدء اللحاق بنا . وثانياً أضاعوا كثيراً من الوقت في «تمشيط» الغابات التي كانت تدل آثارنا فيها علينا . فكانوا يتوغلون في الغابة سلاسل متراصة خائفين من لقاء الأنصار المفاجيء .

وعندما اجتازت كتيبتنا مائة وخمسين كيلومتراً وأصبحنا على بعد خمسة كيلومترات من قرية تسيلكوفيتشي – فيلكي التي كنا قد عقدنا الرأي على أن نعسكر فيها ، كان قرص هائل أحمر يتسلق الأفق ببطء من الشرق.

– يا لروعة الشمس عندكم ! لماذا ذلك ؟ – قلت وأنا أبتسم لفلاح متوسط في السن كان يقف الى جانب الطريق .

فأجاب :

– لطالما أن الشمس في مثل هذا الاحمرار فاننا نترقب اليوم هبوب عاصفة ثلجية .

– وأية عاصفة ، يا ابي! ما من سحابة في السماء ، وما من ريح تهب ، – قال له لوكين معترضا .

لكنه تبين لنا فيما بعد أن ذلك الفلاح كان مصيباً فيما يقول .

فبينما كانت الشمس ترقى سلم السماء كان حجمها يضمحل شيئاً فشيئاً وتصطبغ بلون شاحب . وسرعان ما بدأت بعض السحب ترتفع جادة في أثرها .

لم نكد نفرغ من عمليات توزيع الانصار على البيوت حتى بدأت تلك السحب تساقط ندف زغباء كبيرة . كان يحلو لنا ان ننظر الى البياض الناصع لباكورة الثلج هذا . هبت ريح عاتية فاشتد تساقط الثلج ، وخلال عشر دقائق أصبح من المستحيل أن يرى الانسان الى أبعد من مترين أو ثلاثة أمتار .

واستمرت العاصفة زهاء ساعتين ، ففرشت الأرض بطبقة سميكة من الثلج .

Twitter: @ketab_n

كنا على يقين من أن ذلك الثلج لن يدوم أكثر من يوم بليلته لأن أديم الأرض لم يكن قد جف وتصلب بعد . لكننا كنا مسرورين لتساقطه : فهو على الأقل سوف يغطي آثارنا لوقت ما ، ثم عندما يذوب لن يسمح للمنكلين بمتابعة طريقهم للحاق بنا لأن سياراتهم لن تتمكن من خوض الطين والأوحال التي سوف تنتج عن ذوبان الثلج .

عسكرت في قرية تسيلكوفيتشي – فيلكي الى جانب كتيبتنا فصيلة بروكوبيوك . وكانت فصيلة كاراسيف قد احتلت قرية مليتوك الواقعة على بعد كيلومترين عنا على ضفة نهر ستير . أما فوج باليتسكي فقد توجه الى مكان معسكره القديم في الغابات الواقعة على بعد عشرين كيلومترا الى شمال قرية تسيلكوفيتشي – فيلكي .

وعدا كتيبتنا ومن قدم معنا من غابات تسومان كانت في ذلك المكان تشكيلة اليكسي فيدوروفيتش فيدوروف المعروف باسم فيدوروف – تشيرنيغوفسكي . وقد عسكرت تشكيلته في الغابات الواقعة على بعد خمسة وثلاثين كيلومترا الى الغرب من تسيلكوفيتشي – فيلكي .

لم نكن نحسب أن مكوثنا في تلك الاماكن سوف يتعدى عشرة أو اثني عشر يوما ، نعود بعدها أدراجنا الى غابات تسومان الخالية بعد أن يبرم بها الهتلريون . كان علينا أن نستمر في اعمالنا المنظمة جيدا .

ولم تتمكن تلك الجماعة المناورة التي خلفناها في غابات تسومان من حل محلنا ، ثم لم يتسن لنا الاتصال بها مباشرة بطريق اللاسلكي .

استمر الجيش الأحمر في هجومه . فأخذت القيادة الهتلرية تجمع قواتها وتقذف بها من قطاع في الجبهة الى آخر آملة في ان تستقر في هذا الخط او ذاك . وكان ينبغي علينا ان نرصد تلك التحركات ونبلغ موسكو عنها .

وفي أواخر تشرين الأول (اكتوبر) تلقينا أوامر من القيادة للقيام بأعمال فعالة لنشر الذعر بين صفوف المحتلين وسلبهم فرصة الاستعداد للدفاع ، ومنع جلائهم محملين بما نهبوه من قيم السلع . وبلغنا بدورنا تلك الأوامر الى كل

Twitter: @ketab_n

من كوزنيتسوف وستروتينسكي وشيفتشوك ونوفاك وغيرهم من الرجال السريين في روفنو ، ثم الى كراسنوغولوفيتس في زدولبونوفو .

وبالاضافة الى هذا فقد أرسلنا عدة جماعات من المقاتلين الى روفنو للقيام بأعمال تخريبية الى جانب مهام الاستطلاع الاخرى .

وفي ضواحي تسيلكوفيتشي – فيلكي اخترنا مهبطا وابلغنا احداثياتها الى موسكو، لكن لم تقدم الينا أية طائرة، بل بلغنا الرد من موسكو يقضي بوجوب تسليم جرحانا مع جرحى فصيلتي كاراسيف وبروكوبيوك الى تشكيلة أنصار فيدوروف – تشيرنيغوفسكي.

لقد كنا نبدي عناية فائقة برفاقنا الجرحى والمرضى منذ الأيام الأولى لوجودنا في مؤخرة العدو . كانت تلك العناية قانوناً مقدساً يتمسك به كل الأنصار. وها نحن الآن نواجه مسألة تسليم رفاقنا الجرحى الى فصيلة أخرى. وبصرف النظر عن أننا كنا قد سمعنا الكثير عن سمعة تلك الفصيلة الحميدة فقد قررنا مع ذلك أن نتعرف بأنفسنا بادىء ذي بدء على الظروف التي سوف تحيط برفاقنا. وهكذا، فقد توجهت مع كل من كاراسيف وبروكوبيوك يرافقنا عشرون نصيرا لزيارة فيدوروف–تشيرنيغوفسكي.

من الصعب أن أنقل لكم ذلك الترحيب الذي استقبلنا به في تشكيلة أليكسي فيدوروفيتش فيدوروف. ان اليوم الذي قضيناه في معسكرهم سوف يبقى خالداً في ذاكرتي مدى الحياة.

وتحدث الينا أليكسي فيدوروفيتش كيف كان يتقدم بتشكيلته من مقاطعة تشيرنيغوف الى الغرب خلال غابات بريانسك حيث كنت مع كتيبتي في عامي ١٩٤١ – ١٩٤٢.

– ان الجميع يعرفونك جيداً ويتذكرونك، أيها الرفيق ميدفيديف. شهدنا هنالك قبور أنصارك. لقد دفنتموهم على خير ما ينبغي! واخترتم أمكنة رائعة وجميلة. وانني لا أزال أذكر خاصة قبر ستاروفيروف رئيس اركان كتيبتكم في

Twitter: @ketab_n

الغابة القريبة من قرية باتايفو. وأبدى أنصاري عنايتهم بتلك القبور، ونثروا عليها الأكاليل. ولقد انتقمنا مرة أخرى من قتلة ستاروفيروف الهتلريين. فأجهزنا على فصيلة كبيرة للشرطة في قرية باتايفو.

كان المستشفى في تشكيلة فيدوروف ممتازاً. فطلبت من أليكسي فيدوروفيتش أن يتسلم جرحانا ويلحقهم بتشكيلته.

– وماذا عساي أقول بهذا الشأن! طبعاً، هلموا بهم الينا، فلدي أطباء ماهرون. وعندما نهيىء مكانا لاستقبال الطائرات سنرسلهم الى موسكو.

وبعد عودتي الى المعسكر توجهت بالكلام الى رفاقنا الجرحى وقلت:

– سوف ننقلكم الى المستشفى في تشكيلة أنصار بطل الاتحاد السوفيتي اللواء فيدوروف. لقد كنا نوفر لكم سبل العناية لدينا، لكنكم لن تشعروا بفارق عند فيدوروف. ان تلك التشكيلة مقاتلة جبارة كما تجدر بكل تشكيلة مثلها يقودها نائب في مجلس السوفيت الأعلى. اننا ننقلكم الى هناك مطمئنين الى ذلك. والشيء الوحيد الذي أطلبه منكم هو الا تحطوا بسمعة كتيبتنا كونوا انضباطيين محافظين على النظام وقمينين بلقب الأنصار السوفييت.

وبعد عدة أيام قدم لزيارتنا أليكسي فيدوروفيتش، لكن لقاءنا معه في تلك المرة كان مقلقاً. فأثناء الغداء الرفاقي معه أخذت الطائرات الفاشية تقوم بتحليقات مستمرة فوق تسيلكوفيتشي – فيلكي. وعندما لم تكتشف أي شيء هناك شرعت تغير على القرية على بعد خمسة عشر أو عشرين كيلومترا منا وتقصفها بالقنابل دون رحمة. استمرت الغارات الجوية طيلة ذلك اليوم، وانعقدت أعمدة هائلة من الدخان الأسود الكثيف في جو تلك القرية. وفي الليل سطعت نيران الحرائق فيها حتى صبغت الغيوم بلون الأرجوان.

كيلا يتعرض سكان تسيلكوفيتشي – فيلكي الذين

Twitter: @ketab_n

استقبلونا بكل الترحيب بسببنا الى الغارات فقد قررنا أن نتحول عن تلك القرية الى الغابات حيث أقمنا معسكراً مؤقتاً.

راجت أساطير كاملة حول أعمال كل من كوزنيتسوف وستروتينسكي. وخصوصاً تكلموا عنهما كثيراً في فصائل الانصار المختلفة. وصار يفد رفاق من هذه الفصيلة او تلك ليتوجهوا اليهما بالدعوات. لكنهما لم يقدرا على ان يلبيا تلك الدعوات المتكررة وحتى في كتيبتنا كنا نخبئهما بقدر الامكان خشية ان تنكشف سيماهما وهيئتاهما للغستابو فيما بعد.

لكنني أذنت لهما بالذهاب الى كاراسيف الذي أنزلنا في نفسه منزلة رفيعة، وكذلك مفوضه ميخائيل ايفانوفيتش فيلونينكو. وعندما اتضح لهما هناك أن كوزنيتسوف أورالي الأصل، وأنه ابن منطقتهم تقريباً فقد دعوه الى حمام كانوا قد بنوه على طريقة أهالي سيبيريا.

– لم تتح لي مثل تلك الفرصة منذ أمد طويل! – حدثنا نيقولاي ايفانوفيتش بعد عودته من زيارة كاراسيف، – انني لم أر جودة ذلك الحمام حتى في بلدي نفسه. فالبخار فيه من الأعلى ينعش النفس. وفي القسم السفلى منه يتوفر الهواء النقي البارد. لقد كان استحمامي دافئا ورائعا!

فسأله أحد الأنصار:

– أراك نسيت حمامنا؟ ذلك الحمام الذي انهار؟

وضحكنا جميعاً وقد تذكرنا كيف أن كوزنيتسوف «استحم في دفء البخار» ذات مرة. بنينا الحمام بمثابة الكوخ العادي. وكانت الكوة المخصصة لخروج الدخان كبيرة جداً، وكنا قد ثبتنا قدوراً كبيرة فوق النيران لنسخن فيها الماء. وكيلا نذهب بعيداً من أجل الماء فقد حفرنا بئراً عميقة في أرض الحمام. لكن الاستحمام في تلك الخيمة لم يكن يجلب لأحدنا أية متعة، اذ كانت حرارة النيران تلفح من جانب بينما يلسع البرد القارس من جانب آخر.

بينما كان كوزنيتسوف يستحم هناك تداعى الحمام

Twitter: @ketab_n

فوق رأسه وسقط نيقولاي ايفانوفيتش في مياه البئر الباردة وقد اكتسى جسمه بالصابون. ثم انتشلناه من هناك مطيناً بالأوساخ. فأخذ الرفاق يحملون اليه بالقدور ماء دافئا من اكواخهم. أما هو فقد وقف يغتسل وسط الزمهرير. فيصب قدرا على جسده وينتظر وصول آخر. وهكذا «تناول كوزنيتسوف حماماً دافئاً» جعله لا يشعر بالدفء زمناً طويلا.

أبلغنا الخفير المناوب في المعسكر ذات مرة أن ضيوفا قدموا الينا. كانوا عشرة أشخاص جاؤوا فوق ظهور الجياد. تقدم الي رجل منهم مربع البنية وقال معرفا بنفسه :

— بيغما.

— أهلا وسهلا!

كان فاسيلي أندرييفيتش بيغما يشغل قبل الحرب منصب سكرتير لجنة الحزب في مقاطعة روفنو، ولم يزل يشغل هذا المنصب حتى الآن الى جانب كونه عضوا في لجنة الحزب السرية، ورئيسا لقيادة الحركة الأنصارية في مقاطعة روفنو، وآمرا لتشكيلة الأنصار. ولم أكن أعرف فاسيلي أندرييفيتش قبل ذلك، لكنني كنت أسمع عنه الكثير وأنتظر اللقاء معه منذ زمن طويل.

لقد قدم الينا فاسيلي أندرييفيتش من مكان جد بعيد— من الشمال الشرقي. وبعد أن تكلمنا عن أعمالنا حول مائدة الغداء أخذ بيغما يتحدث كيف أن أحد الأنصار يتنكر في هيئة ضابط ألماني ويقض مضاجع الألمان في مدينة روفنو: فيقتل اكبر رؤوس الألمان في وضح النهار وفي عرض الطريق، واختطف جنرالا ألمانيا.

وبينما كان فاسيلي أندرييفيتش يتحدث الينا عن هذا كله دون أن يدور بخلده أن ذلك النصير المعني انما هو الى جانبه حول مائدة الغداء. أراد لوكين أن يقاطعه فورا ليكشف له حقيقة الأمر، لكنه عدل عن ذلك باشارة مني. أما نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف فقد كان يصغي باهتمام بالغ الى كل ما يقوله بيغما .

وأنهى فاسيلي أندرييفيتش كلامه قائلا:

Twitter: @ketab_n

– أعمال رائعة! ليس مثلما نعمل واياكم.
فعرفناه آنذاك على نصيرنا الاسطوري.

طال بنا المكوث في ظاهر قرية تسيلكوفيتش – فيلكي أكثر مما كنا نتوقع من قبل. ولم يصلنا أي شيء من الذخيرة والبطاريات للاسلكي الذي كنا ننتظر وصوله من موسكو. حتى أن القيادة لم تكن قد أذنت لنا بعد بالعودة الي مكان معسكرنا القديم.

التفت الي لوكين وقال:

– اسمح لي بالذهاب الى بيريستياني. لقد نفد صبر المستطلعين وتملكتهم عصبية، وارادة جامحة للذهاب الى روفنو.

ووافقت. فتوجه ألكسندر ألكسندروفيتش بسرية من الأنصار وبجماعة من المستطلعين الى غابات تسومان.

وبعد ثلاثة أيام وصلتنا برقية من لوكين عن طريق موسكو أبلغنا فيها أن عصابات العدو فاجأته أثناء عبوره سكة الحديد، فاشتبك معها وتمكن من القضاء عليها.

وبعد أسبوع أذنت لنا القيادة بأن نعبر بالكتيبة الى منطقة روفنو . وقد وصلنا الى هناك بسلامة دون أن نطلق رصاصة واحدة .

اثناء استراحتنا في قرية صغيرة واقعة وسط غابة هائلة من أشجار الصنوبر تقدمت الي ليدا شيرستنيفا ببرقية لاسلكية جاءتنا من موسكو وتتضمن تهنئة القيادة لنا بما أحرزناه من نجاحات ومرسوماً صادراً عن هيئة رئاسة المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية يمنح مائة وخمسين نصيراً من كتيبتنا بأوسمة وميداليات سوفيتية. فقد منح بوسام لينين كل من كوزنيتسوف ونيقولاي ستروتينسكي وستيخوف ويان كامينسكي وأنا. ومنح كل من شيفتشوك وجورج ستروتينسكي بوسام الراية الحمراء. ومنح غنيديوك بوسام النجم الأحمر. أما تسيسارسكي وفاليا سيميونوف منح كل منهما بوسام الحرب الوطنية من الدرجة الأولى. ومنح جميع اللاسلكيين

Twitter: @ketab_n

دون استثناء بأوسمة أخرى. وحاز أكثر من مائتي نصير على ميداليات الأنصار. وحصل كوليا الصغير على ميدالية الأنصار من الدرجة الأولى كذلك.

وذاع نبأ تلك البرقية بين أنصار الكتيبة جميعا بسرعة البرق وبدأت التهاني.

فقلت لكوزنيتسوف وأنا أتقدم بتهاني اليه:

– أما أنت يا نيقولاي ايفانوفيتش فأجدر انسان بالمكافأة.

فأجابني:

– والآن انا مدين للوطن اكثر مما كنت.

التشييع

تقدم الجيش الأحمر بخطى مارد جبار الى الغرب. وقد حررت مقاطعتي كييف ودنيبروبتروفسك وكثير غيرهما من مقاطعات اوكرانيا وكذلك جزءاً من مقاطعة روفنو. وقام الطيران السوفيتي بقصف اهداف الالمان العسكرية في سارني وروفنو ولوتسك، وبقصف ارتال العدو المتقهقرة.

دب الذعر والفوضى في مدينة روفنو، فبدأ اجلاء جميع المؤسسات فيها الى مدينة لفوف. وأفلح الألمان في تجميع أمتعتهم ونقلها الى محطة القطار التي ضاقت بما نهبوه من الاشياء القيمة.

وكتب الي نيقولاي ايفانوفيتش من روفنو يقول:

«لقد طارت الحدأة الفاشية (ويعني بها ايريخ كوخ) من روفنو. فان أحداث الجبهة وتلك الضجة التي نشرناها في المدينة أفزعت كثيرا ذلك الطير الكاسر. حتى أنه لم ينتظر حلول عيد الميلاد في ٢٥ كانون الأول (ديسمبر)، بل احتفل به في ٢٢ من ذلك الشهر مسبقا ليسرع في الفرار من هنا.

ولا أستطيع أن أغفر لنفسي تأخري عن موعد ذلك

Twitter: @ketab_n

الاحتفال. فان كوخ، على ما يبدو، لن يعود بعد ذلك أبداً الى روفنو، وقد كنت عازما كل العزم على أن أصفي معه الحساب.

لقد عمل هنا رجل الغستابو فون أورتيل أثناء غيابي، وحصلت ليدا منه على بعض المعلومات التي لا أستطيع أن أبت في صحتها رأياً قاطعاً. فقد حدثها فون أورتيل أنه تم اختراع قنبلة – طائرة في ألمانيا، وهي تشبه الطائرة كثيراً، وتجتاز مسافة مداها الأقصى أربعمائة كيلومتر وبسرعة خارقة، وهي ذات مفعول تدميري رهيب. لقد أردت أن «اتحادث» معه بنفسي عن ذلك واذا سنحت لي فرصة ان اقدم هذه الامكانية لك أيضا. لكن اتضح ان اورتيل اختفى فجأة عن الانظار».

وسرعان ما ابلغنا قيادتنا عن انباء القنابل – الطائرة التي أخذ الهتلريون يستعملونها بعد ثمانية اشهر فقط.

وأبلغنا نيقولاي ايفانوفيتش كذلك المعلومات عن تنقلات وتحركات القيادات الألمانية من الشرق الى الغرب، ثم عن قيام الفاشيين بزرع الألغام في المنازل الكبيرة في مدينة روفنو.

لقد لاذ بمدينة روفنو كثير من رجال الغستابو والدرك بعد أن فروا من الاراضي التي حررها الجيش الأحمر. واشتدت وطأة الارهاب. وفي شارع بيلايا، حيث كانت تجري عادة اعدامات الموقوفين والمسجونين، كان يمكن سماع اطلاق النار يستمر طيلة الليل من كل يوم. لقد كانوا يطلقون النار على كل من يقع في قبضتهم دون استثناء، وأخذت سيارات الشحن المغطاة تنقل طيلة الليل آكاما من الجثث بعيداً الى ظاهر المدينة.

وكانوا قد اعتقلوا كازيمير دومبروفسكي، فقال لي ألكسندر ألكسندروفيتش لوكين مبلغاً عن ذلك الاعتقال:

– لقد صار الغستابو يعرفون بعض الأشياء عنا على ما يبدو.

وأكدت حوادث أخرى هذا القول فيما بعد.

فبينما كان تيرينتي فيدوروفيتش نوفاك يجلس مرة في

Twitter: @ketab_n

مكتبه بادارة معمل اللباد، وفي درج الطاولة أمامه بعض الرمانات المضادة للدرع وفي جيبه مسدس، دخل عليه فجأة ثلاثة من الغستابو . وسأله أحدهم بلغة روسية مكسرة:

– أين لنا أن نرى مدير المعمل؟

– وهل تعنون نوفاك؟

– أجل، أجل، وأين هو؟

– انه الآن في الطابق الثاني. هيا معي لأدلكم عليه.

– كلا، الزم مكانك. سنجده بأنفسنا.

وأسرعوا الى الطابق الثاني.

أما تيرينتي فيدوروفيتش فقد أخرج الرمانات ووضعها في الحقيبة بأقصى سرعته، ثم هيأ مسدسه في جيبه وأسرع في مغادرة مكتبه متوجهاً الى منزله. وهناك فوجيء باثنين آخرين يقفان الى جانب منزله في ثياب مدنية.

وبعد يوم واحد ألقى الغستابو القبض على والد نوفاك، وكنا قد نقلنا منذ شهر تقريباً الى كتيبتنا زوجته وطفله على سبيل الحيطة، ثم بعثنا بهما الى تشكيلة أليكسي فيدوروفيتش فيدوروف.

كان خطر الموت يحدق بكوليا ستروتينسكي. لقد كان حذراً دائماً ويسهر على تنفيذ كل ما تتطلب منه الاعمال السرية. غير انهم اكتشفوه أيضا. فقد عاد ستروتينسكي الى احدى الغرف السرية التي كان يتردد عليها. وبعد خمس عشرة دقيقة سمع أزيز محرك سيارة خلف النوافذ، سرعان ما تبعته طرقات على الباب.

– انهم الغستابو! – قال رب المنزل لكوليا محذرا، ثم خبأه في غرفة أخرى.

واقتحم الغرفة اثنان من الغستابو بعد أن حطما غلق بابها.

– أين هو؟ – صرخا في وجه رب البيت وهما يلوحان بمسدسيهما.

– من؟

– لا تتظاهر! – ورفع أحدهما يده ليضرب رب البيت بمسدسه.

Twitter: @ketab_n

في تلك اللحظة ظهر ستروتينسكي الغرفة فجأة وأردى الضيفين غير المرغوبين بطلقتين من مسدسه. ثم أخذ أسلحتهما واندفع مع رب البيت الى السلالم.

ومن على ردهة الطابق الثاني تمكنا من رؤية سيارة شحن مليئة برجال الدرك تقف في الشارع .

– هايل ! – هتف ستروتينسكي وأطلق عدة طلقات على رجال الدرك .

أخذ أولئك يتواثبون من السيارة يتدافعون ، فأتيحت في تلك اللحظة فرصة الاختباء لكل من ستروتينسكي ورب البيت .

لكن ، وبصرف النظر عن تأزم الوضع في روفنو ، فان أحدا من مستطلعينا لم يفكر بمغادرتها . لقد كان ينبغي عليهم أن يقوموا «بتشييع» المحتلين بالطريقة التي يستحقونها .

لقد ولى ذلك العهد الذي كان فيه الفاشيون يثقون بأن جيشهم «لا يقهر» وأن حكمهم للأراضي المحتلة سيبقى وطيداً مدى القرون . أما الآن فان عليهم أن يفروا بجلودهم، أن يفروا بأقصى سرعة ممكنة . وكان أفراد العصابات الخونة لا يقلون هما عن الألمان أنفسهم للفرار من وجه الجيش الأحمر الزاحف . وأصبحت محطة سكة حديد روفنو تزدحم بصورة لا تسمح بموضع لقدم . كانت ساحة المحطة كلها تغص «بالمنتصرين» المذعورين .

كانوا يدفعون أجورا باهظة للسيارة لتنطلق بهم في اتجاه الغرب ، وكان من العسير الحصول على سيارة انذاك . لقد كان لكل من ستروتينسكي ونوفاك رجاله العاملون في الكارجات الكثيرة ، فأوعزا اليهم بتعطيل جميع السيارات الصغيرة منها والشحن على السواء بأية وسيلة . وسعى السائقون جهدهم : فصاروا يخلطون الوقود بالرمل ، ويعرقلون به عمل المحركات ، ويزرعون طريق السيارات والكاراجات بالألغام ، وأخذوا يعطلون الاجهزة الكهربائية في السيارات ، وينزعون منها المفاتيح . وأحيانا كانوا يعمدون الى اشعال النيران فيها مباشرة . وجن جنون

Twitter: @ketab_n

الألمان ، لكنهم لم يقدروا على أن يفعلوا شيئا . وصارت السيارات لا تغادر مرابضها ، واذا ما غادرتها فسرعان ما كانت تتعطل في الطريق .

وبقيت سكة الحديد الوسيلة الوحيدة التي يمكن بواسطتها الخروج من روفنو . فاحاط رجال الدرك الألمان محطة قطار روفنو ، وشرعوا يعملون لتوطيد الأمن والنظام هناك . وكانت صالة الدرجة الأولى قد خصصت لكبار الضباط والجنرالات فقط . وتجلس هنالك في انتظار القطارات «أوانس» و «سيدات» أولئك اللصوص «الوجهاء» بحقائبهن المليئة الهائلة . أما الدرجتان الثانية والثالثة فقد كان يحتلها ذوو الرتب الأدنى ، لكن حقائبهم كانت مفرطة في الكبر كذلك . كان يمكن الوصول الى المحطة فقط بواسطة بطاقة دخول خاصة . كان شيفتشوك ومستطلعنا بودنيك يريدان دخول المحطة مهما كلفهما الأمر وأيا كانت الظروف بحقيبة صغيرة واحدة ، لكنها تزن كثيرا . وظهر شيفتشوك ذات مرة لدى مدخل المحطة فأوقفه دركي :

— بطاقة الدخول !

— لقد نسيت أين وضعتها ، — قال له شيفتشوك وهو يفلي جيوبه .

— اليك عن هذا المكان ! فلن تدخل من دون بطاقة .

كان بودنيك يقف جانباً وهو يراقب كل شيء عن كثب . فدنا منه شيفتشوك وقال له :

— لن نفلح في شيء بمثل هذه الحال ، لكن يمكن لنا ان نقع مصيدة ما . سنلجأ الى طريقة أخرى . أترى أن كثيرا من الضباط يقدمون الى المحطة راجلين ؟

فأجابه بودنيك :

— أرى ، وماذا تريد أن تقول ؟

— لا شيء ، هيا بنا ...

وقبيل المساء قدم شيفتشوك في عربة الى المحطة ، كان بودنيك بمثابة الحوذي . والألمان رجالا ونساء في الشارع المؤدي الى المحطة يمشون في رتل طويل وبخطى حثيثة وهم ينوؤون جميعا بعبء ما يحملون من الحقائب .

Twitter: @ketab_n

كانت العربة تتقدم متباطئة ، فأخذ شيفتشوك يتفحص أولئك المارة ببصره باحثا عن أحدهم «ليأخذه معه في طريقه الى المحطة بالعربة» . أخيرا وقع نظره على عقيد ألماني ينوء بحمل حقيبتين هائلتين وقد تصبب عرقاً . وضع الخقيبتين أرضاً، وتناول منديله ثم رفع عمرته عن رأسه وشرع يمسح وجهه المبلل بالعرق وصلعته . أوقف شيفتشوك العربة الى جانبه ، وعرض عليه ببسمة تنم بآيات البراءة :

– ايها السيد الضابط ! تفضل !

– تذهب الى المحطة ؟ شكرا ! – قال له العقيد وقد تفتحت أساريره .

فصرخ شيفتشوك في وجه «الحوذي» :

– ايه أنت ، هيا ، ساعده !

وثب «الحوذي» من على العربة ، ووضع حقيبتي الضابط عليها في يسر ، ثم أجلسه فيها موقرا اياه ، وجلس في مكانه من جديد ، وهس الجواد حثيثاً الى المحطة .

– شكران ، شكران ! – أخذ الضابط المعترف بالجميل يغمغم وهو يتنهد في ارتياح ظاهر ويمسح عرقه عن رأسه من جديد .

وما أن وصلت العربة الى المحطة حتى خف شيفتشوك وبودنيك الى حقيبتي الضابط قبل أن يتركا له مجالا للمبادرة وحملاهما مع حقيبتهما .

– لا تزعج نفسك أيها السيد الضابط ، فسوف نساعدك ، – وتوجها الى المدخل .

وتبعهما الضابط مسرعاً . فأوقفها الدركي :

– بطاقة الدخول !

فقال له العقيد :

– دعهما يدخلان، فهما معي.

ودخلا! دخل شيفتشوك وبودنيك الى صالة الدرجة الأولى وقد غص المكان بالألمان . واستطاعا بعد جهد جهيد أن يعثرا على مكان يتسع لحقيبتي العقيد . وعلى بعد صغير منهما وضع شيفتشوك حقيبته بين الامتعة الأخرى .

Twitter: @ketab_n

– وداعا ، أيها السيد الضابط ! رحلة سعيدة !
– شكران !
– لا شيء يستحق الشكر . ونحن نشكركم على ... كل شيء! – قال له شيفتشوك مبتسماً.

خرج شيفتشوك وبودنيك وقد «نسيا» حقيبتهما في المحطة . استقلا عربتهما وغادرا ذلك المكان . بعد ثلاث أو أربع ساعات كانا قد بلغا أحد البيوت من حيث كانت تبدو المحطة بينة بجلاء وأخذا يراقبان بانتباه .

لقد كان في تلك الحقيبة «المنسية» لغم ت. ن. ت. يزن ثلاثين كيلوغراماً ذو مفعول مؤقت .

حدث الانفجار في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. فتداعى جدار صالة الدرجة الأولى وانهار السقف فسحق تحته حوالي مئة من الضباط الالمان وسحقت معهم «أوانسهم» و«سيداتهم» وحقائبهم جميعا .

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد . ففي لحظة الانفجار وصل قطار عسكري الى المحطة ، وما أن توقف حتى أخذ الألمان يقفزون من عرباته ويهربون . لقد حسبوا أن الطيران السوفيتي يقصف تلك المحطة . وعندما رأى رجال الغستابو والدرك الذين كانوا يضربون نطاق حراسة حول المحطة كيف أن أولئك يركضون في شتى الانحاء حتى حسبوا بدورهم أنهم انصار فاطلقوا عليهم نيرانا حامية . وصلت الى المحطة وحدات أخرى فدخلت المعركة حالا ضد «المخربين السوفييت» . واستمر تبادل اطلاق النار نحو خمس وعشرين دقيقة تكبد «كلا الطرفين» فيها الخسائر طبعا .

وعند الصباح كانت الأحاديث على ألسنة الناس جميعاً في روفنو تدور حول نسف المحطة. ودب الذعر والبلبلة في صفوف الألمان . وعلى حين غرة دوى انفجار آخر في قلب المدينة في وضح النهار . ونسف مقر الادارة الالمانية وهكذا حدث انفجاران خلال أربع وعشرين ساعة !

كان ثمة في الطابق الأرضي من مقر ادارة الألمان مستودع خبأ فيه الضباط المناوبون كل ما استولوا عليه من

Twitter: @ketab_n

الناس الموقوفين . وكان الرجل السري كوزلوف يعمل هناك، قد سبق لشيفتشوك أن تعرف عليه قبل حدوث ذلك الانفجار بزمن طويل . ووضع كوزلوف بايعاز من شيفتشوك لغما ذا مفعول مؤقت الانفجار على الرف العلوي من المستودع . وقد انفجر اللغم في الوقت المناسب تماما .

بينما كان الغستابو يجوبون الشوارع بحثا عن المخربين الذين يزاولون أعمال النسف والتفجير كنا نهيىء مع جماعة نوفاك عمليات جديدة ونستطلع كل شيء.

عندما شعر الألمان أن لا مفر من التراجع فقد أخذوا يلغمون الجسور والطرق والدور الكبيرة في المدينة . وكان رجالنا المستطلعون يراقبون تلك الأعمال بعيون ساهرة ، ويحيطوننا علماً بكل الأماكن الملغومة وأبلغنا القيادة بدورنا عن ذلك كله . ثم انهم كانوا يرصدون حركات الطائرات التي تهبط في المطارات جميعا أو تقلع منها . وكشفوا لنا عن مواقع مستودعات الذخيرة وقنابل الطائرات عند الهتلريين ، وكذلك عن الطرق التي كانت تسلكها ارتال القوات المتقهقرة .

كان المستطلعون يتابعون نشاطهم الفعال في الكفاح ضد أولئك المحتلين.

عندما شعر شيفتشوك أن لا مجال بعد لأي تحضير للعملية أخذ يجوب شوارع روفنو برمانة مضادة للدرع، واستطاع ريفاس أن يصنع لها قميصا «دفاعياً» خاصاً من المسامير . فقد كان يسيج الرمانة بغطاء كثيفة من المسامير الكبيرة الغليظة ، وشدها بالسلك . ولقد نجر كل مسمار منها في مواضع كثيرة . فتتطاير زهاء مئة شظية عند انفجارها .

بينما كان شيفتشوك يمر بمطعم الألمان لاحظ أنه ثمة كثير من الضباط هناك . فلم يطل به التفكير حتى قذف الى داخله رمانة من النافذة، فصرع سبعة عشر هتلرياً في موضعهم.

كانت أجل أعمالنا الأخيرة شأنا في روفنو عمليتان تخريبيتان جعلتا الذعر والفوضى يسيطران على الألمان بصورة لا يحدها وصف .

Twitter: @ketab_n

كانت احدى تينك العمليتين نسف المطعم المركزي «الكازينو» . كان يحتل الطابق الأول من أجمل فنادق مدينة روفنو في شارع نيميتسكايا رقم ٤٩ . وكانت كل من ليزا وغالينا وايرينا الأوكرانيات يعملن كناسات في ذلك المطعم «الكازينو» . وكن جميعا على اتصال دائم بجماعة نوفاك وبأحد رجالنا المستطلعين . هيأ تيرينتي فيدوروفيتش نوفاك لغمين مؤقتين يزن كل منهما ستة أو سبعة كيلوغرامات وفي صباح الخامس من شهر كانون الثاني (يناير) حملت تلك العاملات اللغمين الى المطعم في دلاء مغطاة بالخرق لغسل أرض المطعم وتنظيفها . ثبتن اللغمين تحت طاولتين : أحدهما في غرفة الجنرالات ، والثاني في غرفة الضباط الكبار ، ثم قمن بعملية التنظيف والمسح كالعادة ، وبعدها اتجهن الى مكان معين لهن سلفا ، ومن هناك الى معسكرنا .

وقد انفجر اللغمان في وقت الغداء عندما كان المطعم حافلا بالألمان. انفجر أولا اللغم الموضوع في غرفة الجنرالات فانهار السقف وتداعى الجدار، فانسد المخرج من غرفة الضباط المجاورة، ولم يستطع الضباط الذين تناولوا الغداء هناك مغادرة هذه الغرفة. وبعد عشر دقائق انفجر اللغم الثاني.

أما الضباط الذين كانوا في الطوابق العلوية من الفندق فقد سيطر عليهم الذعر، وأخذوا يلقون بأنفسهم من النوافذ مباشرة فتتحطم أرجلهم وأيديهم أو تتكسر رؤوسهم. بينما كانوا ينتشلون الجثث من تحت الانقاض، احاط رجال الدرك جميع الشوارع والازقة المجاورة لمكان الانفجار. كما تبين لنا فيما بعد فقد قضي على سبعة أشخاص في غرفة الجنرالات كان من بينهم ثلاثة برتبة جنرال. أما في غرفة الضباط فقد قتل زهاء سبعين شخصا.

لقد حدث الانفجار في المطعم في الساعة الثالثة من بعد الظهر، وفي الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم ذاته نسف قطار كامل على سكة الحديد المارة في روفنو.

فقد وضعت جماعة نوفاك على تلك السكة لغماً يزن

Twitter: @ketab_n

ثلاثين كيلوغراما وصلوه بسلك مع القاطعة الكهربائية في معمل اللباد. وأخذ اعضاء المنظمة السرية يتناوبون الوقوف عند القاطعة الكهربائية في انتظار قطار هام جداً يقل المسؤولين من القيادة الألمانية. وقد استطاع الألمان ان يكتشفوا امر ذلك اللغم في آخر لحظة وبعد ان فاتت عليهم فرصة نزعه. فقد كان قطار الركوب يعدو بأقصى سرعته، وأخذ الجنود الذين يحفرون الخنادق الى جانبي سكة الحديد يعطون الاشارات، لكن سائق القطار لم يقف، فهو اما لم يفهم الاشارات أو انه لم يتمكن من كبح الفرامل في اللحظة المناسبة.

وكان نوفاك نفسه آنذاك يقوم بدور المناوبة. فوصل التيار الكهربائي في الوقت المناسب، وتوقف القطار كما لو أنه صلب في مكانه، ثم بدأت عرباته تتسلق واحدة فوق الأخرى ليهلك من فيها من الضباط والجنود الألمان الذين كانوا في طريقهم الى خط الجبهة.

هكذا كنا «نشيع» الضيوف غير المرغوبين.

الشوط الاخير

أذنت لنا القيادة في أواخر شهر كانون الأول (ديسمبر) بالتحرك الى مدينة لفوف. كان الجيش الأحمر يتابع هجومه في عزم وسرعة. وقد تم تحرير كل من جيتومير وبيلايا تسيركوف وراكيتنويه وكليسوفو وسارني. وكنا في معسكرنا نسمع أصوات طلقات المدفعية بوضوح وخاصة في الليل وفي الهزيع الأخير منه قبل انبلاج الفجر. وكانت السعادة تغمر الأنصار وهم يسمعون الى موسيقى المدافع.

لم يبق ثمة مجال للتريث في الأمر، فقد صار من المحتمل جدا أن نقع ضمن حلقة «الحصار» التي كان يقوم بها جيشنا. كان ينبغي علينا أن «نشيع» المحتلين الى الابعد. وفي أوائل شهر كانون الثاني (يناير) عاد المستطلعون الى المعسكر من روفنو وزدولبونوفو وجميع «المنارات» باستثناء بعضهم الذين كان عليهم أن يبقوا في أمكنتهم

Twitter: @ketab_n

الى أن يصل الجيش الأحمر. وقد عاد نوفاك كذلك الى المعسكر بقسم من رجال منظمته. وصارت كتيبتنا بعد أن تجمعت تعد ألفا ومائتي محارب.

أما فاليا دوفغير فقد بقيت في روفنو. فكان عليها وهي «العاملة» في مقر مفوضية الرايخ أن تجلو مع الألمان جميعاً عن روفنو الى لفوف. وكان قلق نيقولاي ايفانوفيتش عليها عظيماً. وفي المدة الأخيرة بدأ يشعر أثناء وجوده في روفنو أن ثقة «أصدقائه الودودين» فيه بدأت تضمحل.

وقال نيقولاي ايفانوفيتش:

– اذا بدأوا يشكون في أمري فانه لمن الطبيعي أن يحدق بفاليا خطر داهم عظيم. انها جد عزيزة علي. كم عشت واياها وكم عانينا معاً!

وتبين لنا فيما بعد أن قلقه لم يكن من العبث في شيء. فقد اعتقلها الغستابو في الليلة التي سبقت خروجهم الى لفوف.

وتأخرنا في الخروج الى مدينة لفوف لأنه لم يكن لدينا ثمة خرائط طوبوغرافية للطريق الجديد، ثم انه لم تكن لدينا التغذية الكافية للجهاز اللاسلكي والذخيرة للاسلحة السوفيتية.

وكيلا نجعل الوقت يضيع منا سدى فقد قررنا ارسال مجموعة مناورة الى مدينة لفوف لتجد في منطقتها مكانا نعسكر فيه، ولتهيىء لنا المنازل السرية في المدينة نفسها. ووقع اختيارنا على عشرين شخصا لتتألف منهم تلك المجموعة. كان من بينهم رجل يدعى باستوخوف عمل قبل الحرب مهندسا في مرافق لفوف العامة. وقد أوليناه مهمة دراسة الأنفاق تحت المدينة.

شد ما كانت اللاسلكية مارينا كيخ تود الذهاب الى لفوف، وقالت لي:

– انني أعرف لفوف معرفتي لأصابعي الخمس. لقد كنت أشتغل فيها، ولي هناك كثير من الاقرباء والأصدقاء. فلماذا لا ترسلونني مع المجموعة اليها؟

فأجبتها:

Twitter: @ketab_n

– تريثي قليلا، سوف تذهبين اليها مع الكتيبة، فنحن سوف نكون في أمس الحاجة اليك. فحري بك الآن ان تفكري جيداً مع أي من أصدقائك هناك يمكن للمستطلعين أن يجروا اتصالاتهم، واكتبي اليهم الرسائل منذ الآن.

وكتبت مارينا كيخ رسائل الى أختها وأصدقائها، ثم سلمت تلك الرسائل الى كروتيكوف قائد تلك المجموعة التي غادرتنا في ٥ كانون الثاني (يناير). وبالرغم من أنهم اصطحبوا معهم لاسلكيا فلم يصلنا منهم أي نبأ سواء في الأيام الأولى أم بعدها.

بدأ كوزنيتسوف يعاني وطأة البطالة التي اضطر اليها.

– دميتري نيكولايفيتش! انظر ماذا سيكون. الجيش الأحمر يتقدم بسرعة مما يضطر الألمان قريبا الى الجلاء عن لفوف كذلك. وقد يمكنني القيام بعمل ما قبل أن يتم جلاؤهم عن لفوف. ثم ان فاليا، على ما أعتقد، تنتظر هناك. دعوني اذهب لوحدي!

– أنت كما يبدو على حق يا نيقولاي ايفانوفيتش. فما من ضرورة نقضي بجرجرتك مع الكتيبة.

«واستعرنا» هذه المرة سيارة لكوزنيتسوف من مفوض المقاطعة الألماني لمدينة لوتسك. ولم نقدر أن نغير لها الدهان، فلم يكن لدينا وقت لذلك بل ولا دهان. وكيلا يكشفوا حقيقة تلك السيارة فقد شوهنا مظهرها حتى بدت عتيقة: فأفسدنا مظهرها ونزعنا اغطية العجلات. قام بهذه العملية السائق بيلوف الذي هرب بتلك السيارة من الكاراج بايعاز من ستروتينسكي.

قررنا ارسال كل من بيلوف ويان كامينسكي مع كوزنيتسوف، وذلك لمعرفتهما مدينة لفوف جيدا. وسافر كوزنيتسوف، بهويته القديمة التي تحمل اسم الملازم أول باول زيبرت. لكننا أضفنا اليها وثيقة صادرة عن القيادة الألمانية تسمح لكوزنيتسوف الذهاب الى لفوف، ثم كراكوف «لأسباب تتعلق بالخدمة». أما يان كامينسكي فقد ذهب في هيئة مضارب كبير هارب من قبضة الجيش الأحمر.

Twitter: @ketab_n

بينما جرت تلك الاستعدادات تحركنا جميعا بالكتيبة كلها في اتجاه لفوف. كان كوزنيتسوف لا يزال الى جانبنا آنذاك. كانت حركة الكتيبة بطيئة، فلم تتمكن سيارة كوزنيتسوف من أن تتحرك بسيرها الذاتي، وقد كانت تتجاوز الرتل حتى بسرعتها الاولى. وفضلا عن ذلك كان ازيز محركها كفيلا بأن يسترعي انتباه المنكلين واسماعهم. لهذا ربطنا السيارة الى جوادين قويين. وجلس بيلوف في مكان السائق، وأنا جلست الى جانبه، أما كوزنيتسوف وكامينسكي فقد جلسا الى الوراء. وقمنا بمناقشة مفصلة لخطة أعمالنا في لفوف رهن جدران تلك السيارة المغلقة .

كان علينا أن نعبر سكة حديد روفنو – لوتسك. وكان هذا لوحده أمراً شاقاً وعسيراً. فقد عمد الألمان الى تقويض كل المعابر تقريبا وسيجوها بالاسلاك الشائكة، وزرعوا المداخل اليها بالالغام. أما في تلك الأمكنة حيث أبقوا على وجود المعابر فقد انشأوا الاستحكامات الدفاعية. وقد جرب رجالنا من المستطلعين الخيالة عبور سكة الحديد من أماكن شتى، وفي كل مرة كانت تفاجئهم نيران الرشاشات. كانت الكتيبة كبيرة مما جعل عملية العبور تستغرق منها زمنا طويلا. ولم يكن ثمة معنى في دخول المعارك مع الوحدات الفاشية هناك، والتي كان بامكانها أن تطلب التعزيزات اليها وحتى القطار المدرع.

وبينما كنا نبحث عن طريقة تمكننا من العبور بالكتيبة نصبنا كمائن على طرق السيارات التي كانت تسلكها ارتال المشاة والارتال الآلية المتقهقرة للعدو.

لكن كوزنيتسوف قرر ألا ينتظر بعد، ولم أعترض على قراره. ومن كان يدري متى وكيف سيتسنى لنا عبور سكة الحديد!

وزحمتنا لحظة ذهاب كوزنيتسوف وأزف الوداع، فتوجه الي وقال:

– ايه، وداعا يا دميتري نيقولايفيتش!

تعانقنا وتبادلنا ثلاث قبلات على الطريقة الروسية. ثم ودع لوكين وستيخوف وستروتينسكي وباقي الرفاق

Twitter: @ketab_n

الآخرين. كانت تسيطر علينا جميعاً رغبة واحدة: أن يضم كل منا نيقولاي ايفانوفيتش الى صدره بعنف، وأن يقول له أعذب وأجمل كلمة.

لم يذهب كوزنيتسوف الى المعبر هادىء البال. كان يخامره الشك في انهم اشتبهوا فيه وربما لجأوا الى تفتيشه، فقرر أن يحتاط للأمر جيداً. ثم أوقف سيارته على مقربة من الطريق في غابة صغيرة وعلى بعد كيلومترين من المعبر، وساعده أنصارنا الذين شيعوه مودعين الى هناك في عملية تمويه تلك السيارة. ومكث كوزنيتسوف هنالك حتى الفجر، وآنذاك انضم الى قافلة السيارات الألمانية المتقهقرة، وعبر معها سكة الحديد. وكان هذا في ١٧ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٤٤.

وهكذا افترقنا مع كوزنيتسوف وكلنا ثقة في أننا سوف نلتقي بعد أسبوع او اسبوعين قرب مدينة لفوف من جديد. لكن شيئا من هذا لم يحدث أبدا. فبعد أربعة أيام علمنا بواسطة الساعي في لوتسك أن نيقولاي ايفانوفيتش وكامينسكي وبيلوف أمضوا في لوتسك يومين كاملين ثم توجهوا الى لفوف. ولم نتعرف على أسباب انتظاره الطويل في لوتسك. وعند خروجه من المدينة أوقفه مخفر ألماني عند عارضة سكة الحديد وأخذ يتحرى الهويات. لقد قام بعملية التحري رائد ألماني من الغستابو ومعه دركيان. فشعر كوزنيتسوف أن شيئا ما مبيتاً في الأمر. فما كان لينتظر أولئك حتى يفرغوا من عملية التحري وانما أطلق النار عليهم وأرداهم في ذلك المكان، ثم حطم العارضة وانطلقت به سيارته تسابق الريح. ثم بقيت زمنا طويلا دون أن أسمع شيئاً عن كوزنيتسوف بعد تلك الحادثة.

وفي ١٩ كانون الثاني (يناير) عقدنا العزم على عبور سكة الحديد مهما كلفنا الأمر. قد اكتشفنا لذلك مكاناً ضيقاً بين معبرين حيث توجد حفر غير عميقة يسهل عبورها.

تقدمت الكتيبة مجموعتين كبيرتين قتاليتين عن يمين مكان العبور المحدد وعن يساره. واصدرنا اوامرنا لكل منهما بأنه في حالة وصول القطار المدرع كان يجب عليها

Twitter: @ketab_n

ان تنسفه وتشتبك مع الالمان في قتال يستمر الى ان نخبرهما ان الكتيبة بكاملها قد عبرت سكة الحديد.

استغرقت عملية العبور ساعة ونصف الساعة، بل ربما واكثر من هذا، فلم يعترض طريق الكتيبة أحد، ولم تطلق رصاصة واحدة.

هكذا تم عبور سكة الحديد في ١٩ كانون الثاني (يناير)، وفي العشرين من الشهر نفسه بدأت المعارك. وكانت الطريق تمتد أمامنا طويلا الى مسافة مائتي كيلومتر. وكنا نفاجأ بالكمائن الكبيرة بين كل خطوة وأخرى.

كنا نواصل السير ليلا دون كلل فنصطدم بكمائن الألمان ونشتبك معهم في المعارك، ثم نتوقف في النهار لنتناول قسطا من الراحة، لكن الاشتباكات لم تكن لتتوقف. وقد نظمنا خطة على المنوال الآتي: كانت وحدة صغيرة من الكتيبة تقاتل الألمان بينما ترتاح الوحدة الثانية وتقوم بتحضير الغداء. وكان فلاديمير ستيبانوفيتش ستروتينسكي لا يمكن أن يستغنى عنه حتى اثناء عمليات السير. فبالرغم من الخطر الدائم المحدق كان ستروتينسكي كنائب قائد سرية التموين لم يأل جهداً في تأمين الطعام دائماً للمحاربين وفي ابداء عناية فائقة بالجرحى.

لقد استولينا على جميع القرى تقريبا بالمعارك. وأصدرت الأمر التالي: اذا ما شوهد في احدى القرى أو المزارع خفراء العدو ، أو بعض المجموعات المسلحة فينبغي قبل دخول تلك القرية اطلاق النار عليها من المدافع والهاونات. وقد ساعدنا هذا الأمر كثيراً. فبعد خمس عشرة طلقة كانت سرية الفرسان تنطلق بصيحة «هورا» وسرعان ما تدخل الكتيبة بعدها تلك القرية المطهرة.

لكنه كان يحدث أحيانا على غير غرار ذلك ، ندخل القرية فنجدها خالية من كل ما هب ودب، حتى البيوت خالية من أثاثها. أين ذهب كل ما فيها؟ أيعقل أن يكون الألمان قد ساقوا أهالي القرية وكل ما يملكون الى ألمانيا؟

وجاءنا بالجواب على هذين السؤالين كوليا

Twitter: @ketab_n

ستروتينسكي وشيفتشوك وفاليا سيميونوف ونوفاك.
لقد عثروا في غرفة المؤونة لأحد البيوت على حفرة أحكم سدها ببرميل فارغ. أزاحوا ذلك البرميل، ودخل سيميونوف في وكر عميق ومعه قنديل. وفجأة سمع صوت طلقة تحت الأرض، فانسل سيميونوف عائدا. وصاح رفاقنا: «اخرجوا طوعا!» وما من جواب.
وكنا في احدى المعارك قد استولينا على بعض قنابل الدخان من الألمان، وكنا نحملها دون أن نعرف ماذا عسانا سنصنع بها. وآنذاك قرر رفاقنا تجربتها، فألقوا احداها في ذلك الوكر. وبعد دقائق معدودة سمعوا صوتاً منبعثاً من الأعماق: «نستسلم!» وبزغت بندقية من الوكر تبعتها سحنة سوداء من هباب الدخان لأحد أفراد العصابات. ثم تبعه ثان، وعلمنا منهما أين اختفى الناس وأملاكهم جميعا.
كان الغستابو قد أصدر أمره الى الأهلين جميعاً ليقوموا بحفر ما يسمى «بالخزائن» تحت البيوت وذلك لاخفاء الحبوب والمواشي وكل الممتلكات ثم ليختبئوا فيها عن أعين البلاشفة حينما يقدمون. وكان الموت عقاب كل من يخالف ذلك الأمر. وتحرينا مدى صدق ذلك القول وبالفعل وجدنا تحت البيوت الكثيرة هذه «الخزائن» – طوابق ارضية كاملة نصبت فيها السرر، وخزنت فيها الحبوب والأمتعة وكذلك الابقار والخيول والخنازير والطيور. وكانت المياه متوفرة في كل منها ويكفي احتياطيها لأيام كثيرة. وما أن رأى أولئك اناسا سوفيتيين حتى صاروا يخرجون من «خزائنهم» بسرور.
ثم خاضت كتيبتنا كثيراً من المعارك خاصة عندما كنا نجتاز تخوم غاليتسيا حيث كان الألمان يقيمون عليها حراسة مشددة . وكانت الطريق ذاتها وعرة وشاقة . فقد بدأت سلسلة جبال الكاربات ، وصرنا تارة نعلو متسلقين جبالها المكسوة بالغابات ، وتارة نهبط . وكنا نضطر الى جر المدافع والعربات المحمولة بالذخائر والجرحى بايدينا . وكان الثلج ما أن يسقط حتى يبدأ بالذوبان مكونا طبقة كثيفة من الطين والأوحال مما يشق التخويض فيه . وكانت

Twitter: @ketab_n

تعترض طريقنا أنهار كذلك ، فصرنا نلجأ الى انشاء الجسور والعبارات عليها تحت صبيب نيران العدو .

وعلى أية حال كنا قد أصبحنا على مسافة ستين كيلومترا من مدينة لفوف .

هدوء مخادع

دنونا من قرية نيفيتسا فأبلغنا المستطلعون أنه ليس ثمة وجود للمخافر فيها . لقد أدهشني هذا الأمر : فقد كنا نصطدم بالألمان في كل مكان نحل فيه ، وها هو ذا الهدوء يرين على هذا المكان !

وبالفعل، فقد دخلنا القرية وكل شيء فيها يسوده هدوء مطبق . فبدأنا نوزع أفراد الكتيبة على بيوتها، واستقرت القيادة في طرف القرية في بيت من الطين . دخلت ذلك البيت ، وسلمت على ربه الفلاح الطاعن في السن وعلى زوجته ، ثم وقع نظري على مكبر صوت مثبت على الحائط فسألت :

— أيشتغل ؟

— أجل ، وعندنا كذلك الكنيسة والمدرسة تجري فيهما الأعمال على قدم وساق .

— هل يوجد هنا أحد من الألمان ؟

— كلا ، لا أحد منهم هنا الآن .

— ايه ، وكيف أحوالكم ؟

— لا بأس ، نعيش .

— هل يترددون غالبا على هذه القرية ؟

— يترددون .

— غالبا؟

— يقدمون ثلاثة أو أربعة . انهم يأخذون الاخشاب من الغابة .

أوكلت الى لوكين ارسال المستطلعين في أرجاء تلك القرية ليتعرفوا جيداً على كل شيء. وبعد ساعة واحدة عاد

Twitter: @ketab_n

المستطلعون وأخبرونا بأن الهدوء يسود كل أنحائها . ثم دعوت ايرمولين قائد السرية الأولى وقلت له :

– الهدوء هدوء ، لكن انصب مخافر أخرى اضافية على أية حال .

كان التعب قد أضنى الانصار فغطوا جميعاً في سبات عميق .لكن النوم لم يجد الى عيني سبيلا . كنت لا أزال أعاني من المرض الذي انتابني منذ أكثر من شهر . ولم أكن أغادر العربة في الايام الأخيرة : كنت استلقي في فراش ملتحفا ببطانية الريش ، والسعاة دائما الى جانبي . وها هو ذا المرض الآن كذلك يحول بيني وبين النوم . قبيل الصباح ، عندما كان لا يزال الظلام مخيما على كلّ شيء قررت أن أخرج في دورية تفتيشية على المخافر . وألقيت المعطف على كاهلي بلأي شديد ، ثم لبست قبعتي ووضعت مسدسا في جيبي ، ورحت أخطو عبر الرفاق النائمين متوكئا على الجدار . وخرجت ، فقابلني الخفير المناوب بالقرب من القيادة بالتحية .

عثرت على باب صغير في السياج الكثيف فنفذت منه مباشرة الى بستان ينتهي بحقل مكشوف . وهناك لمحت اشباح مبهمة سوداء قائمة على خط الأفق الشاحب . فحسبت أن قائد السرية الأولى يوزع حسب التعليمات الأخيرة المخافر . لكنني ، وفي تلك اللحظة ذاتها ، أيقنت أن الأمر ليس من هذا الشيء . وأمعنت النظر ، فاذا بهم يتقدمون بشكل سلسلة ، لا في مجموعة واحدة . قعدت على الأرض علني أتبين حقيقة تلك الأشباح . أجل ، كانوا في سلسلة ، تفصل واحدهم عن الآخر مسافة ما أخذت تزداد كلما ازدادوا اقتراباً مني .

ومضت دقيقة واحدة فصاروا على مسافة جد ضئيلة مني . لقد حال الظلام فبلا بيني وبين تحديد البعد بالضبط . أيعقل أن يكون الأعداء ؟ نهضت وصحت:

– من هناك ؟

صمت مطبق. لكنني رأيت كيف أنهم أخذوا يلتفون حولي من الجانبين .

Twitter: @ketab_n

فصحت مرة أخرى :
– من هناك؟
– وأنت من ؟
– أنا القائد ، العميد .
– هيا الي !
هيه ، طالما يقول للقائد «هيا الي !» فقد اتضح كل شيء : انهم أفراد العصابات . تناولت مسدسي وهممت باطلاق النار لكنهم تداركوا ذلك برشة من الرشيش سددت الي ، ثم بأخرى . وسمعت ايعازا بالألمانية . فأطلقت مرتين وسقط شخص .
وفتح رفاقنا نيرانهم على العدو . كان هذا حسنا بحد ذاته ، لكنني وقعت «بين نارين» . فقد كنت على بعد خمسة أمتار من الأعداء وعلى بعد عشرين مترا من الرفاق . وكلا الطرفين فتحا النيران . الرصاص يئز في الهواء الى جانبي ، وقد نفذت احدى الرصاصات من قبعتي . انبطحت على الأرض وصرت أفكر: «اما حاولت أن أتسلل الى الرفاق فسوف يدرك الأعداء أنني لا أزال على قيد الحياة ، وسيوجهون علي النيران . ثم ان الرفاق أنفسهم سوف يستقبلونني بالنيران عندما يلمحون شخصا ما يزحف اليهم . وما العمل ؟»
وشعرت فجأة أن يدا تجر قدمي . نظرت فاذا به انسان في خوذة ألمانية يريد أن يغنم حذائي المبطن بالفرو . لقد كان يحسبني ميتاً بالفعل ، وسرعان ما أطلقت عليه النار .
كان معدل اطلاق النار عال جداً . واصابت احدى الرصاصات المتفجرة ياقة معطفي . فصرخت بأعلى صوتي :
– أوقفوا النار !
لكنه كان من المستحيل أن يعلو صوتي على أصوات الرشاشات ،فلم يسمعني أحد . وصرخت ثانية :
– أوقفوا النار ! هذا أنا ، ميدفيديف !
– سمعوني ! وتداول الرفاق من الايعاز من واحد لآخر: «أوقفوا النار ... أوقفوا النار... هناك العميد» .

Twitter: @ketab_n

وتحت وابل رصاص الاعداء زحفت الى الرفاق ، وهناك بالقرب من السياج أخذوني ، لكنني لم أكن في حاجة الى الغوث : فقد جعلتني تلك اللحظات من التوتر الشديد أنسى المرض ، وصرت أتابع توجيه الأوامر .

تسلل شيفتشوك وستروتينسكي ونوفاك وغنيديوك خلف سلسلة العدو بمجموعة من انصار فصيلة الحراسة، وأخذوا يطلقون النار من مسافة قصيرة جدا . وأخذ كوليا الصغير الذي توارى عند الحاجز يوزع رشات قصيرة على الاعداء الذين بدأوا يلوذون بالفرار .

كان البيت الذي يقوم فيه تسيسارسكي برجاله العاملين في الخدمة الطبية يقع الى يمين القيادة وقد انتحى كثيرا جانب الحقل المكشوف . وقد أتيح لبعض أفراد العصابات أن ينفذوا اليه عند بدء المعركة . وقبل أن يطلق تسيسارسكي النار من مسدسه فجر أولئك رمانتين في الغرفة واحدة تلو الأخرى ، فأصيب تسيارسكي بجروح خطيرة ، وجرح كذلك طبيبان آخران وممرضتان . وعندما سمع تسيسارسكي ايعاز الأعداء صرخ ملء حنجرته:

– يا رفاق ، لقد حاصرونا ! الى الغابة !

وفهم أفراد العصابات هذا بمثابة ايعاز، فسرعان ما لاذوا بالفرار .

وبعد أربعين دقيقة عاد الهدوء من جديد ليرين على تلك القرية . واستمر القتال على بعد كيلومترين منها وقد أخذ رفاقنا يطاردون فلول العصابات التي خلفت وراءها في أرض المعركة ما يربو على ثلاثين قتيلا .

وقد تميزت فيما بعد اثني عشر ثقبا في معطفي واثنين في قبعتي ، بينما لم أصب أنا بخمش واحد .

– اليوم يوم ميلادك الثاني ، – قال لي كوليا ستروتينسكي وهو يحصي الثقوب في كل من المعطف والقبعة .

ذهبت الى قسم الاسعاف وأنا أجر ساقي بلأي شديد ، وقد قام الاطباء الآخرين بتضميد المجروح تسيسارسكي

Twitter: @ketab_n

ومساعديه . وكان طبيب الاسنان مغطى بالضمادات من قمة رأسه حتى قدميه . لقد مزقت جلده شظايا تينك الرمانتين .

دنا مني سوخنكو وقال :

أيها الرفيق القائد، ان داربيك عبدالرحيموف يريد مقابلتك .

– أين هو ؟

– في البيت المجاور . لقد أصيب بجروح بالغة .

ذهبت الى داربيك، فما أن لمحني بالباب حتى قال لي:

– ايها الرفيق القائد، أنت حي؟ أما بك من اصابة .

– حي، وليس بي أي شيء .

– حسنا ...

افتر ثغره عن ابتسامة ، ثم مد لي يده وشد على يدي . وتبين أنه كان أول من سمع صيحتي عندما كنت في النيران المتقاطعة ، فاقتحم المسافة الي غير ان الرشة حصدته . فسألته :

– وكيف حالك ؟

– سيئة للغاية ، أيها الرفيق القائد .

– ايه ، ما هذا يا داربيك ! فنحن لا بد سوف نأكل «شوربتك على الطريقة القازاخية» .

لم ينبس بكلمة ، بل اكتفى بابتسامة .

وبعد ساعات وجيزة توفي.

لقد كنا نتوقع هجوما ثانيا، وقررنا أن نحتاط للأمر. واستقلت العربة، وطفت حول القرية لأوزع الارشادات على الرفاق جميعا . ولم يعد في ذلك البيت حيث استقرت القيادة أحد من ذويه . فقلت:

– ها لكم القرية «هادئة»!

وتعرف لوكين على كل شيء ، فقد تبين لنا اننا نزلنا في ضيافة مختار خائن . وقد استطاع أن يخبر الفاشيين عن وجودنا .

وسرعان ما بدأت قوات العدو هجوما . فظهرت

Twitter: @ketab_n

السيارات المصفحة والدبابات الخفيفة . وبدأت الرشاشات كبيرة العيار والمدافع ثم مدافع الهاون فعلها.

ومنذ أولى لحظات القتال شبت الحرائق في البيوت الواقعة في طرف القرية . لقد هجم علينا الألمان من الغرب من تلك الجهة التي كنا نسير نحوها . لكنهم لم يعزموا على دخول القرية .

كانت الذخيرة قليلة لدينا . فقررنا مغادرة المكان مع زحف الظلام. وعمدنا في نزوحنا الى الحيلة : فقد انسحبت الكتيبة أولا مبقية على احدى السرايا في القرية لتتبادل النيران مع العدو . ثم انسحبت السرية مبقية على الفصيلة التي غادرت بدورها تلك القرية فيما بعد وقد تركت الالمان يستمرون باطلاق النار على اماكن مقفرة من الأنصار .

وعند أول محطة للراحة توقفت فيها الكتيبة بعد تلك المعركة حملت الي ليدا شيرستنيفا برقية لاسلكية كانت تتضمن أمرا من القيادة يقضي بأن أقود الكتيبة الى أقرب مؤخرة للجيش الأحمر . وقد كانت أقرب المؤخرة حسب معلوماتنا تقع في أماكن معروفة لنا جيدا ، وبالتحديد ، في ذلك المكان حيث عبرنا سكة حديد روفنو – لوتسك . وهكذا عدنا بالكتيبة أدراجنا على الطريق ذاتها التي سلكناها الى قرية نيفيتسا .

وفي صباح اليوم الخامس من شباط (فبراير) التقينا بموقع وحدات الفرسان التابعة للجيش الأحمر على مسافة تقدر بثلاثمائة متر من خط حديد روفنو – لوتسك . لكن هذا لم يكن خط الجبهة بعد . لقد كانت وحدات جيشنا الامامية خفيفة الحركة التي اخترقت الى مؤخرة العدو لتقطع عليه طرق الانسحاب . وكانت قد تمركزت الى جانبي الطريق المعبدة التي سوف تمر عليها قافلة الالمان الآلية الكبيرة عند تراجعها . تقدم الالمان الى الطريق المعبدة ، فاصطدموا بقوة وحدات الجيش الأحمر ، ثم مروا بوحداتنا واتجهوا الى القرية التي كانت تعسكر فيها كتيبتنا لترتاح بعض الوقت . ولدى انفجار القذائف

Twitter: @ketab_n

والالغام اتت النيران على تلك القرية، وانسحبت كتيبتنا الى الغابة ، وانبطحنا وفتحنا عليهم النيران .

فتنحى الألمان جانباً بعيداً مبقين على القافلة .

تكبدنا في تلك المعركة ثمانية قتلى وكانت معركتنا الأخيرة . وفي مساء ذلك اليوم ، الخامس من شباط (فبراير) ، عبرنا سكة الحديد فوجدنا أنفسنا على أرضنا الغالية المحررة .

وفي أواخر شهر شباط (فبراير) نقلتني سيارة الاسعاف الى موسكو ، كان في صحبتي كوليا الصغير والجرحى ، ومن بينهم ألبرت فينيامينوفيتش تسيسارسكي . وبقيت الكتيبة تحت امرة سيرجي تروفيموفيتش ستيخوف.

رسالة كوزنيتسوف

... كنت أستلقى على سريري في أحد مستشفيات موسكو . وقد تغمدني الصمت والهدوء بعد حياة حافلة بالنضال والأخطار . فلست أسمع أزيز الرصاص ، ولا أرى أحداً الا بعض الأطباء والممرضات الذين يعودونني من وقت لآخر . وبدأت أشعر بالسأم . اكتنفني جو غريب لا عهد لي به . وكان عزائي الوحيد في عيشي الجديد قراءة الصحف الجديدة كل يوم ، وسماع المذياع دون أن ينتابني الخوف من نقص التغذية للجهاز اللاسلكي . كنت أقضي أياما كاملة استعيد في ذاكرتي كل تفاصيل حياتنا هناك ، في مؤخرة العدو . والغريب أنني كنت أشعر هناك دائما بأن كل ما كنا نقوم به أيام الكفاح كان يبدو لي مفتقرا الى شيء ما ويعوزه الكمال . أما الآن وأنا اضع تقريراً للقيادة بفكري فان كل ما قمنا به يبدو لي عظيماً.

لقد حصلنا للقيادة على معلومات جمة في غاية الخطورة: عن الأعمال على سكك الحديد ، عن تنقلات العدو وقياداته ، عن تحركات قواته ومعداته ، عن تدابير سلطات المحتلين ، وعن الاوضاع السائدة في المناطق التي احتلها العدو لفترة ما من الزمن . واستطعنا أن نقضي على ما

Twitter: @ketab_n

يقرب من اثني عشر ألف من الأعداء ما بين جندي وضابط في المعارك والاشتباكات . وكانت خسائرنا لا تذكر بالنسبة لما تكبده العدو: فقد فقدنا خلال تلك المعارك جميعا مائة وعشرة قتلى ، وجرح مائتان وثلاثون شخصا . ولقد قمنا في منطقتنا هناك بتنظيم المقاومة النشيطة للسوفيتيين ضد الهتلريين ، ونسفنا القطارات والجسور، وشللنا استثمارات الفاشيين ، ودمرنا مؤسساتهم ومستودعاتهم وحطمنا واتلفنا سياراتهم، ومرغنا بالرغام أكبر أنوفهم .

وفي أغلب الأحيان من كل يوم تطوف في مخيلتي صورة نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف .أين هو الآن يا ترى ؟ وماذا يعمل ؟ وهل حظي بمقابلة فاليا ؟

وذات مرة بلغني عنه نبأ صغير.

كنت أستلقي والسماعة على أذني أسمع نشرة الأنباء بواسطة المذياع . وفي الساعة الحادية عشر والدقيقة الخمسين تماماً سمعت فجأة :

«ستوكهولم . في نبأ نشرته صحيفة «أفتينبلاديت» أنه تم قتل نائب محافظ غاليتسيا الألماني الدكتور باور ، وصاحب المنصب السامي شنايدر في شارع لفوف وفي وضح النهار على يد شخص مجهول الهوية كان يرتدي بدلة ألمانية . هذا وان السلطات لم تتمكن من القاء القبض على الشخص القاتل ».

وقفزت في فراشي ، وأردت النهوض لكن الألم أقعدني . ومددت يدي ، وضغطت على زر الجرس بجانبي .

كان عملي لا معنى له البتة : ولست في حاجة الى دعوة أحد .

دخلت علي الممرضة . فقلت لها :

— اعطيني من فضلك بيراميدون .

— سأحضره لك حالا .

ولمن سوف أحكي !

وهكذا ، فانهم لم «يلقوا القبض» على كوزنيتسوف . أجل ، بالطبع ، انه نفسه الذي قام بذلك العمل . فقد

Twitter: @ketab_n

تحدثت واياه عن ذلك عندما كنا لا نزال في السيارة التي كان يجرها جوادان . لكنني بعد ستة أشهر من ذلك عرفت كل شيء مفصلا عن حياة كوزنيتسوف في لفوف .

ثم عثر على المستطلعين كروتيكوف ودروزدوف وباستوخوف الذين كنت ارسلتهم الى لفوف مع الجماعة المناورة خفيفة الحركة . وكنا نحسب أنهم أصبحوا جميعاً في عداد الأموات . لكن هذا لم يكن صحيحاً.

فقد وقعت تلك المجموعة على كمين عند تخوم غاليتسيا . كان تعدادها عشرين شخصا قتل منهم سبعة وجرح قائدها كروتيكوف نفسه. وكان عاملهم اللاسلكي أحد القتلى ، ولذلك فلم يتسن لنا الاتصال بتلك المجموعة فيما بعد . ثم اشتبك الباقون في معركة أخرى في طريقهم الى لفوف ، وضل عن المجموعة كل من دروزدوف والنصير بريستوبا ، استطاع الباقون بعد ذلك بطريقة من الطرق أن يبلغوا أهدافهم .

وشرع المستطلعان باستوخوف وكوبيلياتسكي اللذان كانا ذوي علم مبين بالمدينة نشاطهما . فقد قاما بالاستطلاع في محطة قطار لفوف وفي مدينة لفوف نفسها واستطلعا يوميا الانفاق تحت المدينة . وفي عشرين تموز (يوليو) عام ١٩٤٤ عندما اقترب الجيش الأحمر من لفوف خرج باستوخوف وكوبيلياتسكي من المدينة عن طريق الأنفاق تحت الأرض ، وتقدما الى فصيلة الاستطلاع التابعة للجيش ٣٨ من الجيش الأحمر بمخطط لمدينة لفوف بكل المعلومات المسجلة فيه: اماكن مرور خط الاستحكامات الالمانية، وحقول الالغام ، ومواقع بطاريات المدفعية والهاونات، ومكان تمركز القوات ، والاشارة الى كل البيوت الملغومة . ثم أرشد ذانك المستطلعان ، باستوخوف وكوبيلياتسكي ، مجموعة كبيرة من مقاتلي الجيش الأحمر عبر هذه الانفاق والتفافا حول حقول الالغام الى مركز المدينة. وأخذت هذه المجموعة تنزل ضرباتها في مؤخرة الفاشيين . وساهم كل من باستوخوف وكوبيلياتسكي في تلك المعركة .

أما دروزدوف وبريستوبا اللذان كانا قد انفصلا عن

Twitter: @ketab_n

مجموعة كروتيكوف خطأ فقط نظما فصيلة جديدة من الأنصار من السكان المحليين . ثم أتيح لكل من باستوخوف ودروزدوف أن يرى كوزنيتسوف : لقد رآه الأول عندما كان لا يزال في مدينة لفوف ، ورآه الثاني بعد ذلك في احدى الغابات . واليكم ما تحدث به الاثنان.

علم نيقولاي ايفانوفيتش أن باور نائب المحافظ لغاليتسيا سوف يدعو ممثلي السلطة الألمانية الكبار الى اجتماع في مسرح المدينة . وأتيح لكوزنيتسوف أن يدخل القاعة أثناء سير الاجتماع . فأمعن النظر الى باور الذي كان يجلس في رئاسة الاجتماع ، ثم خرج من قاعة الاجتماع وانتظر على مقربة من المسرح . وانتهى الاجتماع فأخذ الألمان يخرجون واحداً تلو الآخر . وخرج باور مع أمين سره واستقل سيارته وانصرف ، ولحق به كوزنيتسوف في سيارته حتى تعرف على منزله .

وفي اليوم التالي «تعطلت» سيارة كوزنيتسوف فجأة عندما كانت في شارع ايفان فرانكو أمام منزل باور بالذات. وخرج منها بيلوف وشرع يعبث بمحركها، ونزل منها كوزنيتسوف كذلك وأخذ يشتم سائقه ويعنفه بالألمانية :

– دائما تتعطل معك السيارة ! يا مهمل ، فأنت لا تعتني بها كما يجب ، واتأخر عن الموعد بسبب اهمالك هذا ...

وبينما كان كوزنيتسوف مسترسلا في تعنيفه للسائق كان يلتفت بين الفينة والفينة الى جانب الشارع الآخر حيث كانت سيارة رشيقة تقف أمام الفيللا الجميلة .

وفي تمام الساعة العاشرة صباحاً خرج من الفيللا رجلان ، وتوجها حالا الى السيارة . فقفز السائق منها وأسرع ليفتح الباب في خشوع . لكن كوزنيتسوف صار في تلك اللحظة الى جانب السيارة . فقال متوجها بالسؤال الى أحدهم :

– أنت الدكتور باور ؟

– أجل ، أنا باور .

– اياك أبغي بالذات .

Twitter: @ketab_n

وأطلق عدة طلقات على الدكتور باور وعلى أمين سره ، فأردى الاثنين قتيلين حالا . بينما خف الى سيارته ، فتح كامينسكي وبيلوف النار على الخفير المناوب لدى مدخل الفيللا .

افاد كوزنيتسوف ، على ما يبدو ، من تجربته مع دارغيل ، فقرر أن يسأل باور عن نفسه لكي لا يرتكب خطأ.

انطلقت السيارة بالثلاثة في سرعة جنونية في شوارع لفوف ثم خرجت الى مشارف المدينة . وأوقفها رجال الدرك على بعد عشرين كيلومتراً من المدينة بالقرب من قرية كوروفتسي . ودقق رائد من الغستابو النظر طويلا في هوية كوزنيتسوف وفي وجهي رفيقيه ، وطلب اوراقاً اضافية اخرى . ففطن نيقولاي ايفانوفيتش الى انه لا يمكن ان يرجو خيراً في الأمر، فسرعان ما اطلق النار من الرشيش من السيارة عبر الباب المفتوح صرعت كلا من الرائد ورجال الدرك الاربعة الآخرين .

ظهر المطاردون على الطريق من الوراء . فداس بيلوف على سرعة : ١٠٠ ، ١١٠ ، ١٢٠ كيلومترا ... ولسوء الحظ كان البنزين قد انتهى الى آخر قدر منه . فقفز الثلاثة من السيارة وهرعوا جميعا الى غابة غانوفيتشي . وهناك ، وبعد ثلاثة أيام من الضياع في مجاهل تلك الغابة التقوا بفصيلة دروزدوف . لكنه لم يكن لدى دروزدوف جهاز لاسلكي ، فخرج كوزنيتسوف وهو لا يزال في هيئته الألمانية مع رفيقيه الاثنين الى خط الجبهة ليصلوا الى مؤخرة الجيش الأحمر .

لم يعرف أحد من باستوخوف أو دروزدوف أي شيء آخر عن كوزنيتسوف . ومر بعد ذلك زمن طويل .

ثم عثر على آخر المعلومات عن مصيره في أوراق غستابو لفوف . فلدى تفتيش وثائق الغستابو التي تم الاستيلاء عليها عثر على نسخة لبرقية مستعجلة مرسلة الى برلين جاء فيها :

«في ٢ آذار (مارس) ١٩٤٤ ألقت فصيلة درك القبض

Twitter: @ketab_n

على ثلاثة من المظليين السوفييت في احدى الغابات . وتبين أنهم كانوا يحملون هويات ألمانية مزورة وخرائط وصحفا ألمانية وأوكرانية وبولونية . ومن بين تلك الصحف كانت «صحيفة لفوف» التي تحوي رثاء عن مصرع كل من الدكتور باور والدكتور شنايدر . وعثر كذلك لدى أحدهم على تقرير عن عمله . واكتشفنا حقيقة ذلك العميل (كان يسمى في هويته الألمانية باول زيبرت) ، وأعني به النصير السوفيتي والمستطلع والمخرب الذي كان يقوم بجرائمه في روفنو وقتا طويلا دون ان يناله عقاب . فقتل الدكتور فونك واختطف الجنرال ايلغين . وقد كان «زيبرت» يعقد نيته لقتل المحافظ الدكتور فيختر في لفوف لكنه لم يفلح في هذا بل قتل عوضا عنه كلا من نائب المحافظ الدكتور باور وأمين سره الدكتور شنايدر . وقد لقى مصرعهما معاً على مقربة من منزلهما . وفي تقرير «زيبرت» عثرنا على سرد لأدق التفاصيل عن جرائم القتل .

لم يقتصر «زيبرت» على قتل باور وشنايدر في لفوف ، وانما قام بقتل كثيرين غيرهما ومن بينهم كاتير الرائد في الشرطة العسكرية الذي كنا قد بحثنا عنه طويلا .

وفي التقرير أيضا تفاصيل دقيقة عن مكان وزمان أعمال القتل تلك وعن الجرحى ، وعن الذخيرة التي استولوا عليها، الخ . وكلها تبدو صحيحة لا مغالطة فيها . وقد جاءنا من مجموعة بريتسمان أنه تم تنفيذ حكم الاعدام رميا بالرصاص بكل من «باول زيبرت» والنصيرين الآخرين » .

وهكذا لقي حتفه نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف رفيقنا في السلاح الذي قام بسلسلة من الأعمال البطولية التي لم يسمع بمثلها قط من قبل والخاصة بالقضاء على ممثلي سلطات المحتلين وبث الذعر في صفوف أعداء وطننا الحبيب.

ولما تأكدنا من مصرع كوزنيتسوف فضضت وبعض الرفاق غلاف رسالته . واليكم ما كتبه كوزنيتسوف:

«تفتح بعد موتي. كوزنيتسوف.

٢٤ تموز (يوليو) ١٩٤٣. غداً سوف أتم الشهر الحادي عشر

Twitter: @ketab_n

لوجودي في مؤخرة العدو. في ٢٥ آب (اغسطس) ١٩٤٢ وفي الساعة ٢٤ والدقيقة ٥ هبطت بالمظلة لاثار دون رحمة بالعدو لدماء ودموع أمهاتنا واخواننا الذين يئنون تحت نير المحتلين الألمان.

لقد قمت بدراسة لشؤون العدو خلال أحد عشر شهراً متنكراً في هيئة ضابط ألماني، ونفذت الى صميم أسرار طاغية أوكرانيا الالماني ايريخ كوخ.

والآن أنتقل الى الأعمال مباشرة.

انني أحب الحياة، شغوف بها، ولم أزل يافعاً في مقتبل الشباب. لكنه اذا دعا داعي الواجب للتضحية بالحياة من أجل الوطن الذي أحبه حبي لأمي التي ولدتني فلن أتردد في ذلك مطلقاً. فليعلم الفاشي أي طاقات كامنة في المواطن الروسي البلشفي. فليعلم أولئك أن شعبنا لا يقهر كما أن الشمس لا تنطفيء.

فلأمت أنا، لكن الشهداء لا يموتون بل سيبقون في ذاكرة شعبي خالدين الى الأبد.

«دع انك ميتا!.. لكنك ستبقى مثالا حياً يرن دائماً في أغنيات البواسل الأقوياء، ستبقى نداء أبياً الى الحرية، الى النور!»

ان هذا أحب انتاج لغوركي الى نفسي. فليقراه شبابنا، وليكثروا من قراءته...

المخلص كوزنيتسوف»

وصدر مرسوم عن هيئة رئاسة مجلس السوفيت الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٤ يقضي بمنح نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف لقب بطل الاتحاد السوفيتي بعد موته .

الخاتمة

— أصحيح أننا نحن أولئك ؟ ..

هكذا هتف لوكين في ذهول منذ مدة قريبة عندما جاءني الى منزلي في موسكو ، ومعه كل من فرولوف

Twitter: @ketab_n

وتسيسارسكي وقد أخذنا نستعيد ذكريات حياتنا الأنصارية السابقة .

وفعلا ، أصحيح أننا نحن أولئك ، نحن الذين نجلس الآن في ملابسنا المدنية في شقة وثيرة مريحة وقد تغمدنا السلام؟ أصحيح أننا نحن أولئك الذين خاضوا تلك المعارك الكثيرة وكانوا في أشد العمليات خطورة؟ أصحيح أننا نحن أولئك المرضى والجرحى الذين كانوا يهتزون على العربات الخشبية ويخوضون في الطين والأوحال وعبر المسالك الوعرة الشاقة وما كانوا ليحلموا بالفراش النظيف ولا بالماء المغلى ؟.. يا للقوى الهائلة التي كانت تكمن في كل منا!

الآن، صار كل هذا في «خاطر الأيام السالفة» .

لقد توزع رفاقي الأنصار في شتى أرجاء الاتحاد السوفيتي الكبير . فبعضهم عاد الى المعامل والمصانع ، وبعضهم الى الكولخوزات ، والبعض الآخر دخلوا المعاهد والمدارس الثانوية المهنية . أما أكثرية الأنصار الساحقة فقد بقوا في تلك الأماكن حيث كانوا يقطنون قبل نشوب الحرب وحيث كانت كتيبتنا تقوم بأعمالها . لقد عادوا جميعا الى العمل السلمي ليعطوا كل معارفهم وطاقاتهم وخبراتهم الى البناء الشعبي العملاق الجبار بعد الحرب.

ولا أزال في أغلب الأحيان أستلم الرسائل من الرفاق الانصار . وهم يقدمون الى موسكو لقضاء حاجياتهم الخاصة من حين الى آخر ، ويعرجون على منزلي دائما ، ولهذا فانني أعلم المصير اللاحق لكثيرين منهم .

لقد قدمت فاليا الي في موسكو في عام ١٩٤٦. وقد نالت قسطا وافرا من التعذيب الشديد. فعندما كنا جميعا في المناطق التي تم تحريرها كانت فاليا تخضع لتعذيب وحشي من قبل الغستابو . لقد كان يطالبها الجلادون بأن تفشي لهم عن مكان «باول زيبرت» والمنازل السرية التي كانت تحت تصرف الأنصار ، وأن تدلي بأسماء الرفاق . لكن فاليا لم تقل لهم شيئا ، فسجنوها في سرداب حيث كان المواطنون السوفييت يسبحون في دمائهم بعد أن اغتالتهم أيدي القتلة . ثم ساقوها للاعدام رميا بالرصاص ،

Twitter: @ketab_n

وما أصعب الموت في مقتبل الحياة ، في التاسعة عشرة من العمر ! لكن فاليا تحملت بجلد كل الآلام ولم تنبس بكلمة. وقرر الغستابو ارسالها الى لفوف ومنها الى ألمانيا الغربية آملين في الحصول على بعض المعلومات منها .

وصادف يوم النصر فاليا في أحد معسكرات الاعتقال في ألمانيا . ومن هناك عادت الى الوطن .

أما تيرينتي فيدوروفيتش نوفاك وبوريس كروتيكوف ومستطلعنا السابق فاليا سيميونوف وعشرات آخرون من الرفاق فقد دخلوا المعاهد لاتمام دراساتهم فيها .

اللاسلكية مارينا سيميونوفنا كيخ عادت الى مدينتها لفوف حيث بدأت دراستها كذلك .

وقد كتب الي بعض الأنصار السابقين من مدينة لفوف :

«اننا نعجل في أن نجعلك تشاركنا فرحتنا يا دميتري نيقولايفيتش . لقد انتخبت مارينا نائبة في المجلس الأعلى لأوكرانيا» .

انتسب كوليا الصغير بعد الحرب الى المدرسة وصار ميكانيكيا للسيارات . ولم يعد كوليا صغيرا: فقد صار في قد قائده ذاته . وهو لا يزال يحمل ميدالية الأنصار من الدرجة الأولى معتزا بها .

أما تربه فولوديا فهو يعيش الآن مع أبيه وقريبا سينهي المدرسة الثانوية.

وفي شهر أيار (مايو) عام ١٩٤٦ جاءتني رسالة من الادارة العامة لاتحاد الوطنيين البولونيين في الاتحاد السوفيتي، وكانت قد أرسلتها غرينشبان لا غيرها . فقد طلبت في تلك الرسالة «الحث عن ابنها بينيا الذي هرب من حكم الاعدام، والذي تقول عنه الاشاعات بأن كتيبة أنصار العميد ميدفيديف التقطته في احدى الغابات ثم أرسلته بالطائرة الى موسكو».

ولم نضطر الى البحث عن بينيا. فقد كنا نعلم أنه موجود في أحد بيوت الأطفال في ضواحي موسكو ، وأبلغنا

Twitter: @ketab_n

أمه عن مكان وجوده . وعثرت أخيراً على ابنها الذي كانت تحسبه في عداد الأموات .

ثم غير ألبرت فينيامينوفيتش تسيسارسكي مهنته وانقلب الى حقل التمثيل . لقد كان يحلم بالمسرح منذ أن كان بيننا في الكتيبة .

أما كوليا فاديف الذي أجرى له تسيارسكي العملية الجراحية فقد صار يعمل مديرا لمطحنة في مولدافيا . وفي شتاء عام ١٩٤٦ قدم الي وقال :

– الحال سيئة ، أيها الرفيق القائد ! ان مطحنتي خالية تقريبا . قحط وجفاف .

– وكيف حال رجلك الاصطناعية؟ ألا تضايقك ؟

– لقد اعتدت ! أنط عليها كما على رجلي الأخرى !

وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧ وصلتني منه رسالة: «أن الأعمال كثيرة في المطحنة بصورة لا تدع لي مجالا أتنفس . ان محصول هذا العام جد وفير» .

ومنذ مدة كنت في روفنو ولفوف والأماكن الأخرى التي عملت بها كتيبتنا أيام الحرب . وقمت بزيارة كثير من الأماكن بصحبة الاخوة ستروتينسكي ، وشيفتشوك وغنيديوك التي كان لها صلة تجمعها بماضي أعمالنا هناك. وكنا نلتقي بأصدقائنا في السلاح في كل مكان . وهناك عن لنا خاطر يقضي بجمع كل أنصار كتيبتنا السابقين . وتم الاجتماع في حديقة شيفتشينكو عند قبر كوليكوف وغالوزو وغيرهما من الوطنيين الباسلين .

* * *

فاليا في احدى رسائلها الي ذكرتني بكلمات كان قد قالها ذات مرة نيقولاي ايفانوفيتش كوزنيتسوف :

«انني لأتصور كيف أن الازدهار سوف يرفرف فوق أرضنا خلال خمسة أو عشرة أعوام بعد النصر. فيالها من حياة تلك التي سوف تكون !.. فاذا ما حدث لي حادث

Twitter: @ketab_n

ليبق في علمك أنني كنت أسعت انسان على وجه البسيطة لأنني ناضلت من أجل هذه الحياة» .

قرأت هذه الكلمات التي خطتها أنامل فاليا وفكرت :

«حقا ! ان كفاح الأنصار وكل التجارب المريرة القاسية التي كان علينا أن نخوض غمراتها لسعادة ، وأيما سعادة !»

ولا أزال أفكر بيني وبين نفسي : «أصحيح أننا نحن أولئك ؟»

أجل ،نحن أنفسنا ، أبناء الوطن السوفيتي البسطاء . ان الخطر الذي كان يحدق في تلك الايام بالوطن ، وان نداءات الحزب جعلتنا أقوى مما نحن عليه بعشرات المرات . واذا ما فكر أحد بالهجوم على بلادنا من جديد فان آلاف وملايين الناس البسطاء سوف يهبون من جديد للذود عن حياض الوطن الغالي، وسيقدمون كل شيء قربانا ليبقى وطنهم العظيم خالداً لهم الى الأبد.

١٩٤٨

Twitter: @ketab_n

محتويات

التدريب	٣	مارفا ايلينيتشنا	١٣٢
قفزة القتال	٨	عمليتان حربيتان	١٤٠
اللقاء	١٣	المسئعدون	١٤٧
اول معركة	١٨	الاصحاب المزيفون والاصحاب	
في الطريق	٢٤		
الكتيبة تكبر	٢٩	الحقيقيون	١٥٥
في المعسكر	٣٣	في مكتب كوخ	١٦١
«نظام» رهيب	٤٤	«العملاء» و «المضاربون»	١٦٩
الاب والبنت	٥٢	لقاءان مع كوفباك	١٧٦
«باول زيبرت»	٥٨	فولوديا	١٨٤
الخنجر الفضي	٦٥	من بين المخالب	١٩٢
اسرة من الانصار	٧٢	الانتقام	١٩٦
كوليا الصغير	٧٨	في المعسكر الجديد	٢٠٥
العيد	٨٣	«سيد الموت» يندحر	٢١١
افضل من الهويات الحقيقية	٨٨	والبقية تتبع	٢٢٠
لم يتعرفوا على ذويهم	٩٦	فترة استراحة	٢٢٨
جزاء سريع	١٠٢	التشييع	٢٣٦
طوق الورود	١٠٧	الشوط الاخير	٢٤٥
«عاصمتنا»	١١٤	هدوء مخادع	٢٥٢
مأثرة	١٢٠	رسالة كوزنيتسوف	٢٥٨
في محطة زدولبونوفو	١٢٥	الخاتمة	٢٦٤

Twitter: @ketab_n

الى القراء

ان دار «رادوغا» – فرع طشقند – تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وأبديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان: المركز ١٤ العمارة ٣٣
طشقند – الاتحاد السوفيتي

Twitter: @ketab_n

يصدر قريبا :

«أرى الشمس»

لنودار دومبادزه كاتب جورجي سوفيتي شهير.

«حكايات العم اوهان»

لافيتيك اساهاكيان شاعر ارمني سوفيتي بارز.

Twitter: @ketab_n

ولد مؤلف هذا الكتاب دميتري نيكولايفيتش ميدفيديف (١٨٩٨–١٩٥٤) في مدينة بيجيتسا في محافظة بريانسك، في عائلة عامل من عمال صب الفولاذ. عمل منذ صباه في مصنع بريانسك والتحق في سن الشباب بصفوف الجيش الاحمر.

في سنوات الحرب الوطنية العظمى ارسل ميدفيديف، بناء على طلبه، الى مؤخرة العدو للمشاركة في حركة الانصار. ففي شهر آب من عام ١٩٤١ اجتاز مع مجموعة من المتطوعين خط الجبهة ونظم في المناطق القريبة من مسقط رأسه – غابات بريانسك – فصيلة أنصار. وهناك في المعارك اصيب دميتري نيكولايفيتش مرتين.

ولكن سرعان ما عهدت لميدفيديف مهمة جديدة: فبعد استدعائه الى موسكو، بدأ بتنظيم مجموعة متطوعين للعمل في عمق مؤخرة العدو. وفي حزيران عام ١٩٤٢ هبطت هذه المجموعة التي يقودها ميدفيديف، بالمظلات في أراضي اوكرانيا الغربية المحتلة من قبل العدو. وهكذا بدأت قصة كتيبة الانصار التي نفذت عمليات فدائية مجيدة. وهذا الكتاب مكرس للحياة التي عاشتها الكتيبة ومآثر افرادها البطولية.

ISBN 5-05-001738-0